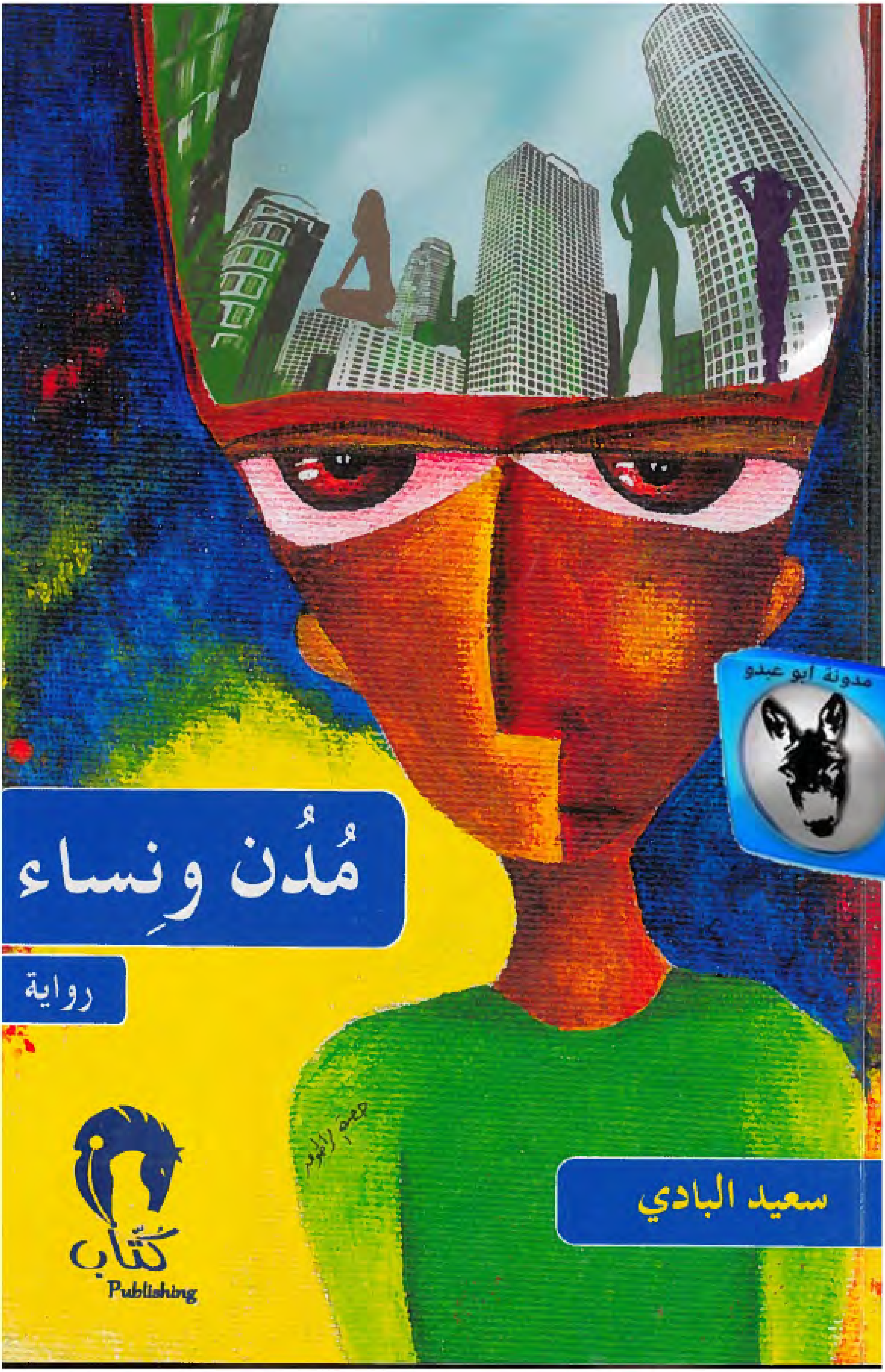

مُدُن ونِساء

رواية

سعيد البادي

كُتّاب
Publishing

مدونة ابو عبدو

5584

مُدُن ونِساء

رواية

مُدُن ونِساء

رواية

سعيد البادي

كُتّاب Publishing

مُدُن ونِساء
رواية

تأليف: **سعيد البادي**

تصميم الغلاف:

حِصّة الرَّاطُوق

hessa.alratooq1@gmail.com

hessaalratooq

تدقيق: **منى الشبلي**

نشر في دولة الإمارات العربية المتحدة

الطبعة الأولى: 2015

Publishing

©دار كتّاب للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

info@kuttab.ae

جميع الحقوق محفوظة، يمنع استخدام أي من المواد التي يتضمنها الكتاب أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة الكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، إلّا بإذن خطّي من الناشر.

تمّت الموافقة عليه من قبل المجلس الوطني للإعلام

رقم الطلب 67275

ISBN978 9948 18 795 0

الأفكار والآراء المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن آراء الكاتب ولا تعبر عن رأي دار كتّاب للنشر والتوزيع بأي شكل من الأشكال.

الطباعة

Smart
Digital Printing Press

info@smartprinting.ae

UAE

مُدُن ونساء

الإهداء

إلى ملهمتي بطلة الرواية

الفصل الأول

روحُ الغزاة الفاتحين

ها أنت تقف الآن مرةً أخرى على مشارف أوروبا.. القارة العجوز، من هنا، من اسطنبول ستنطلق فاتحًا غازيًا، أو هكذا تُسوّل لك نفسك لكنّك لا تحمل سوى خارطة المدن، وعليها بيان خطوط السكك الحديدية، وتلك الحقيبة المُهترئة التي وضعتَ فيها نصف أسمالك، ولبستَ البقية لتحتمي من صقيع أوروبا، الذي لم تحتمله كل الجيوش الغازية..!

اليوم وبعد مرور كل تلك السنين، لا تزال تعيش في أوهامك، تُرى ما الذي يجعلك تحسب نفسك رحّالاً مغامرًا، أو مستكشفًا فاتحًا، وأنت لست سوى صعلوكٍ هاربٍ من الأقدار، ومن ذاتٍ ضائعةٍ هائمة في زحام الحياة، وبين حطام الفؤاد المفطور، حتى صرت تعيش بين براثن الخوف والضياع وهواجس النفس المحطّمة المدمّرة، التي أحدثتَ فيها شروخًا عميقةً بأفعالك الدنيئة، لأنّ خطاياك وآثامك ما هي إلا نِتاجٌ طبيعي لوجودك في هذه الحياة، إنّه قدرك المحتوم الذي لن تستطيع الهروب منه مهما حاولت، إنّها أشباح الماضي التي ستبقى تطاردك إلى الأبد..!

قد يتآكل فؤادك ويعتصره الألم والندم، لكنّ زمن الحسرة والنّدامة قد ولّى وأفل، وقد فات ما فات، فقد حظيت بكل ما تتمنّاه، لكنّك ضيّعته، وجدتَ الحب الذي تبحث عنه، لكنّك قتلته بخياناتك، فلا تعايش بين الحب والخيانة، وما أنت سوى عابث تعيش في جسد طفل كبير، لا تعرف قيمة الأشياء إلا بعد فقدانها، كأنّ ذلك انعكاس

حتمي لطفولتك البائسة..!

لم يعد كل الندم الذي يوجد في هذه الدنيا كافيًا لتشعر بالتّحرر ممّا أنت فيه، لم يعد هناك فرصةٌ للبحث عن خلاص عاطفي، خلاص داخلي، وعن شفاء لجروح النفس، وعن ترميم للحياة الممزّقة المنذورة دومًا للخطر والمغامرة التي ترمي بنفسك في أتونها، في سعيك الدائم من أجل استعادة الذات المشتتة التائهة في غابات الخيانة وصحراء الوحدة القاتلة، والتي تُوقن أنّك لن تستطيع استعادتها، أو إنقاذها، لأنَّ حياتك باتت تتحوّل إلى خيوط من العجز والضعف والهوان، منجرفة ببطء نحو الهاوية، ومهما فعلت ستبقى مسكونًا بحب ضائع إلى الأبد، لأنّ لعنةً أصابتك وتصيب بها كل من تقترب منه أو تلمسه، فتلجأ إلى الأوهام لتعيش بداخلها، لتمارس ارتباطك الفطري بالبحث عن تجارب أخرى، والغوص في عوالم مجهولة خفية، لتشبع شغفك بالاستكشاف والسفر إلى المجهول، لتشعر بلذة في كراهية الذات، بلذة في خداع النفس، حتى تفتك بكل ما تبقّى من حياتك البائسة، فلا تعود قادرًا على معرفة وجهتك المقبلة، لأنك واثق من أنّها لن تصدّق أعذارك ولن تغفر خيانتك، وستبقى إلى الأبد تحت ركام الهجر والنسيان..!

تُرى هل أنتَ جاد أصلاً في البحث عنها؟ أم أنّه مجرد بحث من أجل الشعور برضا النفس وبخلاص عاطفي داخلي..!

تنهدتُ عميقًا، مرددًا لا شعوريًا بصوتٍ مسموع: آه، آه من الحب، إنّه هو الذي يجعلنا نشعر بالحياة..

انتبهت، تلفّت حولي بينما استرسلت الأفكار في ذهني بنفس الوتيرة: بل إنّه الحب هو الذي يدفعني لخوض هذه الرحلة بحثًا عن الحب الضائع، والذات التائهة المشتتة، حتى وإن صار الحب مستحيلاً، بعد أن ضاع من أجل حماقات ومغامرات لا تنتهي، حماقات أضاعت كل شيء..!

لكنك مدفوع بإيمان راسخ بأن كل شيء في الحب مباح، لأنّ الحب لا يعرف الممنوع ولا الحدود، بل ولا يعترف بالحواجز والقوانين..!

مضت برهة كأنّي أعيش حلمًا، أفقت منه على صوتٍ نسائي وأنا جالس أمام جدار زجاجي أحدّق في الطائرات الجاثمة في الخارج على أرضية مطار اسطنبول منتظرًا الطائرة التي ستُقِلّني إلى روما..

أرضية المطار مُبللة وثمة قطرات مطر على الجدار الزجاجي، الصوت النسائي يكرّر نداءه عبر مُكبِّر الصوت بالإنجليزية: النداء الأخير، الطائرة المتجهة إلى روما على وشك الإقلاع، يرجى التوجّه إلى البوابة رقم 9 حالاً..!

اختلّ توازني وتعثرت بالحقائب وأنا أنهض لأنطلق مسرعًا باتّجاه بوابة الطائرة، مثيرًا شيئًا من الرعب والفوضى بين المسافرين حتى وصلتُ الطائرة في اللحظات الأخيرة.

في الطائرة، وأنا أجلس واجمًا محشورًا في كرسي في الدرجة السياحية، مرّت في خيالاتي صورها، وتلك الذكريات الجميلة التي قضيناها معًا ذات شتاء، تراودني الابتسامة كلما تذكرتها، ليتني

لم أخُنها، ليتني لم أخذلها، تبًا للحماقة، كم كنت أحمقًا عندما فعلت ما فعلت، كان يجب أن أتشبث بها أكثر..!

كم كانت رائعة، كحورية خرجت من أعماق البحر، حسناء جميلة كأنّها القمر، غامضة ساحرة تخطف اللّب والبصر، عينيها، آه من عينيها، كأنّه لم يخلق مثلهما في البشر، كانتا تجبرانني على الاستسلام كلما نظرت إليهما.. كلما تأملتهما وغرقت في بحرهما اللجي..!

شفتاها محال ألّا يذوب منهما الحجر، ضحكتها عذبة تنساب كجريان مياه النهر..

يجب أن أعثر عليها، وأطلب الصفح منها، لا أستطيع أن أتركها تختفي من حياتي هكذا بكل بساطة وهي تحمل قلبي في صدرها، فذلك يجعلني أشعر بخواء داخلي، بل أشعر بأنني هائم على وجهي، تائه، مشتت، مشرّد، منذ أن فقدتها شعرت بأني خسرت كل شيء، بل وفقدت الرغبة في الحياة، ولذلك عليّ استعادتها لأستعيد حياتي وذاتي، لهذا عليّ خوض هذه الرحلة، وليس أمامي الآن إلا العودة إلى البداية، إلى المكان الذي رأيتها فيه أول مرة، فلابدّ من مكان ما أبدأ منه، لطالما حدثتني عن حلمها بالاستقرار في روما والعيش فيها إلى الأبد، لابدَّ أن أعود إلى ذلك المقهى الذي قابلتها فيه أول مرة في حي «تراستيفيريه» الشعبي، كم كانت جميلةً يومها ومشرقة كوردة بيضاء نضرة..!

الفصل الثاني

العذراوات الثلاث

وصلتُ روما مساءً، وركبتُ سيارة أجرة من المطار، طلبتُ من سائقها أن يوصلني لأي فندق معقول فميزانيتي محدودة، لكنني سأتدبّر أمري ولن أترك هذه البلاد إلا إذا سمعت منها كلمة واحدة..!

وجدت نفسي في نزل يقع في نهاية زقاق مرصوف بحجر بين مبان حجرية قديمة، يبدو مكانًا نظيفًا ويفي بالغرض، خصوصًا أنّه قريب من كل شيء، ويطلّ من الجهة الخلفية على حديقة عامة، واسعة خضراء حتى في هذا الوقت من العام، النزل تملكه وتديره أرملة، تبدو في العقد السادس من عمرها، ممتلئة الجسم، طيبة القلب. رحبت بي بلطف شديد، لدرجة جعلتني أشعر بأنني أحد أفراد العائلة، يساعدها في إدارة النزل شاب ربما يكون ابنها، وفتاة تسجل دخول النزلاء وتعطيني مفتاح الغرفة كلّما عُدت من الخارج، ربّما تكون قريبتها أو ربيبتها، الشاب على ما يبدو مهتم بها، بل وربما يغار عليها، لاحظت ذلك لفرط مراقبته لها، أو بالأحرى مراقبتي عندما أتحدث معها.

في المساء، خرجت متوجهًا إلى حي «تراستيفيريه» بحثًا عن الحب الضائع، عبرت ساحة «نافونا» التي كانت في قديم الزمان ملعب «دوميتسيانو» الذي كان يتسع لحوالي ثلاثين ألف متفرج، لكن مع مرور الوقت تهدّم الملعب، وبُنيت فوق أطلاله هذه الساحة.

توقفتُ أمام نافورة «تريفي»..

يا إلهي، حتى وهي غائبة، لا تزال قادرة على رسم ابتسامة على وجهي، لا يمكنني أن أمرّ من هنا وألا أتوقف فهي تحب هذا المكان، رميت قطعة نقدية في النافورة كما كنّا نفعل أنا وهي، تأمّلت النافورة للمرة الألف، فقد كنّا نقف أمامها كل يوم، كانت هي تحب أن تكون إحدى العذراوات الثلاث اللاتي يرمزن إلى الجمال والخصوبة كما تقول الأساطير اللاتينية القديمة.

أكاد أسمع صوتها الرقيق وهي تحكي لي قصة هذه النافورة محركة يديها في الهواء بطريقة استعراضية، ثم تحرك شعرها الكستنائي بطريقة طفولية، لطالما أخبرتني كم تحب هذه النافورة كغيرها من ملايين البشر، وأنا أحب سماع روايتها، حفظت قصة النافورة عن ظهر قلب فلا يزال صدى صوتها يتردد في أذني: عام 1762 وبأمر من أحد الباباوات بُنيت هذه النافورة على بقعة صخرية يقع فيها نبع ماء غزير، هو نبع العذرية، حيث كانت بنات روما في ذلك الزمان، يأتين إلى هذا النبع لتمنّي الزواج، بينما تقصده النساء المتزوجات من أجل تمنّي نعمة الأمومة وطلبِ الذرية، فقد كان لذلك النبع قبل أن تُبنى عليه هذه النافورة أساطير تُحاك حول تحقيق الأمنيات.

ثم تضحك وتروي الرواية التي تُفضلها، تدور حول النافورة وهي تقول بحماس: إنّ هذه النافورة وغيرها من النوافير التي تنتشر في المدن الإيطالية تمثل قصة العذراوات الثلاث، الموجودات في الأساطير اللاتينية اللاتي يرمزن إلى الخصوبة والنقاء، إنّ تلك

الأسطورة تعتبر الأكثر انتشارًا في معظم المدن الإيطالية، وحيث توجد نافورة مياه، أما رمزية النافورة والأشكال التي تحملها، فمعانيها تدلّ على الخير والجمال والحق. ويمثل وسط النافورة تمثال الإله نبتون الذي يقف على عربة يجرها حصانين وتحيط بها العذراوات الثلاث، فيما تمثل البركة التي يُصبُّ فيها الماء الغزير، المحيطات أمّا دائرتها البيضاوية فتمثل الفصول الأربعة في تقلبها وتغير أحوال العالم.

شعرت برغبة عارمة في الاغتسال في مياه العذراوات، لعلّ عذوبة الأيام التي مرت على هذه المياه تمحو آثار الخيانة والبؤس والحزن. وفي تلك اللحظة دارت بخلدي فكرة، فشعرت بالغباء، فربما كانت تلمّح لي بأمنيتها بالزواج لكنني كنت غبيًا ساذجًا كأنّي أعيش منعزلاً عن العالم.

جُبت كل المطاعم والمقاهي في شارع «تراستيفيريه»، وسألتُ عنها الندل والرُّواد، وانتظرتُ طويلاً لعلها تأتي أو تمرَّ من هنا، واستقرَّ بي الحال أخيرًا في مقهى «سانتوني» الذي كانت تفضّله، جلستُ انتظرها، وتناولت «الكرواسون» الذي تفضّله مع «الكابوتشينو»..

كانت كلَّ رشفة تذكرني بها، وكل قضمة من «الكرواسون» تجعلني أبتسم لأنّها كانت تحب طعم ذلك النوع من المعجّنات الذي يعده المقهى خصيصًا لرُوَّاده، كانت تحضرني إلى هنا خصيصًا لتناوله كُلَّ صباح في ذلك الشتاء قبل أربعةِ أعوام..

لقد امتلكتْ قلبي حتى ذاب في خفايا روحها فلم تعد الحياة تُطاق

بلا وجودها، فصار الموت رحمة من عذاب فراقها، لكنَّ الألم محتوم ومكتوب على مقترفي الخيانة، ولا عذاب أكبرُ من فقدان الحبيب، أُوقن الآن أنني لن أستعيدها، لقد فقدتها إلى الأبد..!

تأخّر الوقت، ولمّا لم يبق غيري في المقهى، شعرتُ أنّ العاملين في المقهى يشعرون بالشفقة عليّ. تقدّم نحوي النادل العجوز المهذّب الأنيق قائلاً: اعذرني يا سيدي فهي لن تأتي ونحن على وشك أن نغلق المقهى..!

سرتُ بعدها مُنكفئًا على نفسي إلى النزل، البرد قارس ورياح الشمال تعصف، محوّلة كل شيء إلى زمهرير يكاد يجمّدُ كل شيء حتى المشاعر، رأسي يؤلمني من البرد، ووجهي يكاد يتجمّد، وأسناني تحدث صريرًا وهي تصطك من البرد، إلى أن وصلت إلى ساحة نافونا حيث رأيتُ بائعًا آسيويًا قد أشعل نارًا على موقد وضعه على برميل، يبيع عليه كستناء مشوية، كنّا نشتريها معًا في ذلك الشتاء الجميل، توقفتُ أمام الموقد طلبًا للدفء والذكريات، صورتها تغازلني ولا تفارق مخيلتي، حضورها طاغٍ في رأسي وقد خفت الحركة في هذه الساحة في مثل هذا الوقت ومثل هذا الطقس السيء.

تلك الساحة صارت فيما بعد مكاني اليومي المفضل، وهي من أهم الساحات في المدينة، إذ تقام فيها المهرجانات والاحتفالات، صرت أجلس كل يوم هنا أراقب المارّة والعُشاق والسُياح، الذين قد تراهم يجتمعون حول الرسامين والفنانين الجائلين ليحضوا

برسومات كاريكاتيرية مقابل مبالغ زهيدة، وقد يتجمع العشاق عند بائعة الورد التي اتّخذت كشكًا في الزاوية الشّرقية من الساحة. وفي كل مساء، تتحول هذه الساحة إلى ملتقى للرومانسية والحب، وكان ذلك يلهب الأشواق ويفجر مكامن الجوى والهوى في النفس، فأنكفئ أكثر على الذات، وأهرب إلى مقهى «سانتوني» في انتظارٍ بائسٍ لحب ضائع أوقن تمامًا أنني لن أستعيده..!

الفصل الثالث

ألف لعنة ولعنة

على مدخل نفق المشاة، المفضي إلى ساحة «نافونا»، تجلس عجوز غجرية مفترشة بساطها وودعها وأوراقها؛ لتبصر للعشاق ما يخبّئهُ لهم الغيب، وهي ككلِّ العرّافين تُسمع المُتلقيَ ما يريد سماعه، أو ما تراه عبر أوراقها ورمال البحر وأصدافه.

شعرت بأنّني أرغب في سماع شيء عن توأم الروح وعن الحب الضائع الذي أبحث عنه. اقتربتُ من العرافة علّها ترشدني إلى مطلبي وتساعدني في بحثي كحال كلِّ العشاق الذين لا حيلة لهم.

اقتربت منها، جلست أمامها، فغمغمت بكلمات وتعاويذ وهي تهز يدها بأصداف بحرية قديمة، ثم رمتها على رمال البحر البيضاء. انتفضت وتغيرت، وبعد برهة صَمتت، ربما لإضفاء نوع من الغموض، حدقت بي وهي تقول: اعذرني «سنيور» لا أستطيع قراءة طالعك..! شعرتُ بأنَّها تريد شدَّ انتباهي، فألححت عليها بطريقة مصطنعة حتى تخبرني بما رأت، قلت لها وقد اعتدلت في جلستي أمامها: ها قد استحوذتِ على اهتمامي فأخبريني بما رأيتِ فلا شيء يخيفني أو يهمني، إنَّه مجرد فضول يراودني.

أشاحت برأسها عني، وأشارت إليّ بيدها لأبتعد، غير أنني بقيت جالسًا أمامها لا أتحرك، وبعد برهة نَظرت إليّ، ثم مدَّت يدها فمددت يدي، فتفحصتها، ثم أمسكت يدي الأخرى، وقلبتها ثم قالت وهي لا تزال تمسك بيدي فأشعر بدفء يديها المرتجفتين: قدر محتوم ولعنة تطاردك إلى الأبد، ألف لعنة ولعنة، أشباح وظلال

تسكن روحك، لن تستطيع محاربتها حتى تجد ذاتك، ماضيك كأفعى سوداء تطاردك، أمامك نفق مُظلم طويل لا نهاية له، فإن نجوت منه، ستتحرر من سجّانك..!

ثم صمتت وهي لا تزال تمسك بيدي، شعرت بحيرة، والابتسامة الباهتة تلاشت من وجهي، ثم ارتعَشَت وارتَجفَت قبل أن تقول بلهجة يائسة: اتّجه إلى غروب الشمس فقد تنجو وتتخلص من كل لعناتك..!

ثم أشارت إليّ بيدها لأرحل من أمامها رافضة أن تأخذ مني مقابل خدماتها أو ترهاتها، وغادرتها مبتسمًا وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة.

صرت أتناول إفطاري كل صباح في مقهى «سانتوني» قبل أن أنطلق هائمًا على وجهي في شوارع وأزقة روما، غير أنني ما ألبث أن أعود إليه في المساء لأمضي فيه بقية اليوم.

المدينة برغم البرد تشعرك بالدفء، ربما بسبب تراكمات السنين فهي من أقدم المدن في تاريخ البشرية، تجعلك تشعر بشيء من الغموض في كل زاوية من زوايا مبانيها الحجرية القديمة، تختلط في تاريخها القصص بالأساطير، ويجذبك تاريخها المفعم بالحب والخيانة وسفك الدماء.

تُرى، هل قُدِّر لي أن ألتقيها في هذه المدينة، لأنَّ نهايتنا ستكون نهاية مأساوية، مثل كل نهايات قياصرة روما القديمة الذين انتهت حياتهم بسبب الخيانة من أقرب الناس إليهم، هل كان لقائي بها

هنا إشارة إلى ما سينتهي عليه حالنا..؟

أصابتني قشعريرة عندما مرت في بالي التراجيديا اليونانية القديمة، واللعنات التي تصيب أبطال القصص في كل النهايات.

تحكي لك هذه المدينة ذاكرتها في كل ركن من أركانها العتيقة، بعض الروايات تقول، إنّ جماعة صغيرة من الرعاة استوطنت هذا المكان في وسط إيطاليا، تطورت إلى أن أصبحت فيما بعد واحدة من الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ، ثم انهارت مخلِّفة كل تلك القصص على مر العصور، وكل تلك الآثار الكثيرة المنتشرة في المدينة، والتي تجعلك تشعر أنّك تعيش وسط متحف مفتوح في الهواء الطلق، وهو ما كان يسلي وحدتي ويدفئ أيامي الشتائية الباردة..

لقد أحببت روما من قبل، لكنَّ حبي لها يتجدد لأنَّها المكان الذي شهد ميلاد حبنا، لطالما كانت تحدثني بفخر عن هذه المدينة، ومدى حبها لها، أكاد أحفظ كل كلمة أخبرتني بها عن تاريخ المدينة، طريقة حديثها تشدني، تستحوذ على كل اهتمامي، لأنَّ كل حروفها كانت تخرج بطريقة ساحرة شاعرية، كأنَّها تلقي شعرًا، كأنَّ صوتها العذب لا يزال يتردد في المكان، وهي تعود بي إلى أعماق التاريخ لتقص عليَّ قصة المدينة: تقول الروايات الرومانية أنَّ المدينة تأسست سنة 753 قبل الميلاد، وفي نحو سنة 275 قبل الميلاد سيطرت روما على معظم شبه الجزيرة الإيطالية وشملت الإمبراطورية، وهي في أوجها، في القرن الثاني الميلادي نحو

نصف أوروبا والقسم الأكبر من الشرق الأوسط والساحل الشمالي لأفريقيا. ثم بدأت في التفتت وأطاحت القبائل الجرمانية، المولعة بالحرب، بآخر إمبراطور روماني سنة 476م..

الفصل الرابع

الخطيئة

في نُزُل السيدة فرايدا، كنت أعود متثاقلاً مرهقًا كل مساء، أشعر بالبرد والوحدة والتيه، بعد أن فقدت بوصلتي عندما ضاع كل ما كان يجعلني أرغب في الحياة، تستقبلني فاليري، تلك الفتاة الحسناء بابتسامتها الناعمة وهي تقف خلف منضدتها لتناولني مفتاح الغرفة، يدور بيني وبينها حوار مقتضب، وأحيانًا أحييها فقط، وأُمضي في طريقي إلى الطابق العلوي حيث غرفتي في نهاية ممر يضم ثلاث غرف أخرى متواضعة.

غرفتي صغيرة، تضم سريرًا مفردًا، وُضع في وسط الغرفة، وعُلقت أعلاه لوحة رخيصة لفنان مغمور، وبجانبه وضعت منضدة صغيرة، وضع عليها منبه ومصباح خافت، وبها نافذة عليها ستائر كتانية باهتة، تطل على الحديقة العامة. تحت النافذة توجد طاولة مكتب صغيرة وضع عليها بضعة أوراق بيضاء وقلم رصاص، وأمامها كرسي خشبي متواضع، وبجوارها يوجد دولاب الملابس، أما دورة المياه فهي مشتركة وتقع في نهاية الممر.

في أحد الليالي وبينما أنا عائد في وقت متأخر متثاقل كعادتي شعرت أنَّ فضولاً ينتاب فاليري التي ما إن رأتني حتى طلبت مني الجلوس فلم أستطع مقاومة دعوتها، خصوصًا وأنّها طيبة معي تمامًا كالسيدة فرايدا التي تحرص دائمًا على راحتي وتطمئن عليّ كلما غادرت النزل كل صباح.

جلست أمام فاليري وشعرت أنَّ هناك شيئًا مختلفًا هذه الليلة

في هذه الحسناء، تبدو متوهجة وكأنَّ هالة تحيط بها، ولأول مرة يتضح لي أنَّها تشبهها، يا إلهي، جبهتها، شعرها الكستنائي الذي تترك خصلة منه تتدلى ناحية عينها اليسرى، ذقنها الصغير ولون شفتيها الوردي.

وجدتني أحس بشعور مريح وأنا أجلس واجمًا أمامها بدون أن أجد مفتاحًا للحديث، لدرجة أنَّها تململت وشعرت بالحرج، غير أنها حركت يديها أمام عيني بطريقة مسرحية، ثم أصدرت ضحكة مكبوتة جعلتني أجزم أنني أعرف هذه الضحكة وقد سمعتها من قبل..!

كنت شارد الذهن وأنا انظر إليها، وشعرت بالحرج وأنَّ الوقت قد حان لأصعد إلى غرفتي غير أنني ترددت وتلعثمت وقلت: تبدين متوهجة رائعة الجمال هذه الليلة آنسة فاليري.

ابتسمت واحمرَّت وجنتيها وشكرتني ثم قالت: هل تحتاج إلى شيء سنيور؟

لم تنتظر مني جوابًا وأردفت: اعذرني لكنني أراك تعود دائمًا في نفس هذا الوقت، هل تعمل حتى وقت متأخر من الليل؟

نظرتُ إلى فاليري واجما وكانت تنتظر إجابتي على سؤالها فقلت: عذرًا لم انتبه، ماذا قلت يا عزيزتي؟

قالت وقد تلعثمت: عذرًا لا شيء مهم، ثم أعادت صياغة سؤالها ترى هل وجدت ما تبحث عنه؟

قلت: ليس بعد..!

مرت برهة صمت ثم قلت: لكنني سأجدها حتمًا..!

قالت وعلى شفتيها ابتسامة خافتة: من هي؟

ترددت قليلاً لبضع لحظات قبل أن أجيبها، وقد لاحظت فاليري ترددي فقالت: أرجوك اعذرني إن كنت أتطفل عليك؟

قلت: لا بأس، إنَّها توأم الروح التي أضعتها فضاعت معها ذاتي وصرت غير قادر على إكمال حياتي بدونها، لم يعد بإمكاني إكمال الرحلة وحدي ولهذا جئت أبحث عنها..!

قالت بغنج: هل هي جميلة إلى هذا الحد؟ هل هي إيطالية..؟

هززت رأسي إيجابًا، فقامت فاليري من مكانها وجاءت وجلست في الكرسي المقابل وكأنَّها أشفقت عليّ، ثم ربتت بيدها على ركبتي وقالت: لا تحزن، ستجد هنا في روما أجمل نساء الأرض، لا عليك ستنساها مع مرور الوقت فقط اسمح لنفسك بالنسيان، ستجد غيرها، فهناك مليونين ونصف يعيشون في هذه المدينة وأشك أنَّك ستجدها إذا لم تكن تعرف عنوانها أو رقم هاتفها..!

ثم حاولت أن تغيِّر مجرى الحديث، فوقفت وقامت بحركة استعراضية ولفت جسدها أمامي وهي تقول: ألا أعجبك أنا؟ ألا تعتقد أنني جميلة؟

شعرت أنَّ فاليري تحاول أن تغويني أو تشفق عليّ وتحاول أن تسليني وتنسيني، نظرت إليها مبتسمًا وأمسكت بيديها وأجلستها أمامي على الكرسي المقابل، ثم قلت: أنت فعلاً جميلة عزيزتي فاليري..

ثم وضعت كلتا يدي على وجهها وأنا أقول: يا إلهي أنتِ آية في

الجمال..
ارتجفت قليلاً بفعل قشعريرة أصابتها سببتها يداي الباردتين على خديها الدافئين، فنهضت وقد شعرت بالحرج وأصلحت هندامها وهي تتوجه لتعود إلى مكانها خلف المنضدة، دارت حولي وهي تضع يدها على كتفي لتكمل دورتها نحو مكانها المعتاد..
تبعتها عينيّ بصمت إلى أن استقرت على كرسيها، تلفتت يمينًا ويسارًا ثم ما لبثت أن عادت إلي، فتوقفت أمامي وأمسكت برأسي وضمته نحو جسدها حتى شعرت بدفء ردفيها، ووجدت يداي تطوقانهما بينما اندس راسي في ثنايا ملابسها القطنية حتى أمكنني ملامسة ساقيها فوجدتها ترفعني لأقف أمامها مباشرة وقد احتضنت جسدها وهي لا تزال ممسكة برأسي لتدسه في ثنايا صدرها، حتى اضطربت أنفاسها فجعلت صدرها يرتجف صعودًا وهبوطًا، فرفعت رأسي إلى أن ارتجفت عندما لامس وجهي البارد عنقها الدافئ، قبلت عنقها وخديها وشفتيها وهي تعتصرني بعنف بكلتا يديها.
عشت تلك اللحظات وكأنني في حلم، فقد شعرت بأنَّ توأم الروح وحبيبة القلب بين يدي، لكنَّها كانت مجرد أوهام، وانتفضت فاليري وتململت لتتملص من بين يدي، ثم نظرت إليّ وابتعدت وعادت إلى الجهة الأخرى من المنضدة التي تفصل بيننا، تلفتت حولها ثم طأطأت رأسها وكأنَّها منهمكة في العمل.
شَعَرت بالخجل وارتبكت وقالت بصوت خافت: اعذرني إن كنت

متهورة..!

تلعثمت، ارتبكت، ثم استدركت نفسي لأرد عليها بنفس الوتيرة: اعذريني أنتِ إن كنتُ أحمقًا..!

شعرت بغرابة الموقف، ولوهلة لم أتمكن من التصرف، ووقفت واجمًا أمامها ببلاهة، اضطربت نفسي ولم أجد غير الانصراف من أمامها والصعود إلى غرفتي.

خلعت أسمالي، رميتها فوق الكرسي الخشبي، ألقيت بنفسي على السرير، فكرت قليلاً في غرابة ما حدث، غير أنني ما لبثت أن غرقت في نوم عميق..

أفقت مبكرًا في الصباح التالي لأجد فاليري تشاركني الغطاء محتضنة جسدي وهي عارية تمامًا.

لست واثقًا ممّا حدث، غير أن شعورًا بكراهية الذات تملكني تلك اللحظة واستمر لبقية ذلك اليوم، تركتُ فاليري تغط في سباتها، وتسللت من الغرفة حاملاً حقيبتي المهترئة، نزلت لأجد السيدة فرايدا منهمكة في مكتب الاستقبال. حاولت أن أبدو طبيعيًا وأنا أعتذر لها بأنّ موعد رحيلي قد حان، وأنني استمتعت بالبقاء كل هذه الفترة في نزلها.

ابتسمت بكياسة ولباقة وقالت: كل المسافرين هكذا، يأتون ثم يذهبون، لا أحد يبقى إلى الأبد..!

ثم أردفت وهي تتناول ملفًا من أدراجٍ خلفها: نتمنى أن نراك مرة أخرى وتمنياتي لك برحلة سعيدة..

ثم مدت يدها بورقة كُتب عليها ما يتوجب عليّ دفعه،

ناولتها إيجار الغرفة الفندقية وهممت بالخروج فقالت: هل من شيء آخر يمكنني أن أقدّمه لك سنيور؟

قلت: لا شكرًا، لقد غمرتني بلطفك، وأنا ممتن كثيرًا، شكرًا جزيلاً.

قالت: لا عليك لقد اعتدنا أن نعامل نزلاءنا بهذه الطريقة، أرجوك لا تدع ما حصل البارحة يزعجك ففاليري شابة مرهفة المشاعر.

شعرت بالحرج وعبرت لها عن اعتذاري وامتناني وأنا أسلك الباب.

الفصل الخامس

مدينة الحب

عَبرتُ ساحة نافونا وشعرت برغبة في إلقاء نظرة وداع أخيرة على المكان، بل وكل الأماكن التي كنّا نحبها، فلم يعد لي بقاء في هذه المدينة، فقد كرهت نفسي، وعندما حاذيت نفق المشاة، تذكرت اللعنة التي تحدثت عنها العرافة، وزادت عندي وتيرة كراهية الذات، فقد ثبت عندي أنني لن أتغير، وأن الخيانة سترافقني إلى الأبد..

لم أذهب إلى مقهى «سانتوني» لتناول إفطاري كالعادة، فقد خشيت أن تراني هناك ولا زلت ملوثًا بآثار الخيانة، فجبت الشوارع على غير هدى وأنا أفكر في كلام العرّافة الغجرية حتى وجدت نفسي أمام محطة القطارات الرئيسية، استجمعت ذاتي واشتريت بطاقة سفر إلى باريس.

تجولت في المحطة بانتظار تحرك القطار، مررت بمقصورات للهواتف العمومية وفكرت في إجراء بضعة اتصالات هاتفية لقتل الوقت، غير أنني عدلت عن الفكرة فلم يكن لي رغبة في الحديث مع أحد..!

جلست منكفئًا على نفسي على كرسي معدني بارد متأملاً القطار الجاثم على السكة الحديدية.

كُتبَ على القطار بخط أحمر عريض «يورو اكسبريس»، كان طويلاً ملتويًا كأنَّه يمتد إلى ما لا نهاية، لونه اللامع يصوره ككائن أسطوري، أو أفعى عظيمة تتلوى بانتظار الانقضاض على الفريسة،

خالجني شعور بأنني تلك الفريسة التي ستبتلعها الأفعى العظيمة..!
وجهتي هي باريس إذًا، مدينة النور والملائكة، المدينة التي أحببتها دائمًا، وها أنا أعود إليها بمزيد من الشوق، بحثًا عن شيء ما، أو لعله بتأثير من كلام العرافة الغجرية، الاتجاه إلى غروب الشمس، وربما بحثًا عن ذاتي التي أضعتها في زحام الحياة..!
ترى هل صدَّقتَ كلام العرافة، أم أنَّك تبحث عن عذر للهروب إلى الأمام، هربًا من أخطاء الماضي التي لن تستطيع الفكاك منها، لأنَّها صارت جزء من تكوينك، وجزء من حياتك..؟
شعرت بالبرد، ورأيت محلاً صغيرًا يبيع طعامًا تركيًا، فدخلته بحثًا عن الطعام والدفء، إلى أن يُسمح لنا بصعود القطار، وقبيل السابعة مساء ركبت القطار، ووجدتني أتشارك المقصورة مع ستة أشخاص، شاب وصديقته الشقراء وسيدة عجوز ورجل بوجه مشوه يرتدي ملابس رثة، وشاب هندي يسافر وحيدًا أيضًا.
المقصورة صغيرة تضم ستة مقاعد تتحول إلى أسرةٍ في وقت النوم، اخترت مقعد السرير على يمين المدخل، وجلست السيدة العجوز في المقعد المقابل، بينما تقاسم الشاب وصديقته المقعد العلوي في الجهة المقابلة، ونام الهندي في السرير الذي يقع أعلى مكاني وبجانبه نام الرجل ذو الوجه المشوه.
وبعد التحرك بنحو ساعة، جاء محصل التذاكر وأخذ تذاكرنا وجوازات السفر، وقال إنَّه سيعيدها إلينا قبيل الوصول إلى باريس.
اتكأت على حافة المقعد القريبة من النافذة الزجاجية، وحاولت

النظر إلى الخارج لكنَّ الظلام كان يكتنف المكان، ولم أستطع أن أتبين أي شيء سوى أشباح الأشجار، وأضواء خافتة تأتي من بعيد، نظرت إلى رفقاء السفر وزملاء الكابينة، كان الشاب وصديقته منشغلين بعالمهما الخاص الذين لا يريان فيه أحد سواهما، يطلقان ضحكات مكبوتة ويتحدثان بصوت هامس لا يسمعه غيرهما، وبين الحين والآخر تعلو ضحكة الشاب، لابدَّ أنهما يعيشان قصة غرام ملتهبة، شعرت بالغيرة والحسد وندبت حظي العاثر، وعُدت مرة أخرى إلى كراهية الذات. الشاب الهندي مشغول بين أغراضه، نام مبكرًا، والسيد ذو الوجه المشوه نام هو الآخر مبكرًا ولم أعرف ما قصته، السيدة العجوز كانت تقرأ كتابًا، وعندما لاحظت أنني أنظر إليها، سألتني إن كنت صقليًا أم مغاربيًا، فقلت لها: لا هذا ولا ذاك إنني من مكان بعيد، جئت من بين البحر والصحراء، ثمة مدينة شابة جميلة كالعروس تسمى أبوظبي، منها جئت وإليها أنتمي..!

لم أكن أتوقع أن تكون تلك السيدة تعرف أي شيء عن مدينتي، ولذلك لم أتفاجأ أنَّها لا تعرف أين موقعها، فوصفت لها بأقرب شيء تعرفه، فكانت تعرف قارة آسيا، فأخبرتها أنَّها تقع في الجزء الغربي من قارة آسيا..!

قلت: إنها تقع ضمن منطقة الشرق الأوسط، لكنها بعيدة عن مشاكل تلك المنطقة وحروبها، إنَّها مدينة تعيش المستقبل كأنَّه الحاضر، مدينة نهضت من الصحراء العربية لتبهر العالم بكل إنجازاتها العظيمة.

حاولت السيدة أن تجد مدينة تعرفها يمكن أن تشبِّهها بمدينتي، لكنَّها استسلمت بعد أن ذكرت لي روما ونابولي وميلان، فهي مجرد سيدة قروية لا تخرج من قريتها كثيرًا إلا لزيارة ابنتها المقيمة مع زوجها في روما.

بعد برهة من الصمت، خشيت أن ينقطع حبل الحديث وأعود إلى وحدتي، سألتها عن وجهتها..؟

قالت إنَّها عائدة إلى منزلها في بلدتها الصغيرة «سيتانيا» التي تبعد بضعة ساعات عن روما، ويتوجب عليها أن تنزل في المحطة القادمة، ثم تستقل قطارًا محليًا آخر ليوصلها إلى بلدتها..!

ثم تحدثنا عن السفر، وعن روما، وعن بلادي، وعن باريس، وعن السلام والأمان، ونمت نحو الحادية عشر قبل منتصف الليل.

أفقت مفزوعًا على حلم رأيت فيه أنني في وسط غابة كثيفة الأشجار محاولاً الهروب بلا جدوى من كائن خرافي يكاد يلتهمني، تنفست عميقًا وفركت عينيَّ لأجد أنني ما زلت في القطار الذي يشق الطريق بسرعة قد تزيد على ثلاثمائة كيلومترًا في الساعة..

يوم آخر جديد يبدأ، ومغامرة جديدة على وشك أن تبدأ، نظرت من النافذة فرأيت أشجارًا جرداء، وحقولاً على امتداد البصر، تتخلها منازل صغيرة بين الحين والآخر.

كانت السيدة قد غادرت في وقت ما، فلم أشعر بوقوف القطار في محطتها بعد أن غرقت في النوم، فقد كنت منهكًا. الرجل ذو الوجه المشوه غادر هو الآخر في محطة ما، فلم يكن موجودًا كذلك،

بينما لا يزال الشاب وفتاته يغطان في نوم عميق فلابدَّ أنهما شهدا مغامرة جريئة ليلة البارحة، غير أن الشاب الهندي كان قد أفاق وطلب مني مرافقته إلى مقصف القطار حيث تُباع بعض المأكولات الخفيفة والقهوة، وبعض المشروبات الروحية، ووجدت بعض الركاب يتناولون الكحول على الإفطار، فتصورت أن الفرنسيين والإيطاليين يتناولون المشروبات الروحية على الإفطار..!

وهكذا وجدتني أعمل مترجمًا للشاب الهندي الذي لم يكن يجيد إلا القليل من الإنجليزية بالكاد تعينه في سفره، ولم يكن يتحدث بالطبع لا الإيطالية ولا الفرنسية، وعرفت أنَّه كان في دبي وقد دفع مبالغ طائلة من أجل هذه الرحلة، وأنه اضطر إلى بيع كل ما يملك للخروج من بلاده في رحلة طويلة توصله في نهاية المطاف إلى أوروبا، فالهجرة إلى أوروبا حلم كل البشر، صحيح أن من يصل إلى دبي على سبيل المثال من أهل بلاده يعتبر محظوظًا، وأنها محطة من أجل مزيد من الفرص في الثراء والعيش الكريم، بل إنَّه يعتبر قد وصل إلى الجنة، غير إن الفرص في أوروبا اكبر وأوفر، وخصوصًا لمن يتمكن من الحصول على لجوء سياسي بأي عذر ملفق، فيصبح الحصول على جنسية بريطانيا أو أي دولة أوروبية بعد ذلك أمراً إجرائياً.

قال الشاب الهندي إن وجهته النهائية هي «بريطانيا العظمى»، هكذا سماها، وقال مفتخرًا إنَّ عمه هناك في المملكة المتحدة يملك بقالة في مدينة مانشستر، وإنَّه سيتزوج بنت عمه الموجودة هناك.

وأسرَّ لي بأنه لا يملك تأشيرة دخول إلى بريطانيا لكنَّه سيسعى للحصول عليها من فرنسا وإذا لم يتمكن سيغامر وسيذهب عبر البحر.

جلسنا في مقهى القطار نحتسي الشاي في أكواب ورقية، هو يثرثر بلا انقطاع، تحدَّث عن الفقر الذي عاناه، وعن عزة الإنسان وكرامته، فالإنسان ينبغي أن يعيش عزيزًا كريمًا أو يموت شهيدًا شجاعًا في خدمة هدف أسمى وقضية أعظم..

تركته في ثرثرته وشردت بي الأفكار بعيدًا، راودني طيفها، تذكرت ضحكاتها الطفولية وهي تتراقص أمامي تحت برج إيفل، وعلى ضفاف نهر السين.

عبر النافذة، كانت البلدات والقرى تظهر وتختفي بين الحين والآخر في الطرف الآخر من السكة الحديد.

ربما نكون قد دخلنا الحدود الفرنسية في الليل، وشعرت بدقات قلبي تتسارع عندما رأيت أسماءً فرنسية تظهر في لافتات الإعلانات المعلقة بعيدًا في الطريق السريع، صرنا إذًا في الحدود الفرنسية، بعد كل تلك الساعات التي قضيناها في هذا القطار، وكل تلك الأميال التي عبرناها عبر تلك الطبيعة الساحرة، القرى والبلدات تتشابه ولا تختلف كثيرًا إلا في اللغة ربما، فلا تشعر كثيرًا بالفرق، أما من ناحية الجغرافيا، فالبيئة متشابهة إلى حد التطابق، وهذا شأنٌ عام في عموم أوروبا.

في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحًا، وصلنا إلى محطة

القطارات الرئيسية في باريس، أي بعد مرور أكثر من خمسة عشر ساعة من السفر على متن القطار.

حملت حقيبتي المهترئة على ظهري، وغادرت القطار والمحطة سيرًا على الأقدام، غير أن السماء كانت لاتزال تمطر على ما يبدو منذ الليلة الماضية والطقس بارد لدرجة التجمد، ولذلك أشرت لسيارة أجرة لتقلني إلى شارع الشانزلزيه، الشارع الذي لطالما أحببت.

توقفت أمام مقهى، حيث سأتناول إفطاري قبل أن أذهب إلى فندق على ناصية الشارع اتخذ من قوس النصر اسمًا له، الفندق صغير ومدخله في زاوية حادة في زقاق خلفي لشارع الشانزلزيه، لكنَّه كان لطيفًا ودافئًا، وذلك هو المهم، الدفء، فالبرد هنا شديد جدًا، ويخترق العظام عندما تهب رياح الشمال على هذا الشارع الشهير الذي لم أفهم سر شهرته، الناس يأتون إليه من أقاصي الأرض، فيضج بالبشر حتى في مثل هذا الطقس البارد، ربما التماسًا لشاعريةِ المكان ورومانسية باريس، التي ربما لا يستشعرها واحد مثلي يهيم وحيدًا في شوارع باريس التي امتلأت بأوراق الخريف مخلِّفة الأشجار عارية تمامًا، ممَّا يشي بشتاء طويل قارسِ البرودة، لن يحتملها واحد مثلي يجوب المدن بحثًا عن حب ضائع، لدرجة أن يعيش بقلب خاوٍ بارد لدرجة التجمد، يتسلى بالبحث عن قصص غريبة، وعن وجوه يتفرَّسُ فيها وتفاصيل تكمن فيها الشياطين..!

صار الأرق حالة تلازمني رغم شعوري بالإرهاق، وقمت قبيل منتصف الليل، ارتديت أسمالي ونزلت إلى الشارع أهيم على وجهي

رغم البرد القارس، مشيت من قوس النصر حتى ساحة الكونكورد وعندما أنهكت قدماي من السير بلا هدف، ارتميت على كرسي خشبي وُضعَ للعامة منكفئًا على نفسي أضع سيناريوهات وهمية لأشباح أراهـم من بعيد يشبهون عشاقًا يتعانقون، حينها فقط استشعرت رومانسية باريس، فحتى في البرد هناك دفء ينبعث من القلوب التي تنبض بالحب..!

في اليوم التالي قررت أن أترك الفندق الذي أقيم فيه، فالبرغم من أنه منزوٍ وفي شارع خلفي غير أنَّه غال لا تستحمله ميزانيتي المنهكة، ولذلك انتقلت إلى فندق أصغر يقع في زقاق خلف مبنى اليونسكو، أعجبني لأنه قريب من محطة المترو، والواقع أنني لم أجد ما هو أرخص منه، وقيل لي أن فنادق الحي اللاتيني أرخص لكنني لم أجد أيًا منها..

الفصل السادس

مجون وجنون

«إنني مُجرَّد رحّال متسكع»، هكذا قلت لموظف الاستقبال في الفندق الذي أراد مني تحديد عدد الليالي التي سأقضيها في فندقه، فلم يكن لديَّ هدف محدد في باريس، وتقبَّل موظف الاستقبال الأمر على مضض، على أنْ أُخبره قبل مغادرتي بوقتٍ كافٍ.

غير أنَّ باريس من المدن التي لا تشعر فيها بالملل، هناك أماكن كثيرة يمكن زيارتها، ليس هناك أجمل من هذه المدينة وشوارعها وأحيائها. تصوَّر أن يكون شارعًا واحدًا مثل شارع «الشانزليزيه» الشهير يختزل المدينة بكل ما يحويه من أجواء الترفيه فيغنيك عن بقية المدينة.

مبانيها التي تعود إلى مئات السنين، وتلك الكاتدرائية الشهيرة، كاتدرائية «نوتردام» الغامضة بتماثيلها التي تعلو أسوارها العلوية واقفة كالشياطين على أسوار الجحيم، وبرجها الأشهر «برج ايفل» الذي لابدّ أن يعيدني إلى الوراء وإلى أيام العشق الأولى وذكريات الحب والغرام..!

غير أن جمال المدينة لم يلامس روحي ليطهرها من الآثام، ولم تأسرني المدينة بكل مشاعرها ورومانسيتها لتنعش قلبي وتداوي جروحي الغائرة العابثة التي تَسببتُ بها لنفسي الهائمة، وبالرغم من برودة الطقس غير أنني لا أجد سوى أن أهيم على وجهي وحيدًا في الشوارع الباريسية خصوصًا في تلك المساءات التي تعتريها الوحدة والوحشة، كنت كمن يُفتش عن شيء ما، أو يبحث عن سلوى

تنسيه ما يعتريه من حزن ولوعة بسبب الفراق، وعندما يشتدُّ بي الشوق إلى دياري ألوب على المقاهي المصرية والعربية فأجلس إلى عابري السبيل من أمثالي.

أمضيت أيامًا في باريس تكاد تكون متشابهة. ولكن، وذات ليلة، وبينما كنت أسير وحيدًا استوقفني رجل بعدما عرف من هيئتي أنني شرقي، هيئته وتَصرفاته تدل أنَّه سِكّير متشرد، لكنَّه عندما ألقى عليَّ السلام بالعربية توقفت لأسمع قصته.

كان إسبانيًا ويبدو أنَّه أراد أن يبني صداقة من تلك الصداقات العابرة، تحدثنا بكل اللغات، خليط من الفرنسية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإسبانية مكسحة، وعربية هجينة مشوهة، وبعض الكلمات الإنجليزية التي لم نجد لها مرادفات فيما نعرف من لغات نستخدمها في حوارنا العبثي، وحدثني عن كل ما يعرف، قليل عن العرب وشيء عن الأندلس، وكثير عن كرة القدم، وعن زياراته إلى بلاد العرب عندما كان لا يزال في ريعان شبابه عندما كان يعمل حكمًا في مباريات كرة القدم، قبل أن يجير عليه الزمان بعد أن كبر وتقاعد إجباريًا، ليُصبح مجرد حطام رجل يعيش أيامه مشردًا سكيرًا يتسول أحيانًا ويبحث عن أي عمل هنا في باريس أحيانًا أخرى.

أصرَّ عليّ أن أرافقه لبقية المساء لنستكشف المدينة كما لم أستكشفها من قبل كما يقول، مشينا قليلاً وفي نفسي توجس وسيناريوهات لما يمكن أن أفعله لو تطورت الأمور بيني وبين هذا المتشرد السكّير،

أو خطة بديلة فيما لو ورطني في مصيبة، أو إن اكتشفت أنني كنت ضحية خدعة تقف وراءها عصابات منظمة كما كنت أسمع عن بعض الأحياء التي تسيطر عليها العصابات خارج باريس، كل ذلك جعلني أكثر حذرًا، غير أنني شعرت وكأنَّ روح المغامرة بدأت تدب في دمائي لتنفض عني ثلوج الأيام وركام الهجران.

ماذا يمكن أن يحدث أكثر ممّا حدث وأكثرَ ممّا جربت، حتمًا سأطلق العنان لقدميَّ لو تعقدت الأمور، غير أن هذا الرجل على ما يبدو مجرد متشرد مسكين، لا يمكن أن يكون قادرًا على التخطيط لقصة محكمة، لا يمكن لواحد مثله أن يخدعني وأنا المتمرس في قراءة وجوه الناس..!

سرت بمحاذاته بجرأة أكثر إلى أن دخلنا نادٍ ليلي من تلك النوادي الرخيصة التي تروِّج للرذيلة، كانت الراقصات عرايا تمامًا وهنَّ يؤدين وصلاتهن الراقصة ويعرضن أجسادهن الرشيقة الجميلة أمام الجمهور المشدوه..!

واكتشفت لاحقًا أنَّ هناك عالم سري يدور خلف جدران تلك النوادي الليلية، فيمكن لمن يرغب الاختلاء بإحدى الراقصات أن يشير إليها فقط فتأتيه طواعية لتلبي احتياجاته، قد ترتمي في أحضانه عاريةً تمامًا أو ترقص له وحده رقصةً خاصة، بل إنَّ بإمكانه أن يمارس الجنس معها في نفس المكان، فلا أحد يكترث لأن الجميع مشغولون بممارسة طقوس الحب، ومن أراد شيئًا من الخصوصية فستأخذه الفتاة إلى غرفة داخلية مخصصة لذلك الغرض.

صاحبي المتشرد تأقلم سريعًا على المكان، غير أنَّه لا يقاوم إدمانه على الخمر، فطلب من النادل أن يُقدم لنا مشروبًا لننتعش كما يقول ونرتدي أقنعة السعادة التي لا تزول حتى اليوم التالي، غير أنني شكرته واعتذرت، فأفرغ كلا المشروبين في جوفه وهو يقهقه، وقد التفَّت حولنا الفتيات الحسان اللاتي اكتشفت لاحقًا أن بينهن مغربيات، كلهن هنا يمارسن مهنة البغاء، وكل واحدة منهن لديها قصة كفاح، حتى لو لم تكن مقنعة، غير أنَّها ما تلبث أن ترويها للفضولين من أمثالي..!

أعجبتني واحدة منهن فأجلستها بقربي لكنني أخبرتها بصراحة أنني لا أملك مالاً، ولا أستطيع تحمل تكاليفها، فابتعدت عني وذهبت قائلة: إذًا دعني أعمل ولا أضيّع وقتي معكما أنتَ وصاحبك، وخير لكما أن تخرجا من هذا المكان..!

أكملتُ السهرة في ذلك المكان، مستمتعًا بالموسيقى، ومراقبة الراقصين، وصاحبي يصول ويجول بين الطاولات، يداعب الراقصات والعاهرات الحسان، يحتضن واحدة ويقبل الأخرى، وبقينا على تلك الحالة حتى وقت متأخر من الليل، عندها جاءني النادل يطالب بثمن ما شربه صاحبي المتشرد من خمر ونبيذ، فأشرت إليه أن يطلب قيمة المشروبات من الذي تناولها، نظرًا لأنني لم أتناول أي شيء منها، بل أنني لم أطلب أي مشروب أساسًا.

ابتسم النادل وأشار إلى زميله رجل الأمن الذي جاء طالبًا مني أن أسير أمامه إلى الباب الخلفي من النادي منعًا لأي فضائح أو إزعاج

لبقية الزبائن، بينما أحضر رجل أمن آخر تابع للنادي صاحبي المتشرد ليجمعانا معًا لنجد حلاً لمسألة ثمن المشروبات..!

صاحبي المتشرد مخمور يترنح وهو يقهقه بشكل هستيري، نظر إليَّ رجل الأمن البدين المفتول العضلات وقال: انظر يا سيدي، لقد اعتدنا أن نطرد هذا البائس قبل أن يدخل إلى باب النادي، لكنَّه اليوم جاء بصحبتك وقال إنَّك ستتحمل مصاريف مجونه، فلا داعٍ لاتخاذ أي إجراءات قد لا تسرك؛ لتسديد فاتورة صاحبك هذا..!

كنت مذهولاً من وقع المفاجأة التي لم أحسب لها حسابًا، غير أنني ابتسمت وربما رميت تعليقًا طريفًا محاولاً تخفيف حدة التوتر.

نظر إليَّ الحارسين استغرابًا، ثم قام أحدهما بتفتيش جيوب الرجل المتشرد بحثًا عن أية نقود، غير أنه رمى به أرضًا بعد أن وجد جيوبه فارغةً تمامًا.

ألتفت نحوي مرة أخرى وقد أسقط في يدي، نظرت نحو الحارس ببلاهة وأخرجت بضعة دولارات من بين ثنايا ملابسي وأعطيتها له معتذرًا بأن ذلك كل ما لدي، وأقسمت إنني لا أعرف ذلك الرجل، وأنني مجرد عابر سبيل صادفته في الطريق، وقد سرت معه من أجل التسلية ولم أكن أعلم أنه سيفعل ما فعل، مؤكدًا أنني لم أشرب أو أتناول أي شيء من البار.

غير أن ذلك لم يكن مقنعًا للحارسين، ففتشا ملابسي بحثًا عن مزيد من النقود وعندما لم يجدا شيئًا، انهالا علينا ضربًا ورفسًا وركلاً، حاولت المقاومة والرد عليهما بالمثل لكنني لم أفلح، خصوصًا بعد

أن أمسك بي أحدهما بينما انهال عليَّ الآخر بالضرب في وجهي وبطني، وعندما اكتفيا وتأكّدا أنّنا لم نعد نحتمل المزيد، رميا بنا خارجًا عند مكب القمامة مضرجيْن بالدماء،

قمت مترنحًا وأنا أمسح الدم من وجهي، نظرت إلى المتشرد فرأيته فاقدًا الوعي، فرفسته عدة رفسات وأنا أكيل له اللعنات والشتائم، وجلست على الرصيف ألتقط أنفاسي.

مرت برهة قبل أن تخرج مجموعة من الغانيات كان من بينهن الفتاة التي كنت أتحدث معها، فتوقفت وقالت وهي تحاول أن تساعدني وتمسح الدماء من على وجهي: قم، ألم أنصحك بالمغادرة، ما الذي ورّطت نفسك فيه..؟

حاولت الضحك فآلمني فكّي ووجهي من اللكمات التي تعرضت لها.

قلت لها: من أين تأتون بمثل هؤلاء البغال، إنَّهم حتمًا ليسو بشرًا، لابدَّ أنَّهم وحوش ضارية، هل هم مصارعون أم ماذا..؟

ضحكت بسخرية وغنج وقالت: إنَّهم فتوات ولولا هؤلاء لما كان لأمثالنا عيش في مثل هذه الأماكن الموبوءة بالسكارى والمجرمين.

هيّا قم لنذهب من هنا، ولا تقلق على صاحبك فهو معتاد على مثل هذه الأمور فهو معروف هنا ويتردد على هذه النوادي دائمًا ويعرف مسبقًا أنه سيتعرض للضرب والأذى إن لم يدفع ما عليه من نقود لكنَّه في كل مرة يكرر نفس المسألة، وربما اعتمد على أنك ستتكفل بالدفع فمن المعروف أن العرب يحبون هذه الأجواء وهم كرماء أيضًا.

كرّرت أنَّه ليس صاحبي ولا أعرفه، ومشيت معها وأنا أخبرها قصتي مع ذلك المتشرد وعن ترحالي في المدن الأوروبية، وعندما وصلنا إلى مفترق الطريق أكملت هي إلى منزلها وعُدت سيرًا إلى مقر إقامتي بمظهري البائس الأشعث وكأنَّ شاحنة قد دهستني.

على مدخل الفندق الصغير أوقفني عامل «الكونسيريج» وسألني عمّا حدث، وإن كنت بحاجة إلى طبيب، شكرته على اهتمامه وأكملت طريقي نحو غرفتي في الطابق الرابع.

تعلمت كثيرًا من تلك الحادثة التي فتحت لي أبواب عوالم خفية ووجهًا آخر لمدينة الحب والرومانسية والأنوار والملائكة، وخلال فترة وجيزة، صرت خبيرًا بمعظم النوادي الليلية الفاخر منها، وسيء السمعة، فعرفت المداخل والمخارج وكيف أحصل على المتعة بالمجّان خصوصًا أنني مفلس على الدوام، ولم يكن بطبيعة الحال في مقدوري الدفع لدخول النوادي الفاخرة ولذلك كنت أرتاد النوادي ذات الدرجة الثالثة، تعلمت الرقص على أنغام موسيقى الهيب هوب والراب والبريك دانس، وشيئًا من الفالس والتانجو الذي لم أجده أبدًا، فصرت شخصًا معروفًا بين مجموعات الشباب المكتظين كل ليلة على منصات الرقص، وتحوّل ليلي إلى سهر حتى ساعات الفجر الأولى، ونهاري إلى نوم متواصل، بل إنَّ الأمر تعدى ذلك، فيبدو أنني فقدت بوصلتي، وتهت في خِضَمِّ هذه المدينة، أخذتني شوارعها إلى مناطق لم أكن لأرتادها، فوجدتني منغمسًا في الرذيلة بعد أن عرفتني كل الغانيات الفاتنات، وكنت

أحصل على المتعة بالمجان خصوصًا مع «نسرين» و«فيكي» اللتين كانتا تعتبرانني صديقهما المخلص لأنني أستمع لهما عندما يتسلل إليهما الاكتئاب..

غير أنني عندما كنت أفيق في اليوم التالي وأنظر إلى نفسي في المرآة، كنت أشعر بالمرارة وباحتقار الذات وكراهيتها لدرجة أن يكون ذلك جزءًا من يومياتي، حتى صرت أكره المرايا التي تحرِّضني على كراهية الذات، بل وكراهية حياتي التي أصبحت تتحول شيئًا فشيئًا إلى بؤس من نوع آخر وتشرد وصعلكة، الأمر الذي وجدته «فيكي» مأساويًا ومحزنًا فساعدتني في الحصول على وظيفة مؤقتة في نادي الصحافة كموظف استقبال بديل للفترة المسائية، خصوصًا عندما يكون هناك وفود إعلامية عربية، ثم حاولت الحصول على وظيفة في معهد العالم العربي، لكنني بقيت على قائمة الانتظار لفترة طويلة، ولم أكن أجيد العمل في المقاهي أو المطاعم أو البارات فرفضت عدة عروض اعتبرتها بائسة.

شعرت أنَّ فيكي تكنُّ لي مشاعر كبيرة، وأنني لست قادرًا على مبادلتها نفس تلك المشاعر، غير أنَّها تعجبني كما تعجبني جرأتها واتصالاتها مع شخصيات نافذة، غير أنني شعرت لاحقًا أنَّها أصبحت تغار من صديقتها نسرين، رغم أنهما كانتا معجبتين بالعلاقة الثلاثية، صارت فيكي تحاول الاستئثار بي، وكثيرًا ما كانت تجلب لي معها الطعام، بل إنَّها تعطيني بعض المال وتحرص على أن أمارس حياتي بشكل طبيعي، وفاجأتني ذات ليلة بعد أن

مارسنا الحب بكلام لم أكن أتوقعه.

قالت بدون أي مقدمات: هي الظروف التي تجبرنا على هذه الوظيفة، إنَّك مختلف عن كل الرجال، ربما لأنني أنظر إليهم نظرة اشمئزاز لأنَّ ما أقوم به معهم مجرد وظيفة، أما عندما أكون معك فالأمر مختلف.

لم أجد ما أتفوَّهُ به، ولزمت الصمت، ثم نظرت إليها متكاسلاً ولا أزال مستلقٍ على السرير، كانت تجلس واجمة شبه عارية على حافة السرير وقد وضعت رأسها بين ركبتيها.

وبعد برهة صمت قالت: لقد أحببتك من كل قلبي فأجد المتعة برفقتك، وعندما ننام سويًا أستعيد إنسانيتي وأنوثتي، أستعيد نفسي ومشاعري، كل الرجال الذين ضاجعتهم لا يحرِّكون لدي خلجة واحدة، إنَّهم كالحيوانات يأتون ويذهبون، وأقوم بما عليّ القيام به لإمتاعهم كما هو متفق عليه، إنَّها مجرد وظيفة، ولا يعني ذلك الاستمتاع بالقيام بتلك الوظيفة المقززة، إنّنا نفعل ذلك بدون أية مشاعر.

رفعت رأسي وسحبت بقية جسدي محاولاً الاعتدال في جلستي، وقبل أن أتحدث قالت: لقد أحببتك وأحببت رفقتك، اللعنة عليك كانت حياتي أفضل قبل أن تدخل بها، ماذا ستفعل الآن، أعرف أنك لن تقبلني حبيبة وأنت تعرف أنني مجرد عاهرة، بائعة هوى، تبًا لك لماذا دخلت حياتي..!

ثم أجهشت بالبكاء..!

شعرتُ أنني في ورطة، اقتربت منها، احتضنتها من خلفها محاولاً مواساتها، قلت: لا عليك، هيّا توقفي عن هذا البكاء، فليس في الأرض ما يستحق دموعك، هيّا انطلقي بابتسامتك التي تعودت عليها حتى أدمنتها، أرجوكِ كفي عن البكاء، كفي عن الحزن، فليس هناك ما يستدعي الحزن، وأنتِ التي علمتني أن أضرب كل شيء بعرض الحائط..

ثم قبلتها على عنقها وقلت: كل ذلك ليس مهمًا، طالما أنّك سعيدة وحرة فيمكنك فعل ما تشائين، إذا أصبحت تكرهين مهنتك فغيريها، توقفي عن ممارستها، وابحثي عن وظيفة أخرى، فإن ذلك سيكون آجلًا أو عاجلاً على أية حال..!

التفتت نحوي، ابتسمت، ارتمت في حضني، وأجهشت بالبكاء مرة أخرى وهي تقول بصوت يخالطه البكاء: وماذا عنك؟

ترددت قليلاً قبل أن أقول: آه يا عزيزتي.. إنَّ حياتي معقدة جدًا، ليس من الحكمة أن تكوني جزءًا منها، إنني مجرد عابر سبيل لا يمكنني الاستقرار في مكان واحد، أنتِ تعرفين ذلك، إنني كما ترين لا يمكن أن أعطيكِ شيئًا، لا يمكنني أن أمنحك السعادة التي تستحقين..!

وذات صباح باريسي مشمس وعلى غير العادة وجدتني أخرج من فندقي الصغير بغير هدى، بحثًا عن شيء ما، يغير رتابة الحياة التي انغمست فيها، وانتهى بي المطاف في مقهى مغمور في شارع فرعي يطل على زقاق منحدر إلى الحي اللاتيني، انحزت إلى ركن

مشمس، فما أجمل أشعة الشمس في وسط هذا البرد القارس الذي لا تدفئه لا الشمس ولا القهوة التي جلست أحتسيها، ووجدتني أنشغل بين دفتي كتاب تاريخي بالإنجليزية كان معروضًا على رفوف عتيقة مثبتة على جدران المقهى، أعجبني الغلاف الذي يحمل رسومًا سريالية شدتني لتصفحه، وجدت فيه قصة أسطورية لهذه المدينة، والدلالات من العناصر الأثرية على أثرٍ سابق للإنسان فيها، والتي ربما تعود إلى ما قبل الميلاد بسنوات كثيرة، يقول الكتاب إنَّه تم اكتشاف بقايا قرية ترقى إلى العصر الحديدي أي إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

كان هناك رجل مسن يبدو كأنَّه يراقبني، وربما أثار فضوله الكتاب واندماجي في قراءته في مثل هذا الوقت المبكر، بل لعله استغرب وجودي أصلاً في هذا المكان المنعزل الذي لا يقصده السياح، فاقترب مني مبديًا إعجابه بالكتاب الذي أقرأه، قال: إنَّه كتاب جميل، لكنه لا ينصف هذه المدينة التي كما ترى قديمة بقدم التاريخ وتشعر بأنها متحف مفتوح..!

قلت وقد تململت في مقعدي الخشبي: اعذرني هل أدعوك لتناول القهوة..؟

هز رأسه شاكرًا وهو يشير بفنجان القهوة الذي يحمله بيده، واستطرد حديثه قائلاً وهو لا يزال واقفًا: التاريخ قصة طويلة، مشوقة أحيانًا وهناك خبايا كثيرة في ثناياه ربما لا ينتبه لها الباحثون والمؤلفون، الكتاب الذي بين يديك كتاب قديم لكنَّه يغفل

عن أشياء كثيرة من تاريخ المدن الأوروبية..!

قلت وأنا أشير إلى الكرسي المقابل على نفس الطاولة: أرجوك تفضل..

اتفقت معه في كثير من القصص التي رواها، واختلفت معه في قصص أخرى، وطال الحديث دون أن ننتبه ودون أن أعرف من يكون هذا المسن الذي اقتحم خلوتي ووحدتي في هذا المقهى المنعزل، ما دفعني لقطع حبل أفكاره وقصصه التاريخية التي لا تنتهي لأسأله عمّن يكون، فمن الواضح أنَّ لديه شغف بالتاريخ وحب لهذه المدينة، صافحته وأنا أقول: اعذرني أرجوك فلم أتعرف عليك..!

فأخبرني بأنه البروفيسور اندرياس بيتر، مدرِّس تاريخ ومؤلف الكتاب الذي بين يدي..!

ابتسمت معتذرًا، معربًا عن سعادتي بلقائه مصادفة ولي الشرف أن أتعرف عليه، وأشرت إلى أنني مجرد عابر سبيل الآن غير أنني اعتدت أن أكون كاتبًا، وإن كانت كتاباتي لا ترقى إلى مستوى كتابه..!

ابتسم من ملاحظتي الأخيرة وقال وهو يربت على يدي: لا تقلق سيأتي يوم ستجد من يهتم بما تكتب بعد أن يتحول إلى تاريخ..!

ضحكنا واستأذن وتركني أعود إلى وحدتي، وبقيت جالسًا في ذلك المقهى إلى أن غابت الشمس، وشعرت بالبرد لدرجة التجمد، فتركت المكان بحثًا عن قصة جديدة..!

عندما غـادرت المقهى احترت إلى أين أذهـب فقد شعرت بأنني لا أريـد العودة إلى فيكي، ولا إلى الفندق الصغير ولا إلى حياة اللهو والنوادي الليلة الرخيصة، لم تعد لدي رغبة في العيش بتلك الطريقة، ولا شيء سيخرجني من هذا الانغماس في الرذيلة إلا الرحيل من هذا المكان..!

الفصل السابع

الهروب من الرذيلة

كان صباحًا باردًا في اليوم التالي عندما توجهت إلى محطة القطارات الرئيسية، واشتريت تذكرة على متن أقرب قطار مغادر، توجد رحلة إلى جنيف وأخرى إلى بلجيكا وثالثة إلى أمستردام، لكنَّ أقربها إلى جنيف وتقلع بعد نصف ساعة تقريبًا، لم أفكر كثيرًا، واخترت الذهاب إلى جنيف التي تغنى العرب بها وبدقة ساعاتها وكأنَّ الوقت مهم كثيرًا لديهم..!

قبل أن ينطلق القطار تناولت إفطارًا سريعًا، واشتريت صحيفة من الصحف العربية الكثيرة المرصوصة على رفوف تابعة لكشك على رصيف المحطة.

وعندما ركبت القطار وجدتني محتار بين مشاهدة المناظر التي سنمر بها في الطريق أو الاستسلام للنوم الذي بدأ يخالجني شيئًا فشيئًا ولم أتمكَّن من إيقافه..!

أفقت وقد وصلنا سويسرا، وبعد نحو نصف ساعة توقَّف القطار في المحطة الرئيسية في جنيف، وخرجت ماشيًا من المحطة، كانت هذه أول زيارة لي لهذه المدينة الجميلة، تمشيت بلا هدى فلم أقرر بعد ماذا سأفعل في مدينة لا أعرفها ولا تعرفني ولا أعرف أحدًا فيها..

مشيت قليلاً إلى أن وصلت إلى مركز المدينة، فتوقفت أمام مقهى كتب على واجهته إعلان بالعربية عن أنواع الشيشة التي يقدمها، دخلته واخترت كرسيًا في زاوية مواجهة المدخل وتناولت شايًا

مغربيًا لأنَّني لم أجد شيئًا آخر.

كان هناك فتاتان حسناوان تبدو لهجتهما وهيئتهما وملابسهما أنَّهما خليجيتين، وأثار فضولي وجودهما في هذه المدينة في مثل هذا الوقت من العام، فلم يحن بعد موسم الهجرات العربية نحو المصايف فلا تزال المدينة تغرق في الثلوج.

فضولي دفعني لاستراق السمع والنظر، وربما كان ينتابني نوع من الكسل وعدم الرغبة في التحدث مع أي أحد، غير أن مكالمة هاتفية وردت لإحداهما ففهمت أن والديهما ينتظرانهما في الفندق، ولا أدري لمَ شعرت بارتياح عندما سمعت ذلك..!

كان العاملون في المقهى من المغاربة وبينهم مصريين، وذلك يعكس التواجد العربي في هذه المدينة، ووجدتني أدردش مع أحدهم فحدثني عن الغربة وعن الشوق إلى الوطن، وتحدثنا عن الفرص التي تمنحها هذه المدينة والمدن الأوروبية عمومًا لطالبي الرزق والعلم والباحثين عن تحسين أوضاعهم المعيشية، ثم دلني على فرص وظيفية محتملة، غير أنني شكرته على اهتمامه وسألته إن كان يعرف فندقًا رخيصًا وقريبًا أو نزلاً أقضي فيه عدة ليال..!

فعرض عليّ أن يستضيفني في منزله، وقد كان عرضًا مغريًا مع شحة مواردي المالية، غير أنني أعرف ضيق الحال فهؤلاء المغتربين العرب لا يحتاجون إلى ضيوف ثقال مثلي، فلديهم ما يكفيهم من الهموم، وهكذا شكرته وذهبت في الاتجاه الذي دلني عليه..

في طريقي مررت بمنطقة تكثر فيها النوادي الليلية التي تفتح أبوابها

مبكرًا، فبرغم أن الليل لم يحل بعد غير أنها بدأت العمل مبكرًا على غير العادة في كثير من المدن الأوروبية، تجاوزتها مواصلاً طريقي مرورًا بمنطقة يبدو أنَّها مألوفة لدى العرب، فمعظم الواجهات الزجاجية كتب عليها كلمات عربية بلهجات مختلفة وكلمات ركيكة. قريبًا من تلك المنطقة وجدت نزلاً متواضعًا لطيفًا قريبًا من المحالِّ والمطاعم ومحطة الحافلات، نزلت فيه بالرغم من أن أسعاره لا تزال مرتفعة بالنسبة لي، تركت أغراضي في الغرفة ونزلت لاستكمال استكشافي للمدينة.

ما الذي يميز هذه المدينة؟

إنَّها بسيطة التخطيط ومبانيها ليست على نمط معين من البناء، ليست مميزة كمباني باريس مثلاً، ولم أر شيئًا يثير الإعجاب، لكنك بعد أن تقضي بعض الوقت في المدينة تشعر بالألفة تجاهها، ربما بسبب الوجود العربي في أحيائها وأسواقها، وربما لأنها معروفة على نطاق واسع بأنها عاصمة الساعات الدقيقة الثمينة والشكولاتة الفاخرة، وأنَّها ملاذ الثروات المختبئة في البنوك السويسرية، وملجأ الأغنياء الهاربين من زحام الحياة وذلك سر تميزها.

عندما تذكر سويسرا تقفز تلقائيًا إلى الذهن مدينة «جنيف» رغم أنَّها ليست عاصمة البلاد ولا أكبر مدنها، فالعاصمة هي مدينة بيرن وهي عاصمة حديثة في بلدة قديمة تقع في وسط سويسرا، وفيها مقر الحكومة الاتحادية والبرلمان، وتتميز بأسواقها المسقوفة، وفيها اكتشف العالم آينشتاين نظرية الجاذبية، حينما كان يعمل

في مكتب براءات الاختراع في المدينة.

ووجدتني برغم البرد القارس أسير باتجاه بحيرة جنيف الشهيرة، تلك البحيرة التي لطالما كانت المكان المفضل لدى الملوك والأمراء ورؤساء الدول والمشاهير والنجوم الذين يفضلون قضاء إجازاتهم في جنيف، وفي أيام الصيف الجميلة تمتلئ بالناس للاستمتاع بالمشي في الهواء الطلق والمناظر الطبيعية الخلابة على ضفافها، غير أن البرد يغير أنماط الحياة في أوروبا بأسرها، واستغربت أن مياه البحيرة لم تتجمد كما تجمد كل شيء آخر، وتلك البجعات لا تزال تبحث عن طعام في أحشاء البحيرة، وتتراكض باتجاهي علّي أرمي لها شيئًا من فضلات الطعام..

تشتهر البحيرة بنافورتها التي تضاهي شهرة تمثال الحرية في نيويورك وبرج إيفل في باريس، كما أنَّ البحيرة تعتبر حدًا طبيعيًا فاصلاً بين سويسرا وفرنسا، وهي أيضًا تصل بين سويسرا وألمانيا، وكأنَّها بذلك أداة توازن بين العملاقين اللدودين في تاريخ أوروبا، وربما من هنا جاء سر الحياد السويسري التاريخي، كموقف قانوني وسياسي وأيضًا كموقف فلسفي وإنساني.

عندما تتجوَّلُ في المدينة تشعر بأن ثمة شيء مختلف، ثمة أمر ناقص أو مفقود، غير أنني لم أتبينه، إنه مجرد شعور بأن الصورة غير مكتملة، فغالبًا ما تكون هذه المدينة مفعمة بالناس والزوار والأنشطة، غير أن الشوارع في هذا الوقت فارغة، نظيفة، هجرها الزوار، ربما بسبب البرد والطقس السيء..!

تـذرع الشوارع الرئيسية جيئة وذهـابًـا تبحث عن ذلـك الشيء الناقص، تمشي في شارع «كونفيديراسيون» ومنه تذهب إلى شارع «رون»، وبرغم أنَّهما شارعان ينبضان بالحركة، وتنتشر فيهما غالبية المقاهي والفنادق، كونهما «شارعي التسوق» في المدينة، نظراً للوجود الكثيف لأرقى دور المجوهرات وأبرز محلات الألبسة، غير أنهما كانا خاليين من المارة والرُّواد هذه المرة، ووجدتني أسير فيهما وحيدًا، لدرجة أنني لم أعد أكترث بجماليات المكان.

إنَّه الثلج، ذلك الجنرال الأبيض الذي يفرض حظر التجول طوال الليل والنهار، بل وحصارًا على كل المدن الأوروبية، هل تكون الوحيد المتمرد على هذا الحظر، لابدّ من التمرد وخرق الحصار، فكيف تصل إلى هنا وتبقى حبيسًا في غرفتك الفندقية ليل نهار، وأنت الذي تقتنص الدقائق لترتحل وتخرج إلى فضاءات الله الواسعة، إلى المدن والقرى حتى لو كان ذلك فيه مخالفة للسكان في عاداتهم وفي خشيتهم من الثلج والبرد ودرجة التجمد وما تحت الصفر..!

لم أجد ما أبحث عنه، غير أنني تعرفت على الحياة الليلية الصاخبة في هذه المدينة الوادعة، ولم أشأ أن أعـود لحياة الصخب التي عشتها في باريس فلا تزال هناك بقايا شيء من كراهية الذات، ورغبة عارمة في ممارسة الحياة كما هي عليه، إلا أنَّ الفتيات هنا يدفعن الرجال إلى الجنون، ولم يكن لدي نقود تؤهلني لدخول معترك ذلك الجنون، فآثرت عدم الاقتراب من النار حتى لا تشتعل نيراني وأفقد صوابي وينتهي بي المطاف بممارسة كراهية الذات

مرارًا وتكرارًا..!

في اليوم التالي، تذكرت صحفية مصرية كانت تعمل مراسلة لصحف من المنطقة العربية في أوروبا، وقد قضت سنوات طويلة في هذه البلاد إلى أن حصلت على الجنسية السويسرية، بحثت عن هاتفها لدى الأصدقاء في الوطن وتحدثت إليها وبعد أن عرفتها بنفسي، اتفقنا على أن نلتقي في اليوم الذي يليه، ووجدتني مدعوًا على العشاء في منزل ريفي لمهاجرة مصرية وهي طبيبة متقاعدة تعيش وحيدة بعد أن توفي زوجها وتركها ولديها ليعيشا حياتهما في المدينة، حيث بقيت هي وحيدة في منزلها الريفي خارج جنيف. المنزل صغير وحميم ومنسق، وبعد بعض الوقت انضم إلينا شاب عربي الأصل فرنسي الجنسية وصف نفسه بأنه ناشط في حقوق الإنسان ويتقلد منصبًا في منظمة حقوق الإنسان الإقليمية، وبرفقته سكرتيرته الحسناء، وخمنت أنَّها قد تكون حبيبته، وقد جاء بالسيارة من باريس إلى جنيف، ولم تكن أفكاره جديرة بالاهتمام، فبعض العرب المقيمين في الغرب تكون لديهم صورة مشوهة وضبابية عن بلدانهم، وتعتمد على مواقف وتجارب شخصية، وليست مبنية على حقائق بقدر ما هي متأثرة بوجهة النظر الغربية التي يسعى هؤلاء إلى تبنيها، واختلفنا كثيرًا واتفقنا قليلاً، وكان بين المدعوين أيضًا صحفي خليجي تبدو عليه سمات التقوى والورع وقد أطال لحيته، ومعه فتاة برازيلية شقراء، عرفتُ فيما بعد أنَّها زوجته، وخمنت أنَّه رجل متحرر رغم أنّه متدين، ولذلك كنا متحفظين في الحديث

احترامًا له وللحيته الكثة، غير أنَّه كشف لنا على سفرة الطعام وهو يحتسي النبيذ الأحمر أنّ لا علاقة للِّحية بالدين، وأنّها مجرد ديكور ليس إلا، وقص علينا قصة حبه لزوجته البرازيلية.

تمحور مجمل الحديث حول الإنسان العربي وحقوقه الضائعة، وعن الحياة في الغربة وكأنّها منفى اختياري بعيدًا عن الوطن، وشعرت أن هناك اتجاهًا لتسيُّس الحديث، فأخرجتهم من الحديث عن الوطن العربي وضياع حقوق مواطنيه إلى الحديث عن الترحال والسفر، وحدثتهم عن رحلاتي في العراق في زمن الحرب، وعن مغامراتي في غموض غابات الأمازون، وفي مجاهل غابات وصحاري أفريقيا، وتحدثت عن الحروب التي غطَّيت أحداثها ومآسيها، وعن المجاعات والكوارث الطبيعية التي شهدت يومياتها، لأن من يشاهد تلك الأحداث سيعرف تمامًا معنى حقوق الإنسان..!

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر ليلاً عندما خرجنا من منزل السيدة المصرية، وبرغم برودة الطقس غير أنّ ضوء القمر أضفى صورة جمالية على المكان..

الفصل الثامن

صُعلوكٌ مُتَسَكِّع

لم أُقِم كثيرًا في جنيف، فالمدينة صغيرة وبقية المدن السويسرية يحتاج المرء إلى سيارة من أجل زيارتها، وإلى رفيق درب، وكلاهما لم يكن متوفرًا لدي، ولم يعد هناك شيء أقوم به في هذه المدينة فقررت السفر.

لم تكن هناك خطة أسير عليها، فلست سوى عابر سبيل يتسكع في المدن الأوروبية، مستكشفًا باحثًا عن شيء ما لا يزال في علم الغيب..!

سرت باتجاه محطة القطارات وليس لدي أدنى فكرة عن الوجهة القادمة، تاركًا للطريق حرية اختيار الوجهة التالية، وفي طريقي إلى محطة القطارات وبينما كنت أراجع خارطة المدن التي يمكن أن أصل إليها بالقطار قفز إلى ذهني فجأة اسم صديق ألماني، فقررت أن أزوره طالما أنني في الجوار، وهكذا عندما وصلت إلى محطة القطارات قمت بإجراء مجموعة اتصالات مع بعض الأصدقاء في الوطن حتى عثرت على هاتف الصديق الألماني فاتصلت به وأبلغته بأنني سأكون في فرانكفورت في صباح اليوم التالي، وسافرت ليلاً، واستسلمت للنوم طوال الطريق..

في السادسة صباحًا من اليوم التالي وصلت وقد كانت الدنيا غارقة في البرد والضباب، وقد وجدت صديقي «يورجن» هو وزوجته في استقبالي في محطة القطارات، واكتشفت بعدها أنَّهما يقطنان في بلدة تبعد نحو ستين كيلو مترًا عن فرانكفورت، ما جعلني ممتنًا

لهما لتكبدهما مشقة الطريق خصوصًا في هذا الوقت المبكر وفي وسط هذا الضباب الكثيف الذي يجعل تلك الستين كيلومترًا تبدو كأنَّها ستمائة.

الطريق خطر خصوصًا في المنحنيات، لاسيما أنّ السائقين مستعجلون فأمامهم يوم عمل ومواعيد، وكلما ابتعدنا عن المدينة الكبيرة كلما تلاشت كثافة الضباب، واتّضحت الرؤية، الشمس تتأخر في الشروق في مثل هذا الوقت من العام، وبعد أن تشرق لا توفر سوى الضوء، فلا تبعث الدفء ولا الحرارة، غير أن النور والضوء كافيان في مثل هذه الظروف، فالنّهار طويل جدًا والليل قصير وتغرب الشمس في التاسعة أو العاشرة مساءً.

عندما خرجنا من حدود المدينة المزدحمة بصخب مبكر، ساد الهدوء في المكان وفي الشوارع، وحدها سيارتنا بقيت وحيدة تنهب الطريق، غالبية الناس يتجهون إلى أعمالهم صباحًا في فرانكفورت تلك المدينة المتضخمة، وقلة فقط يخرجون منها، وعلى جانبي الطريق لا ترى شيئًا سوى الحقول، حقول الذرة والكروم..

عندما وصلنا إلى بلدة «بدكرويتشنا» الريفية حيث يعيش «يورجن» كان الضباب لا يزال يكتنفها ويكتنف كل شيء آخر، فلا ترى سوى أشباح المنازل التي تتجاور بشكل منظم وراقٍ، وأشباح أشجار الجوز الضخمة المعمرة.

توغلت السيارة بنا عبر أزقة وممرات ضيقة وسط المنازل، وانتهت بنا أمام منزل «يورجن»، وبرغم حجم المنزل الصغير، غير أنّه

منظم ومرتب وبه دور علوي، وكلب حراسة من فصيلة «وولف» رابض بجوار الباب، ما إن رآني حتى تحفز واشرأبّت أذنيه، لكنّه أطمأنّ عندما رأى صاحبه بجواري، لديهما طفلة صغيرة جميلة، وثمة حديقة خلفية صغيرة، وملحق خلفي واسع تم تحويله إلى منزل مستقل، وضعه «يورجن» برسم الإيجار، وقد استأجرته الحكومة لتحوله إلى مقر إقامة لعائلة سودانية لاجئة سياسيا في ألمانيا، واكتشفت لاحقًا عندما تحدثت إلى رب العائلة اللاجئة أنّه رجل بسيط أمي لا علاقة له بالسياسة لا من بعيد ولا من قريب، بل ربما لا علاقة له بالدنيا وما فيها، رجل متواضع بسيط جدًا ومحدود جدًا، لدرجة أنّه لا يعرف أين تقع بلادي..!

استغربت من قصة اللجوء تلك، غير أنني سرعان ما اكتشفت أنّها قصة مفتعلة من أجل الحصول على ميزات للهجرة إلى أوروبا، مما يمنح طالب اللجوء أولية في الحصول على جنسية أوروبية في نهاية المطاف..

تلك العائلة السودانية الغلبانة تتكّون من الأب والأم وولد في الثامنة وبنت في العاشرة، تقوم هي وشقيقها بالترجمة للأبوين من الألمانية إلى العربية والعكس، وأحيانًا يقومان بذلك حتى عندما أتحدث بالعربية التي لا يفهمها الأبوين بسبب اختلاف اللهجة، فيعيدان ما قلته باللهجة السودانية على مسامع الأبوين.

تنقلت العائلة عدة مرات في البلدات الألمانية وتم إيوائهم في عدة ملاجئ، قبل أن يستقروا هنا في بلدة «بدكرويتشنا». إنها صورة

من صور الهجرة غير الشرعية التي تغزو أوروبا، ومن يحصل على منزل مثل هذا يكون قد حصل بالتالي على شرعية وقُبل كلاجئ سياسي..

أما يورجن فهو لا يتحدث كثيرًا من الإنجليزية، ولذلك تقوم زوجته بدور المترجم بيني وبينه، وأحيانًا ينسيان أنني لا أجيد الألمانية ويتحدثان بها على افتراض أنني أفهم ما يقولان..

واكتشفت مع مرور الوقت أنني قادر على فهم بعض الكلمات الألمانية، بل وتمكنت من تدبير نفسي لغويًا في وقت الحاجة، وخصوصًا عندما كنا نزور أصدقاء يورجن، فأغلبهم لا يتحدثون سوى الألمانية، وكان عليّ أن أجيب على أسئلتهم أو نقاشاتهم بطريقة أو بأخرى.

كما اكتشفت أن الألمان طيبون هنا في مثل هذه البلدات والقرى التي تحيط بها حقول الكروم والجبال الخضراء، ولديهم عادات جميلة وبما أنني ضيف على يورجن فإن أصدقاءه كانوا يدعونني على الغداء أو العشاء وكأننا في بلاد العرب..!

كل شيء منظم في هذه البلدة، الناس وسيارات الأجرة ومواعيد الحافلات، كلها بغاية الدقة، وغير بعيد عن هذه البلدة. توجد قاعدة عسكرية أميركية، تعمل بها زوجة يورجن في محل لخياطة الملابس العسكرية التابعة للجيش، وقد تمكنت من مساعدتي للحصول على عمل مؤقت بدوام جزئي برفقتها في المحل، وكانت مهمتي أن أقوم بتدوين الطلبات ومساعدة مدير المحل في الأمور

المكتبية، لكنني حصلت لاحقًا على عمل أفضل عند تاجر سيارات من بلاد الشام، وكان كل ما عليَّ القيام به هو الحصول على زبائن محتملين في أي مكان من العالم، وهكذا تمكنت من ترتيب بضعة عمليات لبيع السيارات لأصدقاء في الوطن، وحصلت جراء ذلك على عمولات مجزية في وقت كنت فيه في أشد الحاجة إلى المال بعد أن نفذت كل مواردي المالية، ثم انتقلت بعدها للعمل مترجمًا في مصحة علاجية، أترجم من العربية إلى الإنجليزية والعكس وخصوصًا أن كثيرًا من المرضى العرب هنا من كبار السن الذين لا يجيدون أية لغات سوى العربية.

لا يوجد الكثير مما يمكن أن تقوم به هنا في بدكرويتشنا، أو في مثلها من ضواحي فرانكفورت، إنها بلدة هادئة، تمامًا كما هي الأرياف في أي مكان في العالم، الوقت هنا يمضي بشكل بطيء، لكن الهواء نقي واللون الأخضر يسيطر على معظم المساحات الخالية من المنازل، بالرغم من أننا في فصل الشتاء حيث البرد لا يزال يسيطر على الأجواء.

أشجار الجوز العملاقة تقف شاهدة على قدم المكان، وثمة منازل قديمة لا تزال قائمة منذ الحرب العالمية الثانية، وفي أماكن أخرى قريبة توجد قصور وكاتدرائيات تعود لعصور مختلفة، كما توجد عدة مناطق كانت مواقع لمعارك حربية خاضها الألمان على مر القرون.

يوجد أيضًا مرفأ للسفن السياحية على نهر الراين، وفندق ومنتجع

علاجي حيث تكون الطبيعة هي العلاج، إما باستخدام المياه الساخنة أو باستخدام الهواء النقي والطبيعة الخلابة، والواقع أنني بعد كل هذا السفر وكل تلك المغامرات والتجوال في المدن الأوروبية، كنت محتاجًا إلى نوع من الهدوء والراحة في مثل هذا المكان.

وكان يمكنني دائمًا العودة إلى فرانكفورت المدينة الصاخبة المزدحمة، فمعرض السيارات الذي عملت فيه كان قريبًا من تلك المدينة، وكان عليّ أن أنزل في محطة الحافلات الرئيسية من أجل ركوب حافلة أخرى إلى موقع المعرض، كنت فعليًا أذهب يوميًا إلى فرانكفورت خلال فترة عملي القصيرة في بيع السيارات المستعملة، وكان ذلك يمنحني فرصة لاستكشاف المدينة الصاخبة، والتسكع في الأسواق وزيارة المتاحف أو دور السينما، فالمدينة لها دور ثقافي ريادي، وتحتضن العديد من المتاحف التي يقع أغلبها ضمن منطقة يطلق عليها «رصيف المتاحف»، الممتد بامتداد نهر «ماين»، ويسكن عدد كبير من العرب في هذه المدينة، وغالبيتهم يعملون في تجارة السيارات وخصوصًا سيارات المرسيدس ويمتلكون معارض سيارات ومحال ومطاعم، وليس غريبًا أن تشاهد لافتات إعلانية كتب عليها بالعربية، وهي تعود لصيدليات أو معارض سيارات أو مطاعم.

أما حقول الكروم التي تحيط ببلدة بدكرويتشنا فمنها يتم إنتاج النبيذ، وهناك طريقتين لإنتاجه إحداهما ميكانيكية، وهذا النوع

تجاري وقليل الجودة، والطريقة الأخرى شعبية، ويقال أنَّ أفضل أنواع النبيذ وأجودها هو ما أُعد بالطريقة الشعبية، ويشترط أن تكون الفتيات اللاتي يعصرنه من المتزوجات حديثًا. وطريقة إعداده مقرفة نوعًا ما، فيوضع العنب في قالب خشبي كبير بعيدانه وأوراقه، ثم تدخل الفتيات المتزوجات حديثًا إلى ذلك القالب الخشبي، ولا يشترط أن يغتسلن بقدر اشتراط أن يكنَّ جميلات وأرجلهن ملساء ناعمات، ثم تعزف موسيقى احتفالية شعبية ترقص الفتيات على أنغامها فوق العنب إلى أن يصبح عصيرًا، فيتم تصفيته ونقله إلى أوعية أصغر حجمًا ويدفن في أقبية لعدة سنوات قبل أن يستخدم، ويقال أن أفضل أنواع النبيذ أعتقه، وكل ذلك يتم في طقوس احتفالية، فهو مهرجان لقطف العنب وعصره.. تمضي الحياة هادئة جميلة في بادكروتشنا وفرانكفورت، خصوصًا أنني أعمل ولدي دخل يعينني خلال تسكعي أو ترحالي، وشعرت بأنني ربما أكون قد أطلت البقاء في هذه البلدة أكثر من غيرها.

وذات يوم شعرت أن الوقت قد حان للرحيل مرة أخرى، وبدون مقدمات ودعت أصدقائي وانطلقت إلى محطة القطارات، ووجدت أقرب قطار على وشك التحرك متجهًا إلى «براغ»، العاصمة التشيكية، فركبته، فليس مهمًا إلى أين الاتجاه، فكل المدن تعتبر وجهة محتملة.

وصلت «براغ» في ساعات الصباح الأولى، وكانت لا تزال غارقة في الثلج الأبيض الذي استمر بالهبوط منذ الليلة الماضية على شكل

ذرات صغيرة لطيفة ليست باردة كما كنت أتخيل، تجمدت يداي أو كادت وكذلك رأسي عندما تعرضت للهواء البارد ما أن خرجت من محطة القطار.

الطقس بشكل عام باردًا جدًا، درجة الحرارة تتعدى خمس درجات تحت الصفر، وفي المساء ترتفع لتصل إلى ثلاثة عشر تحت الصفر، وتلك تجربة مختلفة، فبالرغم من تأقلمي السريع مع الأجواء الباردة، غير أن البرد هنا لا يحتمل، تيارات الهواء تزيد من برودة الطقس لدرجة التجمد..

عُدت إلى داخل المحطة خشية البرد وأجريت اتصالاً بصديق يعيش هنا منذ خمسة وعشرين عامًا، هو شاب لبناني الأصل يدعى جورج جاء طالبًا يدرس الهندسة المدنية، لكن المدينة أسرته فاستقر بها وأسس أعمالاً خاصة مستغلاً المناخ الاقتصادي في تلك الحقبة الاشتراكية، وزادت فرصه بعد انهيار الاشتراكية فتطورت أعماله وهو اليوم وكيل لشركات سفر وسياحة علاجية في دول الخليج العربي.

أشرت لسيارة أجرة، وتفاجأت عندما تحدث السائق معي بالعربية، فطلبت منه أن يوصلني إلى مكتب جورج اللبناني، في الطريق أخبرني سائق الأجرة أنّه هنا لاستكمال دراساته العليا وهو حاليًا يدرس الدكتوراه في الهندسة، لكنه يعمل سائق أجرة بدوام جزئي لتسديد نفقات دراسته، قلت له مازحًا: توقف لأقود السيارة بدلاً عنك فمثلك يجب أن يُخدم لا أن يَخدم..!

وضحكنا وقال: إنّها وسيلة للحصول على دخل يا سيدي، نحن كفلسطينيين نعاني من غربة وبؤس في الوطن بسبب الاحتلال وإجراءاته التعسفية ولا بأس ببعض المعاناة في الغربة.

ثم حدثني عن مشاريعه وعن أحلامه في العودة إلى وطن حر تكون له سيادته واستقلاله..!

توقفت سيارة الأجرة أمام مطعم فخم، وقال لي السائق: هذا هو العنوان.

شكرته وأكرمته، ودخلت المطعم وسألت عن جورج اللبناني، ودلني أحدهم على مكتبه في الدور العلوي في مدخل جانبي، وجدت جورج قد قام بالترتيبات اللازمة من أجل اقامتي في هذه المدينة، ودعاني لتناول الطعام في المطعم اللبناني الذي يملكه، غير أنني اعتذرت وشكرته وانطلقت وحيدًا لاستكشاف «براها» كما يسميها أهلها، المدينة التي تأسرك وتبهرك بمبانيها القديمة التي تبقى شاهدًا على عراقة تاريخها وتوغلها في القدم، حيث يرجع تاريخ بنائها إلى نحو ألف عام خلت، وسرعان ما تكتشف من أول جولة في المدينة أن تطور فن المعمار الأوروبي قد ترك فيها شاهدًا حيًا على كل المدارس المعمارية.

في مقهى في وسط البلد جلست لأستريح، تجولت بنظري في المقهى الذي يحمل سمات تاريخية، كأنّه انعكاس لمحيطه من المباني الرومانية والقوطية، ومباني عصر النهضة، وعصر الباروك، والعصر الكلاسيكي، أو مختلف عناصر وسمات عصور تقليد

المدارس المعمارية الأقـدم، أو مدرسة الفن الحديث. كل ذلك تلاشى من أمامي ما إن رأيت حسناء تجلس وحيدة بجوار النافذة..

الفصل التاسع

انستازيا

من بين كل الزبائن والسّواح، أثارت تلك الحسناء فضولي، كأن شيئًا ما يشدني نحوها، راقبتها بفضول وهي تجلس وحيدة بجوار النافذة، شعرها الذهبي، لون بشرتها البيضاء المائلة للاحمرار، وقميصها الأبيض الأنيق الذي يكشف شيئًا من مفاتنها، وقد لاحظت أنني أحدق بها فبادرتني بابتسامة لم أتمكن من مقاومة سحرها، فتجرأت وحملت قهوتي واستأذنت لمشاركتها الطاولة، وحدثتها عن فضولي كوني غريب في المدينة، وعرفت أنَّها غريبة أيضًا، وأنها قادمة من بلدة ريفية في أوكرانيا، وهي في طريقها إلى أوروبا الغربية بحثًا عن فرصة عمل أفضل، قلت لها: ألا تخشين السفر وحيدة في عالم مليء بالفوضى التي قد تجعل حسناء مثلك طريدة سهلة للطامعين واللصوص والمجرمين..!

قالت إنّها سئمت البقاء في بلادها بدون عمل، وأنّها تطارد حلمًا من أجل حياة أفضل، لذلك هي مضطرة للمغامرة من أجل استكشاف آفاق ارحب.

وفجأة توقفت عن حديثها ثم قالت: يبدو أنني أتحدث كثيرًا عن نفسي، هيّا أخبرني ماذا يفعل واحد مثلك في هذه المدينة..؟

قلت: لا زلت أبحث عن فكرة، عن مزيد من الحماقات، عن حب ضائع وذاتٍ تائهة..!

ضحكت واعتدلت في جلستها، وكأنني فتحت لها بابًا لتتحدث عن أحلامها، واستمر حديثنا طويلاً، وتشاركنا هموم الغربة ومطاردة

الأحلام والسفر والترحال، واتفقنا على التجوال سويًا في المدينة، وخرجنا لنستكشف المدينة، سرنا سويًا، كانت سعيدة بهذه الرفقة الارتجالية التي بددت شيئًا من وحشتها وغربتها ووحدتها، مشينا في وسط المدينة القديمة التي كانت تعرف بمنطقة بوهيميا التاريخية، ثم سرنا على الطريق الملكي الذي يعبر على جسر كارل أشهر جسر في البلاد، ومن تحته يعبر نهر فلتافا الذي يخترق المدينة فيشقها إلى نصفين، الجسر يربط بين مركز المدينة والقلعة التاريخية المبنية على قمة تلال خضراء، وعندما تقف على مقدمة هذا الجسر ترى بانوراما خلابة لقلعة براغ، غير أنني لم أكن مهتمًا كثيرًا بكل هذا بقدر اهتمامي بها وبجسدها الرائع، فتظاهرت بمشاركتها اهتماماتها، برغم الشعور بالتعب من كل هذا المسير.

أكملنا المسير صعودًا إلى القلعة التاريخية، قالت وهي تقف على شرفة القلعة لتطل على تلك التلال: انظر إلى هذا المشهد الخلاب، إنّه محاولة رائعة لمزج الفن المعماري والبناء في عصر الباروك للربط بين بناء القلاع والقصور الفخمة من جهة، وبين البساتين والحدائق التي تتداخل في ثناياها أكواخ خشبية صغيرة، وممرات مسقوفة بينها استراحات هادئة من جهة أخرى، الأمر الذي يكشف لك أن هذه المدينة جميلة أيضًا بخضرتها وهضابها وزهورها في فصلي الصيف والربيع.

قلت مازحًا: لا أرى شيئًا سوى بياض الثلج..!

ضحكت وهي تقول: ذلك لأنّنا في فصل الشتاء وكل شيء هنا موشح

بالثلج الأبيض.

في طريق هبوطنا من القلعة، توقفنا قليلاً أمام عدد من الباعة المتجولين الذين يبيعون تذكارات ومشغولات يدوية، كما يجلس بعض الرسامين المتجولين، بدت كطفلة مبهورة بتلك الرسومات ومهارة الرسامين في تشكيل لوحاتهم بطرق مبتكرة ومختلفة، ثم توقفت تعد التماثيل التاريخية التي تزين هذا الجسر والتي تمثل عددًا من الصالحين أو رجال الدين المسيحي..

عندما عدنا إلى وسط المدينة، لم أرغب في مفارقتها، فدعوتها لتناول الطعام وإكمال بقية الليلة برفقتي، غير أنها اعتذرت لأن عليها أن تسافر غدًا، لتكمل طريقها في مطاردة الأحلام، وعرضت عليّ مرافقتها..!

كنت مترددًا في قبول دعوتها، غير أنني فكرت قليلاً، فقد كنت واثقًا أنني إن لم أرافقها فلن أراها مرة أخرى، ثمة شيء يجعلني أرغب في بقائها بقربي، مرحها، خفة دمها، لباقتها، جاذبيتها، ثقافتها وحديثها في الفن والموسيقى والمدارس المعمارية، حكاياتها وقصصها عن التاريخ والجغرافيا، وأهم من كل ذلك أنّها جميلة، حساسة، ورقيقة المشاعر وتكاد تكون مثالية، ورفقتها مسلية..

في تلك الليلة وجدتني أفكر بها، وراودتني أحلام يقظة إباحية معها، وفي الصباح الباكر وجدت نفسي في انتظارها أمام مقر إقامتها، ما إن رأتني حتى عانقتني بحرارة، فسرنا سويًا إلى محطة الحافلات، حيث ركبنا حافلة صغيرة تقل ركابًا من عدة جنسيات

إلى كارلوفيفاري، جلسنا متجاورين، تفوح منها رائحة منعشة، تبعث في نفسي رغبة غريزية، تجعلني ألتصق بها، وربما شعرت هي بشيء من ذلك فوضعت يدها فوق كتفي، شعرت بأن هناك رغبة متبادلة لكنّها تتمنع خشية العواقب، الطريق ممل وطويل ومغطىً باللون الأبيض والأشجار عارية عدا بعض شجيرات فواكه تقف صامدة على جنبات الطريق حاملة براعم ثمار، غير أن رفقتها تجعل الطريق الممل يبدو رائعًا مشوقًا لدرجة أنني تمنيت أن يطول لأن صحبتها مسلية..

قالت كأنّها تختبرني: هل تعرف ماذا تعني كلمة كارلوفيفاري؟

قلت متصنعًا: لابدّ أن لها علاقة بالملك كارل أو شارل..!

قالت: آه، يبدو أنك تعرف أشياء لم تخبرني بها، حسنًا أخبرني ماذا تعرف أيضًا عن هذه المدينة؟

قلت: عذرًا لكنني لا أضاهيك معرفة، كان ذلك مجرد تخمين، هيّا أخبريني أنتِ، فالطريق لا يزال طويل..!

قالت: بالعكس المدينة ليست بعيدة كثيرًا عن براغ..

صمتت وهي تنظر من النافذة إلى الحقول التي تحولت إلى بياض، ثم نظرت نحوي وعلى وجهها ابتسامة خفيفة جعلتها تبدو كطفلة تملؤها البراءة، وقالت بحماس: الكلمة تعني حمامات كارل نسبة إلى ملكهم كارل الرابع الذي اكتشف الينابيع في هذا المكان، تقول الأسطورة أن هذا الملك كان يصطاد في الغابة عندما تاه عن حاشيته فرأى غزالاً قد كسرت قدمه وكان يضعها في نبع المياه

الساخنة، واكتشف الملك أنَّ الغزال كان يفعل ذلك لتخفف تلك المياه - على ما يبدو- من آلامه.

انتبهت إلى أنني مازلت مأخوذًا ببلاهة بابتسامتها الجذابة، فضحكت، وهزت رأسي بكلتا يديها كأنّها تريد أن تعيدني إلى أرض الواقع..!

عندما وصلنا إلى المدينة الصغيرة المشهورة بمصحاتها العلاجية، أقمنا في فندق ومنتجع يعود إلى حقبة الشيوعية، تصميمه يشبه محطة القطار، وأسعاره معقولة جدًا مقارنة بغيره، وبعض الندل والموظفين يتحدثون شيئًا من العربية بل والخليجية بحكم أنه يستقطب العرب والخليجيين..

في المساء جلست في بهو الفندق أنتظرها ريثما تستعد لنستكشف المدينة سويًا، المدينة رائعة، وثمة أثنا عشر ينبوعًا يصب في نهر يخترق المدينة ليشكل منظرًا خلابًا في فصول الصيف والربيع، أمّا في الشتاء فالثلوج تنهمر على شكل ندفات رقيقة لطيفة، نزلنا إلى وسط المدينة نجوب الشوارع ونضحك كثيرًا فهي ظريفة لا تتوقف عن إطلاق التعليقات الطريفة على كل شيء، وانتهى بنا الأمر في ناد ليلي رخيص، تناولت هي شيء من الشراب، قالت إنها ستجرب شرابًا محليًا، يعتبره أهل المدينة «الينبوع الثالث عشر»..!

وربما أكثرت من ذلك المشروب مما جعلها تترنح قليلاً، وتتفوه بكلمات يبدو أنّ أحدهم فهمها وفسرها على أنّها إهانة، وبدأ في مشادة كلامية معها وقبل أن تتطور إلى تحرش أو شجار قررت

سحبها والعودة إلى الفندق قبل أن ننجرف نحو الأسوأ..

أوصلتها إلى غرفتها وكانت لا تعي شيئًا، وعندما هممت بالمغادرة تمسكت بي ترجوني البقاء، قاومت إغراء الفكرة فلا أرغب في فعل شيء معها وهي ليست في كامل وعيها، رغم ذلك بقيت بجوارها مجبرًا فلم أتمكن من الإفلات منها لمغادرة الغرفة، بل أنني لم أرغب فعلاً في مفارقتها، وربما راقت لي فكرة المبيت برفقتها، وهكذا قضيت الليلة بجوارها، تراودني نزعات شريرة لأفعل بها ما أشاء وهي نائمة..!

في صباح اليوم التالي، تفاجأت عندما وجدتني بجوارها على السرير، وقد شعرت بنوع من الحرج، وقالت وهي تفرك عينيها: هل..!

قاطعتها لأوفر عليها الإحراج قبل أن تكمل عبارتها: لا تقلقي فلم يحدث شيء، رغم أنك كنت في قمة الانتشاء، من الواضح أنّ هذه أول مرة تشربين فيها..!

قالت وهي تخفي وجهها بين يديها: يا إلهي ماذا حدث؟

قلت مبتسمًا: لا أعلم، غير أنك ترنحت قليلاً، وتفوهت ببعض الكلمات غير المفهومة والتي أثارت أحدهم، فتلاسنت معه، فخشيت عليك وعُدت بك إلى الفندق..!

اقتربت منها، قبلتها على خدها وقلت: حسنًا، لا بأس، سأذهب الآن، إذا أردتِ أن نلتقي لتناول الإفطار سويًا فستجديني في المطعم بعد قليل.

بعد نصف ساعة كنت في بهو الفندق، ثمة فتاة خليجية تجلس وحيدة وأمامها رقعة شطرنج، يبدو أنّها معروفة لدى جميع موظفي الفندق، وعرفت فيما بعد أنّها تقيم هنا منذ ثلاثة أشهر تخضع لعلاج السمنة الزائدة التي تعاني منها.

انتظرت قليلاً، ثم توجهت إلى المطعم حيث كان هناك مجموعة من اللبنانيين جاؤوا لزيارة أصدقائهم وأقربائهم هنا في هذه المدينة الصغيرة، تناولت إفطارًا سريعًا، وخرجت من الفندق، كان الجو باردًا، غير أنني سرت بمحاذاة النهر حيث يأسرك المنظر الخلاب، وتوقفت عند مياه النبع حيث وجدت رجلاً سعوديًا كان يشرب من مياه النبع المعدنية، قال إنه يشرب هذه المياه كل صباح كجزء من العلاج الذي يخضع له، وشجعني الأمر، فشربت من الاثني عشر نبعًا، ولم أطق طعم الماء فقد كان به خليط من الملح وصدأ المعادن، قيل لي إنّها معادن طبيعية تتشبع بها مياه الينابيع، لكنني أعتقد أنّها من صدأ الحنفيات الحديدية التي لم تصمد أمام درجة الحرارة والأملاح، طعمها يحتوي أيضًا على نوع من الغازات كتلك التي توجد في المشروبات الغازية..!

عُدت بعدها إلى الفندق لأطمئن على الفتاة، وجدتها في حالة سيئة تعاني من صداع ومغص حاد، فاتصلت بإدارة الفندق بحثًا عن طبيب، وبعد فترة وصل الطبيب، وقام بفحصها، وأعطاها بعض المسكنات.

قال لي: لديها بوادر تسمم والأفضل لها أن تستريح وتشرب المزيد

من السوائل، وإذا ساءت الحالة سنضطر لنقلها إلى المستشفى..!
شكرته وأنا أرافقه نحو المدخل، وناولني فاتورة حسابه، دفعتها على مضض، وعُدت إليها، قالت بصوت ضعيف: آسفه، لقد أفسدت كل شيء كالعادة، أعتذر سأعيد لك ما أنفقته على الطبيب..!
قلت وأنا أجلس بجوارها على السرير ممسكًا بيدها: آه لا عليك، ربما أكون مسؤولًا عمّا حدث لأنني أصررت على دخول ذلك النادي البائس، اللعنة عليهم لابدَّ أن يكون الشراب مغشوشًا أو سيء الصنع.. الحمد لله على سلامتك ذلك هو ما يهم الآن.
أعدّت لنا إدارة الفندق هدية تعويضية عن تجربتنا السيئة في المدينة، وهي عبارة عن باقة من الخدمات العلاجية في المنتجع، وعندما تحسنت حالتها في اليوم التالي، أمضينا بضع ساعات في الحمامات المزودة بتجهيزات علاجية، مياه معدنية وأنواع من الطمي والطين الذي يستخدم في العلاج، وأنواع من التدليك والمساج، وغرف «السونا» الساخنة وغرف البخار، وأمضيت معها بضع ساعات نجرب كل تلك البدائل العلاجية، المسالة ممتعة أكثر ممّا هي علاجية، بل إننا بقينا نحو ساعة ونصف عاريين تمامًا في حوض ضخم مليء بالطين العلاجي.
قالت مازحة بمرح وهي تسبقني نحو المصعد: ما أروع الإقامة هنا في هذه المدينة خصوصًا عندما يكون كل شيء فيها بالمجان.
لحقت بها في المصعد وقلت لها ضاحكًا: ما رأيك أن نعود مرة أخرى لذلك النادي الرخيص لنعيد الكرة، ونحصل على أشياء

أخرى مجانية..!

ضحكنا معًا، وذهبت هي لتغير ملابسها على أن نلتقي في بهو الفندق بعد قليل لنخرج لتناول العشاء في الخارج، وذهبنا إلى مطعم شعبي في وسط المدينة، وبعد العشاء عدنا سيرًا على الأقدام، أوصلتها إلى غرفتها وقبل أن أعود إلى غرفتي أمسكت بذراعي وقبلتني قبلة ساخنة.

شعرت أنَّ علاقتنا تتطور بشكل إيجابي وأنني سأحصل قريبًا على ما أريد، غير أنني عندما أويت إلى الفراش شعرت بنوع من الأرق، وبعد محاولات فاشلة لإقناع النوم بالاستسلام، استسلمت أنا وتركت تكرار محاولات النوم الفاشلة، خرجت من غرفتي متسللاً وذهبت إلى غرفتها، وقبل أن أطرق الباب توقفت قليلاً محاولاً استراق السمع من وراء الباب، فقد شعرت بتردد ولم أجرؤ على طرق الباب فلعلها نائمة، خشيت أن أزعجها وهبطت إلى بهو الفندق، جلست قليلاً أمام المدخل الرئيسي للفندق، أتأمل ندف الثلج المتساقطة على الشارع، ثم خرجت، سرت قشعريرة في جسدي بسبب برودة الطقس، تمشيت قليلًا، الإضاءة خافتة في هذا المكان، ثمة أشباح على الضفة الأخرى من النهر، ذرعت الشارع جيئة وذهابًا، نظرت إلى الساعة كانت قد تجاوزت الثانية صباحًا، عُدت إلى الفندق، فوجدت الشابة الخليجية تجلس وحيدة في زاوية معتمة من بهو الفندق، ألقيت عليها التحية وتحدثت معها حديثًا مقتضبًا، ثم عُدت إلى غرفتي لأحاول النوم.

في صباح اليوم التالي، أفقت متأخرًا قليلاً، تناولت الإفطار، واتصلت على غرفتها، فلم تجب، فذهبت وطرقت الباب ولم تكن هناك، وعُدت إلى بهو الفندق، وبعد برهة جاءني موظف الاستقبال وأخبرني بوجود رسالة لي، اختفى قليلاً ثم عاد وناولني ظرف، فتحت الظرف فوجدت ورقة كتب عليها التالي:

صديقي العزيز

أرجو المعذرة، لقد اضطررت إلى السفر دون وداعك، أكره لحظات الوداع، لقد استمتعت برفقتك غير أنني لن أتمكن من البقاء لأن لديّ أحلام أطاردها وأخشى إن بقيت أن أقع في الحب وفي هذه المرحلة قد لا يكون الحب مقدرًا لكلينا، أتمنى أن تجد ما تبحث عنه، وتمنياتي لك بالتوفيق.

صديقتك المخلصة

انستازيا

الفصل العاشر

شرنقة الأوهام

بعد أن غادرت انستازيا وتركتني وحيدًا في كارلوفيفاري، أيقنت أنّه لم يعد لديَّ مبرر للبقاء في هذه المدينة، فتركت الفندق في ذلك الصباح، وقد تملكني شيء من الحزن نتيجة الفراق، حاولت إقناع نفسي أن فراقها أفضل، رغم ذلك فقد بذلت محاولة يائسة لمعرفة إلى أين اتجهت، قلت محدثًا نفسي: لم يكن ذلك حبًا، إنّه مجرد رغبة جنسية لم تتحقق، رغبة أشعلتها أحلام اليقظة، لا أخفي أنّها كانت جميلة ورائعة، بل قد تكون مثالية، لكن أفق فلم يكتب لك الاستقرار، وتلك الفتاة تبحث عن مستقبل أفضل وهو ما لا تستطيع أن تؤمنه لها، لقد كانت أكثر منك شجاعة لأنها واجهت عواطفها وانطلقت لإكمال بحثها عن حياة أفضل، يكفي أنك أضعت وقتها في لا شيء..!

غادرت المدينة مع أول سيارة وجدتها في طريقي، وكلما توجهت شمال غرب البلاد يزداد البرد نظرًا لارتفاع تلك القرى العلاجية فوق المرتفعات والجبال، فزرت في طريقي منتجع «ماريانسكي» وكان خلابًا وزرت منتجعًا آخرا لم أذكر اسمه وكان أكثر من رائع، وتنقلت في تلك الأنحاء إلى أن وجدت قطارًا ينقلني إلى النمسا وانتهى بي المطاف على ضفاف نهر الدانوب الأزرق في وسط فيينا، فاتصلت بصديق قديم يعيش في هذه البقاع، وقد فرح كثيرًا عندما عرف أنني على بعد نحو نصف ساعة فقط من براتسلافيا العاصمة السلوفاكية التي يقطنها، واتفقنا على اللقاء في مقهى لا يبعد سوى

خطوات عن ضفة النهر.

صوت فيروز ينبعث من مذياع سيارة صديقي أبو كريم اللبناني المغترب ليبعث الحياة من جديد في جسدي ليعيدني إلى الواقع، وينتشلني من غرقي في بحر الذكريات، فكرت في أمر هذا الصديق الذي استقر به الحال منذ ثلاثين عامًا في هذه البقاع، تزوج وأنجب ونسي جبال لبنان وصخرتها واستعاض عن كل ذلك بهذه الجبال الخضراء وهذه الطبيعة الخلابة، هل هو هارب أيضًا من أقداره أو من أشباح الماضي أو ربما من حب قديم..!

لم أفتح معه الموضوع فلابد أن الحياة في سلوفاكيا تروق له وإلا لما قضى فيها ثلاثين عامًا من عمره.

بعد أقل من نصف ساعة عبرنا المركز الحدودي المهجور لنجد أنفسنا في الأراضي السلوفاكية التي هجر مركزها الحدودي أيضًا، فتذكرت مأساة اجتياز مراكز الحدود بين المدن العربية..!

يتساقط علينا المطر بشكل متقطع وخفيف متناغم مع أغنية فيروز فيجعل الجو ساحرًا، باردًا، وعلى جانبي الطريق لا تزال الثلوج المتساقطة منذ الليلة الماضية تحيل المساحات الخضراء وحقول عباد الشمس إلى بياض ناصع ممل..

فضّل صديقي أن يستضيفني في بلدة ناعسة تسمى «بيشتني» قال إنّها تناسبني أكثر وبها روح الرحالة، ضحكنا ونحن ندلف إلى الطريق الجانبي الذي يؤدي إليها، وبعد نحو نصف ساعة وصلنا، فشعرت بنوع من الألفة للمكان.

تبدو البلدة شبه خاوية في مثل هذا الوقت من العام، وعندما تذوب الثلوج في أعالي جبال «تترى» تشكل نهر «فاه» الذي يعبر الأراضي السلوفاكية ليصب في نهر الدانوب الأزرق، غير أنّ نهر «فاه» يجرف معه من أعالي الجبال رواسب طينية، ومع وصوله إلى هذه المنطقة يتفرع منه جدول صغير فتتجمع الرواسب الطينية بين الجدول ومجرى النهر الرئيسي ما يشكل شبه جزيرة صغيرة، انتبه إليها قبل حوالي مئة عام رجل أعمال فاشتراها وبنى عليها مصح أقام فيه فرنًا ضخمًا لتسخين الطين الذي يجرفه النهر ليستخدم كعلاج للروماتيزم ولأمراض العظام ولتنشيط الدورة الدموية، واكتشف لاحقًا وجود مياه معدنية تنبع من تحت مياه الجدول، وبعد عدة بحوث تمكن من تطوير المصحة، فأصبحت تعالج الجلطات والشلل النصفي وأمراض أخرى خاصة بالحركة والعظام، بل وحتى تخفيف الوزن والمحافظة على الصحة، وبعد ذلك أنشئت عدة منتجعات لنفس الغرض مستفيدين من توفر الماء المعدني والطين، وتشكلت على ضفتي نهر «فاه» بلدة «بيشتني» التي تعتبر معزولة بين أحضان الطبيعة..

قضيت بضعة أيام في هذه البلدة كانت بمثابة استراحة، جربت كل أنواع الحمامات الموجودة والطين والمياه المعدنية، فلم يكن لدي شيء آخر أفعله هنا، واقترح عليّ أبو كريم أن أبقى وسيسعى لتدبير عمل مؤقت لي، بل إنّه عرفني على رئيسه وهو شاب يدعى دانييل وهو من أب يمني وأم سلوفاكية، أبدى اهتمامًا بمساعدتي وأبديت

اهتمامًا بقصته، فقد جاء أبوه للدراسة في زمن ما وتزوج من هذه البلاد، لكنه ما لبث أن عاد إلى بلاده بعد أن أنهى دراسته وقد هجر الوليد وأمه لأنه كان ضعيف الحال، وبالرغم من ذلك فقد استمر الاتصال بينهما، وعندما كبر الابن تمكن من استعادة والده وبقية عائلته لكنّه فضّل البقاء في سلوفاكيا حيث تربى وترعرع وحيث لا يزال بقية أفراد عائلته من جهة أمه يعيشون..

بالرغم من روعة البلدة وانسجامي مع الطبيعة غير أنني لم أشأ البقاء كثيرًا هنا، وخطرت ببالي فكرة التوجه شرقًا إلى هنغاريا ومنها إلى أوكرانيا حيث سألتقي أحد رفاق السلاح وزملاء الأمس البعيد، وربما بدافع للبحث عن انستازيا، هاتفت ذلك الزميل وأبلغته نيتي لزيارته؛ نظرًا لوجودي على بعد نحو ستمائة كيلو مترًا فقط من مدينته، فرحب بي كثيرًا واتفقنا على اللقاء لنستعيد ذكريات ومغامرات قديمة فلم نلتقِ منذ ما يزيد على عشرة أعوام..

في صباح اليوم التالي هممت بالرحيل وعلى مفترق الطرق بين هنغاريا وسلوفاكيا والنمسا توقفت قليلاً، نظرت نحو الشرق، كان الجو يبدو مكفهرًا غامضًا ضبابيًا ملبدًا بالغيوم، ثم نظرت جهة الغرب، وتذكرت كلام العرافة الغجرية، الاتجاه نحو الغرب في كل الأحوال للتخلص من كل اللعنات، فأدرت ظهري وانطلقت نحو النمسا.

كان الطقس جميلاً هادئًا رغم البرد، وخلال نصف ساعة كنت في فيينا، سرت في وسط المدينة بمحاذاة نهر الدانوب الأزرق إلى أن

وصلت إلى ضاحية «بادن» حيث سأقيم في قصر قديم تم تحويله إلى نزل لا يزال يحتفظ بشيء من تاريخه الطويل..

مكثتُ بضعة أيام في فيينا، ثم عُدت لأكمل تسكعي بين المدن الأوروبية ونسائها، فانطلقت إلى جنيف ثم إلى باريس فبروكسل وأمستردام ثم إلى فرنسا حيث شعرت بأن الوقت قد حان لأغادر هذه القارة، فقد مللت البقاء فيها، مللت كل نسائها وكل أزقتها بل ومللت طقسها البارد لدرجة التجمد.

سرت في جسدي قشعريرة عندما هبت نسمة باردة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، المكان موحش يوغل في أحشاء الصمت، وأنا أقف ها هنا وحيدًا بعيدًا عن المدينة تحت هذه السماء اللامتناهية التي يكتنفها الغموض والظلام الذي يبتلع كل الأضواء البعيدة، وفي النفس ما بها من أوجاع بعد أن توغلت الأحزان في ثنايا الفؤاد، لدرجة أنني خشيت على قلبي من التآكل حتى الانهيار.

شعرت برغبة عارمة في الصراخ بعد أن أغراني الصمت بتمزيقه لمجرد العبث الذي يعيدني إلى أيام الطفولة والشقاوة البريئة، لكنني أعرف أنّ صوتي سيتمزق في حدود الزمان والمكان ولن يرتدّ إلي فما من مجيب في هذا الزمان العجيب..!

وجدتني أبحث عن عمري الذي فات لأنتشل نفسي من أوهام الماضي وأحلام المستقبل، لأعيش لحظات الحاضر، فكم انشغلت بالصراع من أجل البقاء، وفي البحث عن ذات ضائعة هائمة في صحاري التيه وفيافي النكران والمجون والجنون، حتى فاتتني أشياء

كثيرة لدرجة أنني نسيت لذة الحياة وطعم المغامرة وعذوبة الحب والغرام..

تمنيت لو أن الحاضر لم يخرج من رحم الماضي، ولو أن المستقبل لم يكن حفيدًا للماضي، فلا سبيل للخروج من هذه السلسلة الزمنية العائلية، فهي دوامة سرمدية تسحبك معها إلى الأعماق.

أشباح الماضي تطاردني، تنهشني، تقض مضجعي، حتى استسلمت لأقداري وتخليت عن أفكاري وحرقت أشعاري وأجلت أسفاري وفتحت حقائبي ورميت أسمالي.

لكن، ثمة صوت يتردد صداه في أوصالي، يطالب بالتغيير وبالخروج من زحام الروتين ورتابة مفردات يومياتي، ثمة صوت يدفعني للثورة على المكان والزمان وعلى مفرداتي وأوهامي وأشجاني، من أجل التحرر من لعناتي، ومن تلك القيود الوهمية، من أجل الانطلاق للخروج من أتون حالة السكون والخنوع، من أجل التغيير ومن أجل العثور على المكنون من أسرار السعادة والحبور.

الإنسان مفطور على البحث عن السعادة، بل إنّه مفطور على البحث والتنقيب عمّا هو خفي غامض كامن فأين يا ترى تكمن السعادة..؟ السعادة لا تقرع الأبواب، والطريق إليها وعر غير ممهد، لكن الأمل هو وحده القادر على دفعنا لمواصلة البحث عنها، وربما يجب الكف عن البحث عنها من أجل الحصول عليها، وأن نتحلى بالشجاعة حين نعثر عليها لكي نضعها بداخلنا..؟

وجدت نفسي مشغولاً بترميم ذاتي، فالثورات تطالب بالضحايا،

وصيحات التغيير تحتاج إلى أنفاس طويلة، ولم أجد سوى ذكر اللّه ليطمئن قلبي، وعُدت إلى أحلامي وأوهامي فهي شرنقتي التي تحميني من واقعي وخيالي..

تنهدت وكأنني أزيح جبالاً من الأثقال تجثو على صدري وأنا أكمل مسيري نحو محطة «غار دو نور» في باريس لأستقل قطار «يوروستار» متوجهًا إلى وسط العاصمة البريطانية لندن، ثمة 500 كيلو مترًا تقريبًا عليَّ أن أقطعها في أقل من ثلاث ساعات.

جلست على الرصيف انتظر موعد الرحلة التي ستنطلق في ساعات الفجر الأولى، المحطة تغص بالحقائب والمسافرين وذلك من سوء حظي، فذلك الزحام يشغلني عن المكان وجمالياته فانشغل بالناس ووجوههم وحكاياتهم التي أحيكها من نسج خيالي.

أغلبية المسافرين من الشبان الذين قضوا إجازة رومانسية سريعة في أجواء باريس الخلابة، ما جعلني أشعر بالوحدة وأنا أسافر وحيدًا كالعادة.

اخترت كرسيًا يطل على النافذة معتقدًا أنني سأتمكن من مشاهدة المناظر الطبيعية عبر الطريق، وجلست بجواري حسناء جعلتني أشعر بالسعادة لوهلة، ما لبثت أن تحولت إلى خيبة أمل بعد أن لحق بها صديقها ليتركاني أتقوقع على نفسي وأعيش أحلام يقظة ستمتد إلى نهاية الرحلة التي تستغرق نحو ساعتين ونصف.

ربما تعود فكرة ربط لندن بباريس برًا إلى نابليون بونابرت، فقد كان ينوي ربطها عبر جسر معلق، لكنّ انشغاله بحروبه لم يمنحه وقتًا

كافيًا لتنفيذ فكرته، غير أنَّ فكرة القطار السريع أجمل فهي أسرع وتسمح لواحد مثلي بالتنقل برًا عبر المدن الأوروبية، فهذا القطار يمر عبر معظم المدن الأوروبية، وربما ليس هناك وسيلة نقل تعادل متعة السفر بقطار أوروبا السريع، غير أنه قبل عام 1994 لم يكن متاحًا السفر برًا إلى بريطانيا فليس أمامك إلا الجو أو البحر، لكن مع توفر هذا القطار السريع أصبح السفر أسهل، فيعبر المسافرين من تحت القنال الإنجليزي ذلك الممر المائي الممتد من المحيط الأطلسي ليشكل فاصلاً بين قارة أوروبا والجزيرة البريطانية، هذا القطار السريع قرب المسافات جغرافيًا وزمانيًا فأصبحت المسافة أقصر إلى وسط لندن التي يضمها هذا الخط إلى نادي قطار أوروبا السريع الذي كانت غائبة عنه لسنوات جعلتها مادة لسخرية الفرنسيين المتهكمين دائمًا على جيرانهم الإنجليز، وتلك خصلة ورثوها منذ أن كانت الحروب مشتعلة بين الشعبين الصديقين..

عندما وصلت إلى محطة سانت بانكراس إنترناشيونال في وسط لندن توقفت أمام موظف الجوازات ريثما ينهي إجراءات الدخول إلى الأراضي البريطانية، غير أنّه نظر إليَّ وهو يقلب جواز سفري، ثم ذهب ليستشير رئيسه الذي بدوره قام باستخدام جهاز للاتصال معلق على كتفه وتحدث مع شخص آخر، فتدخلت متسائلاً إن كانت هناك مشكلة يمكن أن أساهم في حلها، غير أن الضابط أمرني بالانتظار، وفي لحظات كان هناك ضابطي شرطة يطلبان مني السير معهما إلى المكتب المجاور..!

سألت: ما المشكلة؟ نظرا إليّ بصمت، قبل أن يقول أحدهما: تفضل معنا لتعرف..!

الفصل الحادي عشر

الطريق إلى جوانتنامو

في المكتب البارد الضيق، الذي وجدت نفسي فيه، ثمة طاولة معدنية صغيرة، وأمامها كرسي، وفي الطرف الآخر كرسيين متجاورين، جلست في طرف وطُلب مني الانتظار..!

داهمتني الهواجس والمخاوف فكل شيء جائز وتهم محاربة الإرهاب جاهزة على الدوام خصوصًا لمن هم على شاكلتي قادمون من المنطقة العربية..!

تلفت حولي في المكتب، لا يوجد أي ديكور أو صور معلقة على الجدران، ثمة جدار زجاجي في إحدى الجهات، لابدَّ أنّه مكتب للاستجواب، فكرت في الهروب، قمت واتجهت صوب الباب، تراجعت، عُدت إلى مكاني على الكرسي المعدني، القلق يكاد يفتك بي، وضربات قلبي تتسارع، فكرت طويلاً ووضعت ألف احتمال لسبب وقوعي في هذا المأزق، لم يكن بينها احتمال منطقي واحد، ازدادت وتيرة التوتر وشعرت أن لابدّ من مغادرة هذا المكان فورًا، فيستحيل أن تنتهي رحلتي في جوانتنامو..!

مرَّ حين من الوقت ظننته دهرًا، وهممت بالوقوف غير أنني تراجعت عندما دخل عليّ ضابط بلباس مدني، طلب مني الاسترخاء فليس هناك مدعاة للقلق على حد قوله..!

حاولت بلع ريقي فلم أجد ما أبلعه، شعرت باطمئنان مزيَّف حاولت أن أرسمه على وجهي، وبهدوء طالبت الضابط أن يشرح لي سببًا واحدًا يجعلني أتواجد في هذا المكان الآن..!

جلس الضابط في الجهة المقابلة بهدوء وهو ينظر اليّ بصمت، وقبل أن يتحدث دخل ضابط آخر، وقال: هل تتحدث الإنجليزية..؟

قلت: نعم، نعم ولكن قبل كل شيء أرجوك أخبرني ما هي المشكلة، أحمل تأشيرة دخول صالحة إلى المملكة المتحدة، وهي ليست المرة الأولى لي في هذه البلاد..!

رد متجهمًا: أولاً دعني أعرفك بنفسي، أنا النقيب جون سايمون وهذا زميلي ريتشارد بيبر، ونحن من وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لجهاز شرطة اسكوتلاند يارد، ولدينا بضع أسئلة سنطرحها عليك ويمكنك المغادرة بعدها إن كنت متعاونًا معنا..

قلت متصنعًا مبديًا نوعًا من الحماس للتعاون: بالطبع، بالطبع فليس لدي ما أخفيه، رغم أنّ طريقتكم أزعجتني غير أنني مستعد للتعاون معكم، أرجوك تفضل..!

نظر إليّ بابتسامة صفراء وتبادل النظرات هو وزميله ثم قال: هل تعرف محمد عتيق الرحمن؟

قلت: لا، من هو؟

نظرت إليهما بانتظار الإجابة، ثم اردفت: لا أذكر هذا الاسم، ولكن لماذا؟ هل يفترض بي أن أعرفه..؟

قال: لقد شوهدت برفقته..!

قلت: ولكن من هو؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم..! وهل تلك تهمة..!

قال: بل تعرفه وكنتما تسافران معًا، لابدّ أنّك شريكه.. وخير لك أن تقول الحقيقة..!

قلت: أيّ حقيقة؟ أقسم لك إنني لا أعرف ذلك الاسم..!

ضحك بصوت مرتفع وقال: القسم هنا يا سيدي لا يفيد، ستخبرنا بالحقيقة في نهاية المطاف، الإنكار لن يفيدك أبدًا، وهناك وسائل أخرى يمكننا أن نستخدمها لإجبارك على الحديث..!

قلت: إذًا لن أتحدث من الآن فصاعدًا وأطالب بإبلاغ سفارة بلادي باحتجازي لديكم، وإلا فأطلقوا سراحي لأنني لا أملك أية معلومات عن هذا الشخص الذي تبحثون عنه..!

قال: حسنًا، حسنًا وليكن.. ستحصل على جميع حقوقك المدنية لا تقلق والآن سيتم نقلك إلى القيادة العامة لاستكمال التحقيقات..

قال ذلك بهدوء وثقة ثم حدَّق بي بصمت وهو يستند على الطاولة وقد وضع وجهه مقابلًا لوجهي لدرجة أنني اختنقت برائحة أنفاسه التي تفوح منها بقايا التبغ، ثم أشار إلى زميله الذي التفت نحوي ثم قال: نصيحتي لك، إذا كان لديك أية معلومات إضافية عليك أن تخبر بها الضابط هنا فهو يمكن أن يعتبرك شاهدًا وليس شريكًا..!

قلت له: ماذا أفعل؟ لماذا لا أحد يصدقني؟ هذا كل ما أعرفه..!

قبل أن ينهض النقيب سايمون ليغادر الغرفة، قال: دعني أخبرك شيئًا لمصلحتك.. من الأفضل لك أن تتعاون معي لأنني الوحيد القادر على مساعدتك وإخراجك من هذه الورطة، ثق بي تمامًا، هناك في القيادة سيكون بانتظارك ضباط من جهاز الاستخبارات إم آي 6 وجهاز الاستخبارات الداخلية إم آي 5 وستخرج الأمور عن السيطرة..!

نظرت إليهما بصمت، وهما يغادران الغرفة، ومئة علامة استفهام على وجهي..!

وبعد قليل جاء ضابطَيّ شرطة يرتديان زيًا نظاميًا، وضعا في يدي قيودًا بلاستيكية من تلك التي تشتد كلما قاومت أو حاولت فكهما، واقتاداني إلى الخارج لنستقل سيارة رسمية.

قبل أن أركب السيارة طلبت رؤية الضابط مرة أخرى، وخرج إلى موقف السيارات، قلت له: أرجوك يا سيدي يجب أن تصدقني، إنَّ ذلك كل ما أعرفه عن المدعو محمد عتيق الرحمن، وبإمكانكم سؤاله إن كنت شريكًا له أم لا، ولا أرى لزومًا لكل هذا، فيشهد الله أنني لم آت للإفساد في الأرض، إنني مجرد عابر سبيل وإذا أردتم فسأغادر بلادكم حالًا..!

تقدم نحوي ووضع يده على رأسي وهو يدفعني إلى داخل السيارة، وهو يقول: انتبه لرأسك، في كل الأحوال سنجد الحقيقة، ستذهب الآن إلى القيادة العامة لاستكمال التحقيق، إن القضية لا تزال مفتوحة وهي قضية كبيرة تتعلق بأرواح المئات من البشر لا تتوقع أن نطلق سراحك هنا، فهناك إجراءات لابدّ من استكمالها، كن متعاونًا مع المحققين وسنعتبرك شاهدًا وإلا سنعمل على إيجاد ما يدينك وحينها صدقني ستتمنى لو أنّك لم تولد في هذه الحياة..!

قلت: لقد أخبرتكم بكل ما أعرف، ثم أردفت وأنا أمد كلتا يدي: أرجوكم لا حاجة للقيود إذًا..!

قال وهو يغلق باب السيارة: ذلك أفضل من أجل سلامتك..!

تمتمت بيني وبين نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا إلهي ما هذه المصيبة التي وقعت فيها..!

في الطريق، قلت للضابطين الذين يقلاني: سمعتم أنني مجرد شاهد، أرجوكما فُكّا وثاقي فليس من داع لهذه القيود السخيفة.

نظر الشرطي إليّ بصمت، تجاهلني واستمر في حديثه مع زميله السائق وأنا أقبع في كرسي السيارة الخلفي..

في مكان ما من الطريق طلبت دخول بيت الراحة فلم أعد أحتمل، قلت: إنني مسافر من باريس منذ ساعات ولم أعد أستطيع التحمل وإذا لم تتوقفا سأفعلها هنا في السيارة..

تجاهلاني، لم يعيراني أيّ اهتمام، أعدت طلبي مرارًا وتكرارًا، خبط أحدهما الحاجز الفاصل بقبضة يده وهو يأمرني بالتوقف عن إزعاجهما، كررت طلبي، غضب، لكن السائق هدأه خصوصًا عندما سمعني أتأوه واستجديهما ليتوقفا، ربما أيقن أنني فعلاً بحاجة إلى دورة المياه، فطلب مني الصمود قليلاً ريثما نصل إلى أي قسم للشرطة، فأخبرته أنني لم أعد أستطيع الصمود أكثر، فعاد يطلب مني الصمود حتى نقترب من أي محطة بنزين، فترجَّل الشرطي بعصبية وسخرية، فتح لي الباب واقتادني وهو يمسك بي من رقبتي بعنف ويدفعني أمامه، عندما وقفنا أمام دورة المياه دفعني إلى الباب بقوة، رجوته ليفك وثاقي حتى أتمكن من استخدام الحمام، فضحك بلؤم قائلاً: استخدم عضوك وليس يديك..!

تركته ودخلت دورة المياه، وأنا أفكر بسرعة لإيجاد طريقة للخلاص

من هذه المصيبة..!

أعرف أنّ المسالة ليست بتلك السهولة التي قد تصورها لي مخيلتي الخصبة، غير أنني لابدّ أن أحاول وأن أغتنم أي فرصة سانحة الآن، يجب أن أتصرف الآن لأنَّ أي تأخير لن يكون في صالحي، فالأمور ستتعقد أكثر لاحقًا، وفور دخولي إلى القيادة العامة لن أتمكن من القيام بأي محاولة.

أعرف أن بقائي بيد رجال الشرطة سيطول وإلى أن تثبت براءتي ستكون مرت السنوات وأنا قابع في السجون، هذا إذا وجدت من يسأل عني أو يطالب ببراءتي..

فكر.. فكر.. فكر بسرعة.. يا إلهي..!

دورة المياه بائسة جدًا، وأهم شيء أنّ بها نافذة صغيرة، اللعنة، إنها صغيرة جدًا، لن أتمكن أبدًا من الخروج منها فلا يتسع جسمي ليخرج من فتحة بهذا الحجم..

الوقت ينفذ بسرعة ويداي مكبلتان ويجب أن أفعل شيئًا، تلفّتُ حولي، نظرت إلى السقف، ثمة فوّهة للتهوية، ربما تفي بالغرض، فيكفي أن أختبئ بها للحظات ريثما يرتبك الشرطيان عندما يفتقدانني، فعلت ذلك بسرعة ولإضافة عنصر التمويه جعلت النافذة الصغيرة مفتوحة على مصراعيها ليعتقد الشرطيين أنني خرجت منها وينطلقا بحثًا عني في الخلف وفي المنطقة المجاورة..

مر كل شيء بسرعة، وسمعت الشرطي يدق الباب بضربات متسارعة وقوية، ثم وهو ينادي عليّ، وربما عندما لم يلق جوابًا،

كسر الباب، ثم نادى على رفيقه وهو يركض إلى الخارج..
بالكاد نجحت الخطة، إنّها معجزة، اللعنة عليهم، واللعنة على بريطانيا وعلى الهندي الذي أوقعني في هذه المصيبة، لكن المسألة لم تنته بعد، فسرعان ما سيعودان عندما يكتشفان أنه ليس هناك مهرب من الجهة الخلفية، يجب أن أتصرف بسرعة..
زحفت في فوهة التهوية، المكان ضيق جدًا، اللعنة، بالكاد يمكنني الزحف، الوقت يداهمني، وصلت لطريق مسدود، اللعنة، ما هذا..!
ماذا سأفعل الآن؟ هل أبقى مختبئًا هنا؟ أم أعود أدراجي..؟
يا الله ما هذا؟ ماذا سأفعل الآن..!
دفعت النهاية المسدودة بكلتا قدمي، مرة، مرتين، مرة أخرى أكثر قوة، فوقع الحاجز الحديدي الذي يسد المخرج، نظرت في الأسفل، ثمة مكب للقمامة، رميت بنفسي فيه، شعرت بالألم ما إن ارتطم جسدي بأرضية مكب القمامة، تأوّهت بصمت، وقمت أعرج ثم خرجت متسللاً بخفة قبل أن يراني أحد، توقفت قليلًا لأستكشف المكان، ثمة سيارات متوقفة أمام المحطة، ثمة شاحنة للقمامة تهمُّ بالتحرك، تبعتها، تسللت إليها بخفة، إنّها روح النجاة بالنفس تحملني على القيام بمثل هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر.
شعرت بالندم للهروب هكذا، وثمة هاجس كان يدفعني للعودة لإثبات براءتي، فلابدّ أنّ الشرطة ستكتشف خطأها وتفرج عني مكرّمًا معزّزًا غير أنني خشيت من عواقب وتبعات ما قام به المدعو محمد عتيق الرحمن ففي زمن الحرب على الإرهاب يختفي صوت

العقل ويضيع أمثالي من الأبرياء في خضم تلك الحرب الضروس.
ووجدتني أترجّل من الشاحنة قبل أن تتحرك وأعود إلى سيارة الشرطة، وأجلس في مكاني في المقعد الخلفي بكل هدوء، أتابع شاحنة القمامة وهي تغادر المكان، نظرت إلى الخلف، رأيت الشرطيين يهرولان باتجاه سيارتهما، وما إن وصلا واكتشفا وجودي في السيارة حتى ثارت حفيظتهما، وتفوّها ببضعة شتائم، قبل أن ينطلقا بعصبية إلى القيادة العامة.

الفصل الثاني عشر

الإرهابي

في قسم مكافحة الإرهـاب في القيادة العامة لجهاز الأمـن الداخلي «أم 5» تم وضعي في غرفة باردة خالية من أي أثاث سوى تلك الطاولة المعدنية والكرسي الـذي أجلس عليه، مضت بضع ساعات ثقيلة ولم يتحدث معي أحد، شعرت بالعطش وبمرارة في الحلق وداهمني قلق الانتظار ونفسي ما بها من هواجس وشعور بالحنق والغضب..

انهمكت في استرجاع كل ما حدث معي منذ أن بدأت هذه الرحلة المشؤومة، تذكرتها وأوشكت أن أُلقي باللوم عليها لأنَّها السبب في ورطتي هذه، وتذكرت العرافة الغجرية وتذكرت الألف لعنة ولعنة التي تحدثت عنها، ووجدتني أردد اللعنة.. اللعنة، عندها دخل عليَّ ضابطَيّ أمن بلباس مدني، كان أحدهما يقهقه ساخرًا وهو يردد اللعنة.. اللعنة..!

قلت: أقسم لك يا سيدي إنّ هناك خطأ ما، إنني أسافر منفردًا وحيدًا منذ أن غادرت وطني، وبلا شك لديكم طريقة لدخول سجل تنقلاتي عبر أوروبا، إنني أسافر وحيدًا، حتمًا أنتم تبحثون عن شخص غيري..!

قال الضابط: مهلاً، مهلاً.

ثم أردف وهو يجلس على الكرسي المقابل: اسمي ديفيد ريتشاردسون وهذا زميلي مايك بانر..

بدا الضابط لطيفًا، وقال زميله بلغة عربية فصيحة: هل تتحدث

الإنجليزية أم تُفضل أن يكون لديك مترجمًا؟
قلت بصوت متحشرج: لا بأس يمكنني التحدث إليكم بطلاقة لأؤكد لكم أنّ هناك خطأً جسيمًا في هذه المسألة، لابدّ أن يكون هناك لبس من نوع ما..!
قال السيد بانر بنفس لغته الفصيحة: نصيحتي لك أن تخبر الرائد ريتشاردسون بكل شيء فهو الوحيد الذي يمكن أن يقدم لك المساعدة..
قال الرائد ريتشاردسون وقد فتح ملفًا برتقالي اللون يضعه أمامه: لقد لاحظنا تحركاتك في المدن الأوروبية خلال الفترة الماضية، لابدّ أنك ضابط اتصال لمنظمة ما، وتعد لشيء ما، أو تجند عملاءً، خصوصًا أنّه وكما ورد في هذا الملف الذي أمامي، أنك زرت عدة دول منها اليمن ثم انتقلت إلى السعودية ثم السودان وبعدها باكستان وأخيرًا في العراق، ترى ما الذي كنت تفعله في كل تلك الدول..!
وأردف وقد علا صوته: ألم يكن ذلك خط سير زعيم القاعدة الشهير؟
وقبل أن أجيب قال كأنّه لا ينتظر جوابًا: اسمع، من الأفضل لك أن تعترف، أخبرنا بكل شيء فحتمًا سنعرف الحقيقة لم يعد هناك شيء خافٍ عنّا، أعترف..!
ثم أردف وقد تغيرت نبرة صوته وكأنّه يضع أمامي استنتاجه الختامي: من الواضح أنّكما أنت والمدعو محمد عتيق الرحمن

أعضاء في تنظيم إرهابي سري وعلى درجة عالية من التواصل المعقد، ومن الواضح أيضًا أنّك قد التقيت به ضمن جدول وخطة محكمين، وربما بطريقة لا تثير الشكوك، فالتقيته في روما وسافرتما معًا إلى باريس فضلاً عن أنّ كلاكما جاء من دبي وإن كان ذلك في وقتين مختلفين وعن طريقين مختلفين فذلك نوع من التمويه الساذج المكشوف..!

شعرت بالدماء تتصاعد إلى رأسي فانفجرت في وجهه غاضبًا: إنّ كل ذلك مجرد هراء ولا يعدوا استنتاجات استخبارية غير مفيدة وليس لها أي أساس من الصحة، ثم منذ متى أصبح التجوال في المدن الأوروبية جريمة، إنني مجرد صحفي ميداني متنقل أجوب البلدان أبحث عن قصة أكتبها للصحيفة التي أراسلها وبإمكانكم التأكد من ذلك، وربما تجد في أوراقك ما يشير إلى ذلك فلطالما زرت بلادكم بصفتي الصحفية وأجريت حوارات مع مسؤولين كبار في حكومتكم..!

شعرت بضيق في التنفس لفرط الانفعال، فتوقفت قليلاً لألتقط أنفاسي محاولاً عصر مخي لمعرفة من ذلك الذي يتحدثان عنه، ثم قلت بعصبية: أقسم إنني لم أرَ في حياتي هذا الذي تتحدثون عنه، لقد أخبرت زملاءكم بذلك، لماذا لا تصدقون ما أقول، إنني لا أعرف أي أحد بهذا الاسم..!

قال وعلى وجهه نظرة ساخرة: بل تعرفه ولدينا ما يثبت سفركما سوياً من روما إلى باريس.

قلت: أُكرر للمرة الألف إنني لا أعرفه، ثم ماذا فعل هذا المدعو محمد عتيق، ومن هو؟ ولماذا تربطني به رغم تأكيدي لك بأنني لا أعرف أحدًا بهذا الاسم ولم ألتقيه أو أراه يومًا في حياتي..؟

قال بهدوء: ستعرف كل شيء يا سيدي أعدك بذلك، لكن عليك أن تخبرني بما أريد الآن..!

قلت بحزم: قلت لك لا أعرف شيئًا عن هذا الرجل، أمّا سبب زياراتي لتلك البلدان، فإنّ الأمر سخيف لدرجة الضحك، أعيد وأكرر ما أخبرتك سابقًا، لقد كانت كلها زيارات عمل، في باكستان كنت هناك لتغطية أخبار الفيضانات والكوارث، وفي السودان كنت هناك لتغطية المجاعة والفقر، أما في اليمن فقد ذهبت لتغطية الحروب العبثية هناك، ونحن كمسلمين وكما تعرف نزور السعودية من أجل الحج إلى الأراضي المقدسة هناك، أما العراق، تصور، لقد كنت مقيمًا في معسكر القوات البريطانية في البصرة أثناء تأديتي لعملي هناك في تغطية الحرب، وربما بالإمكان التأكد من صحة ذلك..!

قال بنبرة تهكمية: حسنًا، حسنًا..

وأخرج صورة من الملف الذي يضعه أمامه على الطاولة، دفعها نحوي على الطاولة وهو يقول: من هذا إذًا؟ ألست أنت في هذه الصورة؟

تناولت الصورة متشككًا ونظرت إليها بتمعن، إنّها فعلاً صورتي، لكنني لا أعرف الرجل الآخر.. هل هو محمد عتيق الرحمن؟

قال: كفاك تمثيلاً وادعاءً بالبراءة، نعم إنّه هو وتلك صورتك وأنت برفقته وقد تم التقاطها بكاميرا أمنية مثبتة في مقصف القطار المتجه من روما إلى باريس، هل تذكرت الآن؟

قلت: نعم، نعم تذكرته، كان ذلك منذ زمن طويل..!

وبعد برهة صمت أردفت بذهول محاولاً استرجاع الذاكرة: قال إنّه مجرد عابر سبيل لا أعرفه حقًا، لقد التقيته في نفس المقصورة التي كنت أسافر فيها، بدا لي شابًا هنديًا لطيفًا، إنّه يبحث عن مستقبل أفضل كما قال، ويسافر من أجل الالتحاق بعمه ليطلب الزواج من ابنته المقيمة في بريطانيا، وذهبت معه إلى المقصف بناءً على طلبه لأنّه لا يعرف الفرنسية أو الإيطالية، لكن كان ذلك لقاءنا الوحيد وافترقنا في محطة باريس ولم أره أو أسمع عنه منذ ذلك الحين إلى الآن..

قال: وهل تتحدث أنت الفرنسية أو الإيطالية؟

قلت: شيء يسير من كلاهما، فقط لتسيير أموري، لكن هناك في المقصف تحدثت بالإنجليزية وذلك الشاب لا يعرف كثيرًا من الإنجليزية كما فهمت، لكن لمَ كل هذا؟ هل لهذا علاقة بعدم حصوله على تأشيرة دخول للمملكة المتحدة..؟ في كل الأحوال ليس لي علاقة بالأمر كما قلت فهو مجرد شخص سافرنا معًا مصادفة في نفس المقصورة، وكان هناك غيري أيضًا، فقد كان هناك شاب فرنسي هو وفتاته، وعجوز إيطالية، ورجل بوجه مشوه..!

عادت الابتسامة الصفراء إلى وجهه مرة أخرى وقال بحزم: إنّ

شريكك قام بعمل إرهابي، لقد تم القبض عليه وهو يهم بتفجير محطة لقطار الأنفاق ولا أشك لحظة أنّك هنا لإتمام ما فشل في القيام به.

لقد كانت الاستخبارات تتبعك منذ أن قام شريكك بفعلته الإجرامية، كانوا يجمعون عن تنظيمك مزيدًا من المعلومات وهو للأسف ما لم نتمكن من توفيره، فلابدّ أن أعترف أنكم على درجة عالية من الحرص والتعقيد، بل من المؤكد أنّ لديكم شبكة اتصالات قوية ومتشعبة، وربما لديكم جواسيس في كل مكان، لقد راقبنا محاولاتك لجمع المعلومات عن القاعدة العسكرية الأمريكية في ألمانيا، كانت تلك جرأة منك أن تتوغل لتلك الدرجة، لقد اندسّ عملاؤنا في طريقك وتعاملوا معك بكل الوسائل ومع ذلك لم يتمكن أي أحد منهم من الحصول على معلومات، أتذكر تلك الفتيات اللاتي كنت تتردد عليهن في باريس..؟

تلعثمت وارتبكت قليلاً ثم قلت: أولاً هو ليس شريكًا لي وأرجو أن تتوقف عن استخدام هذا التصنيف، كما أرجو أن تتوقف عن اتهامي بالضلوع في أعمال إرهابية، ثم ما بال تلك الفتيات وما علاقتهن بالقصة..!

قال: لقد حاولن بشتّى الوسائل أن يجمعن معلومات مفيدة عنك لكنهن فشلن..!

اضطربت وارتبكت وقد شعرت بنوع من الحرج حاولت تغطيته بابتسامة باردة وأنا أقول ساخرًا: هل تعني أنّهن كن عميلات لكم..؟

لم يجب مكتفيًا بابتسامة صفراء، قلت بلهجة تهكمية: إنّ مهنتكم قذرة، وماذا عن الرجل الأسباني الذي كان سببًا في معرفتي لهن..

ضحك بدون تعليق، شعرت بالغرابة، ووجدت ذهني يستعيد كل الأشخاص الذين قابلتهم في تنقلاتي..!

قلت: هل يعني ذلك أنّ كل من قابلته هناك كان عميلاً، ابتسمت، بما في ذلك بروفيسور التاريخ أيضًا..!

ثم أردفت ضاحكًا: مهلاً.. مهلاً.. إنّ هذا مضحك فعلاً، القاعدة العسكرية في ألمانيا..! اللعنة.. يا إلهي.. لقد كنت أبحث عن عمل هناك، يبدو أنكم تفسرون الأمور بشكل مبالغ فيه..!

وأردفت متهكمًا: هل تعني أنّ ذلك الشاب الذي دخنت معه الحشيش في أمستردام عميل أيضًا، اللعنة، لابّد أنّكم أخذتم المسألة بجد وجهد كبيرين..

قاطعني قائلاً وقد ارتسمت على ملامحه الجدية: نعم، إنّنا نأخذ عملنا بجدية ذلك صحيح، وهل كنتم تعتقدون أنّنا سنترك لكم العبث بأوطاننا هكذا بدون أن نفعل شيئًا..!

سرحت أفكر في كل الذين قابلتهم وقلت كمن يحدث نفسه: آه الآن فهمت لماذا كان يصر ذلك الشاب البولندي اليهودي على التمسك بكلمة «إسرائيل» بدلاً من فلسطين رغم أنّنا كنا نتشارك طاولة واحدة في نادي تعري في المنطقة الحمراء في أمستردام، كان عميلاً هو أيضًا، هل يعقل أن يكون ذلك الأكاديمي الليبي في بروكسل عميلًا أيضًا..! والفتاتين الخليجيتين في جنيف يحتمل

أنهما كذلك أيضًا، يا إلهي، لا يمكنني تصور كل ذلك، وانستازيا أيضًا، ولكن لماذا تركتني؟

قلت الجملة الأخيرة وتلوتها بضحكة ساخرة..!

نظرت إلى الضابط، كانت لا تزال على وجهه ابتسامة صفراء وهو ينتظرني أن أعترف بعلاقتي بالتنظيم الإرهابي المزعوم بعد المعلومات التي وضعها أمامي، وعندما لم أرد عليه، أعاد طرح سؤاله بطريقة استفزازية قائلاً: من الواضح أنك لا تريد التعاون معنا، إذا كانت كل تلك زيارات عمل، فما هو سبب تنقلك في المدن الأوروبية، إنّها مجرد شعرة دقيقة تفصل بين العمل الصحفي والجاسوسية أليس كذلك..!

شعرت بأنّه نجح في استفزازي، فقلت بصوت مرتفع: كيف وجدت أنت نفسك في خضم هذه اللعبة القذرة، إذا كان هناك تشبيه بين الصحافة والجاسوسية فالفرق الذي يسطع كشمس الصيف أنّكم تعملون في الظلام والخفاء، ونحن معشر الصحفيين نعمل في النور والوضوح، نحن نبحث عن الحقيقة وعن الوقائع وأنتم تعيشون في خضم مؤامرات ودسائس لخدمة لعبة أكبر أو مؤامرة أكبر، نحن لا نخشى شيئًا لأنّنا لا نخفي شيئًا، لكنكم تخفون كل شيء، تخفون حتى هوياتكم الحقيقية، لذلك تخشون أي شيء مهما كان بسيطًا، وتضعون لكل شيء حسابه، ولذلك تكون تحركاتكم محسوبة بخطط وسيناريوهات، بينما نحن نستمتع بالحياة كأشخاص عاديين بل وكنخب في كثير من الأحيان..

ضحك بسخرية ممتعضًا.

فأردفت: أنت تؤمن بصحة كلامي، وربما تكون الآن من الذين يشعرون بالندم، لكنك لا تجد وسيلة للخروج، فلا زال الوقت مبكرًا أمامك على التقاعد وليس ثمة مخرج لمن يدخل هذه اللعبة إلا إلى التابوت..!

حدق بي واجمًا قبل أن ينفجر ضاحكًا وهو يصفق بيديه وقال متهكمًا: برافو.. برافو،أنت تجيد التحليل النفسي أيضًا، رائع، رائع..

ثم أردف وهو يقلب الملف الذي أمامه: نحن نعرف أنك أحد القيادات لكن لأصدقك القول لا زلنا لا نعرف أي مستوى من القيادة، ولا نعرف الكثير عنك فما رأيك أن تترك عنك هذا الهراء وتخبرنا بكل شيء..!

قال ذلك بعصبية واضحة وهو يخبط بالملف على الطاولة أمامي، لم أعر عصبيته أي اهتمام، وثمة بقايا ابتسامة ساخرة على وجهي، قلت: انتهى الكلام، أرجو إعلام سفارة بلادي بوجودي هنا..

نظر إلى زميله غاضبًا، وقال ساخرًا: إنه يطالب بإبلاغ سفارة بلاده..!

نظر إليَّ الضابط مايك بانر وقال ساخرًا بلغة عربية: حسنًا أنا من سفارة بلادك ماذا يمكن أن أقدم لك..؟

قلت متحديًا: هذا غير مقبول، هذا خرق للأعراف الدبلوماسية والدولية وحقوق الإنسان، هل أنتم أغبياء..!

حدقا بي بحنق وشعرت أنهما سيتهجمان عليّ، غير أنّهما تبادلا النظرات ثم انصرفا معًا..

مرت بضع ساعات أخرى شعرت بأنّها الدهر كله، هم يحتجزونني في هذه الغرفة الباردة المملة بدون وجه حق، ولو كان لديهم دليل واحد ربما كان الوضع مختلفًا، السكون يخيّم على المكان، وشعرت بالندم لعدم استغلال فرصة الهروب..!

اللعنة على الأغبياء، كم أكره هذه البلاد، يا إلهي ماذا سأفعل الآن..؟

نظرت إلى فتحة التهوية في أعلى الحائط المقابل، يستحيل الخروج منها بالتأكيد، ثم إنّ هذه الغرفة لابدّ أن تكون مجهزة لمنع من يتم استجوابهم حتى من التفكير في الهرب.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا هنا في هذه الغرفة، ربما نسيني هؤلاء الأوغاد، أو لعلهم يمارسون معي ألعابهم القذرة، لم يتحدث معي أي أحد، حتى شعرت بأنه حان الوقت لأفعل شيئًا، فطرقت الباب مرارًا مطالبًا بحقي في حضور محام والاتصال بسفارة بلادي.

لم يرد عليّ أي أحد، فطرقت الجدار الزجاجي وليس من مجيب، فعُدت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وفجأة انطفأت المصابيح وأظلم المكان، يبدو أنّ الكهرباء انقطعت، وأصدر باب الغرفة صوتًا كأنّه انفتح، اقتربت نحو الباب ودفعته فإذا به مفتوح، أخرجت رأسي من الباب، وتلفت يمينًا ويسارًا، ولم يكن هناك من أحد،

ودار بخلدي مباشرة أنّهم يراقبونني الآن، وربما ينتظرون مني الهروب لمراقبة تحركاتي واتصالاتي لمعرفة بقية أفراد المجموعة الإرهابية المزعومة التي ألصقوا بي تهمة الانتماء إليها، ارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة وأنا أتسلل إلى باب سلم الطوارئ، نزلت بهدوء على الرغم من الشعور بالتوتر والاضطراب، قدماي ترتجفان ويداي تتعرقان برغم برودة الطقس. خرجت من المبنى بحذر، دقات قلبي تتسارع ويكاد قلبي أن يقفز من مكانه، وقبل أن أطلق العنان لقدماي لتعانقا الريح نظرت خلفي، كان هناك أمام المدخل الرئيسي للمبنى تجمع حاشد لأفراد الأمن والشرطة وسيارات الدفاع المدني والمارة، يبدو أن شيئًا ما قد حدث حينما كنت محتجزًا في تلك الغرفة، ابتسمت وأنا أتسلل متخفّيًا إلى أن تواريت خلف مبنى مجاور.

نظرت حولي، كان المكان لا يزال مزدحمًا بالمارة، فكرت بسرعة، لابدّ أن أجد مخرجًا في الحال، وبسرعة خاطفة، دلفت إلى زقاق جانبي ضيق واختفيت في زاوية معتمة، غير أنني لم أشعر بالأمان، وأكملت مسيري متخفيًا، عليّ مغادرة هذه المدينة حالاً، فحتمًا سيتم ربطي بطريقة أو بأخرى بما حدث في مركز الشرطة، سيعتقدون أن ما حدث قام به من يُفترض أنّهم شركائي الإرهابيين من أجل تحرير من يعتقد هؤلاء الإنجليز الأوغاد أنّه أحد قياداتهم، اللعنة عليهم جميعًا، وعلى تنظيم القاعدة وعلى الإرهاب وعلى محمد عتيق الرحمن، بل وعلى ذلك القطار الذي التقيت فيه ذلك الهندي

الذي لم أعرفه قط.

ذلك درس آخر لتتوقف عن الشهامة، وأن تقحم نفسك فيما لا يعنيك، فما الذي يدفعك إلى تولّي الترجمة لرجل غريب وأنت لا تعرفه، بل إنّك لا تعرف أصلاً الفرنسية ولا الإيطالية، إنّ ذلك عين الحماقة، هل أنت سعيد الآن بعد أن صرت طريدًا لتهمة خطيرة بهذا الشكل..!

الآن يجب أن أختفي من هذه المدينة قبل أن يعثروا عليّ، لابدّ أن أبحث عن وسيلة تخرجني من هذه المدينة بأسرع وقت ممكن..!

المسألة ليست هيّنة، الحمقى، لقد صادروا كل ما أملك، جواز سفري، بطاقاتي، بل وجميع أغراضي، اللعنة عليهم..

سرت متخفيًا في الأزقة والشوارع الخلفية، دخلت محلاً متواضعًا وسرقت سترة زرقاء ارتديتها فوق ملابسي، ثم سرقت قبعة من أحدهم أيضًا، وأنا أتخفى في الظلال بعيدًا عن عيون المارة أو الشرطة، سرت طويلاً من غير هدى أبحث عن وسيلة تخرجني من هذه المدينة، من هذه الورطة، من هذه القارة، اللعنة عليهم جميعًا..!

فكرت بالاتصال بأي أحد لطلب المساعدة، غير أنني تراجعت فقد خشيت أن يتم تعقب أي مكالمة أجريها الآن في ظل تحفز أمني بلا شك..!

كان يجب أن أبتعد عن الشوارع وأبقى في الظل إلى أن يحل الظلام وأجد طريقة تبعدني عن هذه المدينة، تذكرت صديقًا عربيًا يعمل

في هيئة الإذاعة البريطانية، فكرت في الاتصال به لطلب المساعدة غير أنني خشيت أن يتورط هو أيضًا، فصرفت النظر عن الفكرة، ثم تذكرت شابًا إنجليزيًا يعمل في الخارجية البريطانية، حاولت تذكر اسمه فلعله يستطيع مساعدتي، على الأقل لإخراجي من هنا، غير أنني لم أتمكن من تذكر اسمه، فشعرت باليأس والإرهاق، وكدت أصرخ، أستسلم للبكاء، أسلم نفسي..!

حل المساء، فشعرت بالبرد، لا يمكنني قضاء الليلة في العراء، فذلك خطير في ظل هذا التحفز الأمني وهذا الطقس السيء، بحثت عن مكان أبيت فيه، ربما في محطة قطار مهجورة، أو في بئر سلم في بناية لا تغلق أبوابها.

في تلك الليلة عشت البؤس، فلم يكن لديّ نقود ولا أي شيء، شعرت بأنني طريدة يطاردها نصف سكان المدينة، داهمتني المخاوف والهواجس، حتى راودتني فكرة تسليم نفسي فلابدّ أن تظهر الحقيقة، لابدّ أنهم سيكتشفون جسامة خطأهم وسيتبينون أنني بريء، وأنني مجرد رحّال عابر سبيل متسكع تصادف وجوده في المكان الخطأ برفقة الشخص الخطأ، لكنني شعرت بالخوف من أن ينتهي بي الأمر في معتقل غوانتنامو، ففي زمن الحرب على الإرهاب قلّما تظهر الحقيقة، لأنه لا أحد يبحث عنها، فيكفي أن تكون مسلمًا وعربيًا لتلبسك أي تهمة جاهزة، بل إن الجميع سيتخلون عنك ولن تجد من يسأل عنك لأن الجميع في خندق واحد في معارك الحرب على الإرهاب، لا أحد يرغب في الدفاع عن

المشتبهين بالإرهاب خشية الزّج بهم في نفس التهمة أو اعتبارهم شركاء أو داعمين للإرهاب، ولذلك قررت خوض معاركي الخاصة، ويجب أولًا أن أحافظ على حريتي قبل أن تسلب، فلا يمكن للأسير خوض المعارك، لذلك قررت مواصلة الهروب، فليراقبوا كما يشاؤون فليس لديّ أعوان أو شركاء، اللعنة عليهم جميعًا..

وجدت نفسي في منطقة «كوينز»، فتوقفت، جلست على مقعد خشبي تحت شجرة ضخمة، وسمعت شابين يتحدثان بالعربية، توجهت نحوهما، عرفت أنهما مهاجرين من العراق، بعد ما حل ببلادهما من دمار، وعرفت أنّهما يقومان بأعمال الصيانة لذلك المنزل الكبير الذي يقفان أمامه من أجل تحويله إلى نزل برسم الإيجار.

وبعد أن تحدثت لهما عن مغامراتي في العراق أصبحنا أصدقاء، وحدثتهما عن حالة البؤس التي أعيشها حاليًا، وبحثي عن عمل ومكان أبيت فيه، دعواني إلى المبيت لديهما، بل وعرضا عليّ مساعدتهما لقاء أجر ريثما يستقر بي الحال..

داهمني الأرق تلك الليلة الطويلة، أفز متحفزًا نحو النافذة كلما سمعت صفارات سيارات الشرطة، وفي وقت ما من الليل تذكرت نزلاً نائياً في مكان ما من مقاطعة ويلز يديره رجل وزوجته كنت قد أقمت لديهما لفترة في رحلات سابقة إلى هذه البلاد، واكتشفت حينها أنّهما يمارسان شتى أنواع الأعمال من بينها أعمال غير القانونية، وهكذا قررت أن أذهب إليهما في الصباح الباكر فهما فرصتي الوحيدة لمغادرة هذه المدينة، بقائي هنا في لندن لمدة

أطول سيزيد الأمور تعقيدًا، وربما سيتم تعميم صوري على كل الطرقات المؤدية إلى مداخل ومخارج المدينة، وسأعلق هنا ولن يسأل عني أحد وسأضيع في غياهب السجون إلى الأبد..!

وفي الصباح الباكر، تسللت خارجًا لكي لا أزعج الآخرين، ووجدت طريقي متخفيًا في هيئة سائح لاتيني لأخرج من هذه المدينة الظالم أهلها..

الفصل الثالث عشر

التنين وبحر الظلمات

توقفت الحافلة الصغيرة في استراحة على بعد ساعة جنوب غرب لندن لتناول الغداء في مقهى جانبي يعتبر في منطقة نائية مقطوعة، غير أنّه يطل على ضفاف جدول مائي تحفّه الحقول والمراعي الخضراء الممتدة، يمر بموازاة الطريق المؤدي إلى العاصمة الويليزية كارديف..

ثمة جسر خشبي يمر فوق الجدول يسمح بمشاهدة تدفق تيار المياه في الأسفل مشكلاً منظرًا طبيعيًا خلابًا، تمنيت لو أن بقاءنا في هذا المكان يطول، لكن بعد أقل من نصف ساعة كان سائق الحافلة ينادي على بقية الركاب للصعود، فأمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه في أقل من ساعتين لنصل إلى وجهتنا في كارديف..

اكتظّت الحافلة مرة أخرى برُكّابِها الذين وجدت نفسي أشاركهم هذه الرحلة الارتجالية، ثلاثة رجال وثلاث نساء وأنا عذول وحيد بينهم، لا يربطني بهم أي علاقة سوى مشاركتهم هذه الحافلة وهذه الرحلة التي تطفلت عليها مُتنكرًا في شخصية سائح وعابر سبيل..

فيما كانت الحافلة تنهب الطريق الزراعي باتّجاه مقاطعة ويلز كانت الخراف تشكل نقاطًا بيضاء فوق سجادة المراعي الخضراء راسمة صورة طبيعية ساحرة، هذه المقاطعة التي تتخذ من التنين شعارًا لها تستند على إرثها الثري وطبيعتها الرائعة المتنوعة لتسحر زوارها لدرجة أن تسلبهم الألباب بمناظرها الخلابة التي تجمع بين السهول والجبال والأنهار والبحيرات والسواحل..

عبرنا من خلال قرى ومنازل مبنية من الصخور والحجارة فشعرت بأنّ السحر لا يزال موجودًا في هذه الأنحاء، خصوصًا ما ارتبط منه بالأساطير، فالتنين حيوان خرافي ارتبطت به هذه المقاطعة في تراثها وحكاياتها، وارتبط بالتالي بالسحر والشعوذة، وهو ما كان وقودا

لحديثنا طيلة الليل عندما وصلنا إلى النزل القديم الذي أقصده في قرية نائية وسط هذه المناطق الزراعية، وفرح صاحب النزل عندما رآني، خصوصًا أنّ برفقتي عدد من الزبائن، كنت قد زرت هذا النزل قبل عدة سنوات وكتبت عنه، وهو ما كان سببًا لعلاقة صداقة مع مالكه امتدت لسنوات، فبقي بيننا تواصل في المناسبات والأعياد..

الواقع أنّ لذلك النزل تاريخ يجعله مكانًا مثاليًا لمثل تلك القصص والخرافات المرتبطة بالسحر والشعوذة، لقد كان في يوم من الأيام دار عبادة لطائفة البروتستانت، وقد نكل بهم في عهد من العهود، فقتل من قتل، وهرب من هرب عبر أنفاق وسراديب سرية في الدار، وقد أصرَّ مالكي الدار الجدد على استخدام أثاث ومسميات تعود لثقافات مختلفة من العالم من أجل إضفاء لمسة خاصة وتجربة مختلفة فقد ليستقبل عابري السبيل وبعض السياح وليعكس طابعًا مختلفًا تمامًا عن البيئة المحلية، فضلاً عن استخدام الإضاءة الخافتة في ممرات النزل وغرفه وحديقته التي تعود إلى القرن السادس عشر لتضفي على المكان ذلك الغموض الذي يروج له

المالك وهو مهاجر هندي وزوجته الويلزية على اعتباره تجربة لن تنسى، المالك وزوجته يشكلان فعلاً فريقًا مثاليًا لقصص الأشباح والجن والعفاريت فأشكالهما توحي بأن لهما علاقة بالأمر، وأظن أنّهما نجحا مع بقية المسافرين فقد جافاهم النوم قلقًا وربما خوفًا، أما أنا فقد نمت بعمق تلك الليلة، فقد كنت منهكًا بسبب الأحداث المتوالية خلال الليالي الماضية...

وفي نهاية الأُمسية أخبرت المالك بأنني في ورطة، وأنني بحاجة ماسة لمساعدته، وطلبت منه أن يدبر لي طريقة لمغادرة هذه البلاد بأي شكل من الأشكال فلم يعد لديّ أية أوراق ثبوتية ولا جواز سفر، وليس لديّ مال لأدفع له، ووعدته أن أكون مدينًا له إلى الأبد، ضحك وقال: لا عليك فلكل مشكلة حل، اذهب إلى فراشك واطمئن سأستدبر الأمر..!

في الصباح الباكر قابلت مالك النزل في غرفة الطعام، ناولني ظرفًا مغلقًا، وطلب مني ألا أفتحه إلا بعد مغادرة النزل، شكرته بحرارة وامتنان، وودعته وخرجت أنتظر بقية الرفاق لنكمل الرحلة إلى كارديف، تلك المدينة التي تحمل سمات القرية..

في الطريق، أصر رفقاء السفر على تناول الطعام في مقهى شعبي يقع في قرية مبانيها حجرية متواضعة، يقدمون فيه لحم الضأن متبلاً بالأعشاب بطريقة تقليدية شهية، أغرتني باكتشاف أعماق ثقافة شعب «الولش» كما يتفاخرون ويسمون أنفسهم، وذلك قبل أن نتوقف قريبًا من قلعة كارديف الشهيرة، التي تتخذ موقعًا قريبًا من

الخليج الرائع، الذي يتوغل في اليابسة مشكلاً منظرًا بديعًا يغريك بالتوقف قليلاً لتأمله وربما السباحة في الخيال الذي تضفيه عليك تفاصيل المكان..!

تلفّت حولي وأنا أدخل نحو القلعة التي أغرتني بالاستكشاف، فقد تملّكها أمير عربي في عصر من العصور البائدة، وترك بصماته على تفاصيلها الداخلية، وعلى النقوش الإسلامية في جدرانها التي تعود إلى القرون الوسطى، حاملة سمات مختلفة من عدة قرون لاحقة، لتشكل شاهدًا على تمازج عبقري لثقافات وحضارات مختلفة تعكس العولمة في صورتها المبدئية منذ عهد بعيد.

تركت رفقاء السفر، فقد وصلنا إلى مفترق الطرق، ولم يعد لي حاجة إلى رفقتهم، فطريقهم مختلف عن طريقي، واهتماماتهم مختلفة أيضًا..!

توقفت قليلاً لأستعيد ما مررت به خلال اليومين الماضيين، شعرت بالتيه والضياع، وفي تلك اللحظة تذكرت وصية والدتي يومًا عندما قالت: «يا غريب كن أديب» يومها رد عليها والدي قائلا: «بل، يا غريب كن ذيب»..

فتحت الظرف المغلق، فوجدت جواز سفر أسباني عليه صورتي، وتذكرة سفر بالباخرة، وبضعة جنيهات، جعلتني أشعر بالامتنان..

ها أنت تهيم على وجهك في شوارع المدينة، وتتوقف لتتناول الطعام في المقاهي المنتشرة على ضفة البحر، قبل التوجه إلى الميناء بحثًا عن وسيلة تنقلك إلى مكان آخر، لتهرب، لتخرج من هذه الجزيرة

المحدودة التي يحاصرها الماء، ثم عليك مواصلة الهروب، إلى أن تصل إلى بر الأمان لتنجو بنفسك ممّا قد يخبئه لك القدر..!

أمامك سفر طويل، وبحث عن مرافئ بعيدة ومدن عجيبة وعن مغامرات تعيد لك ذات تائهة هائمة في فضاء مفتوح لا تحده حدود..!

تصل إلى الميناء، لكن لابدّ من الانتظار طويلاً حتى موعد الباخرة التي ستقلك إلى مكان جديد، ربما لتجوب بك العالم، وتختصر عليك الزمان والمشقة، أو ربما تصل بك إلى أجزاء أخرى من اليابسة، تعيدك إلى القارة العجوز، إلى البرتغال أو إسبانيا التي تستعيد فيها ذكرى أمجاد العرب الغابرة في الأندلس وطليطلة وقرطبة، وربما تعبر بك المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كان يسميه العرب في عصورهم الزاهرة..!

غير أنّه على ما يبدو لابدّ من قضاء ليلة أخرى في هذه المدينة، فقد طال انتظار الباخرة التي لن تقلع هذه الليلة، تركت الميناء بحثًا عن نزل قريب، وقبل أن أغادر وقع بصري على علم ويلز الذي يحمل شعار التنين الأحمر مرفرفًا فوق مبنى الميناء فتطلعت إلى السماء كأنّي افتش عن تنين في الأفق فلابدّ أنّ هناك أصل لأسطورة التنين..!

ذرعت الواجهة المائية الحديثة المسماة برصيف حورية البحر جيئةً وذهابًا، فليس أمامي مشاريع لهذه الليلة الإضافية التي أقضيها في كارديف، التصاميم المعمارية المدهشة والفن الحديث والمتاجر الراقية ومطاعم الدرجة الأولى والكثير من النوادي والحانات التي

تثير الفضول وقد ولّى زمن اكتشافها مبكرًا..!

في الجهة المقابلة تقف المواقع التاريخية القديمة المثيرة بما فيها قلعة كارديف في منظر يجعلك تشعر بأنك تقف بين عصرين مختلفين تمر عبرهما السنين بمحاذاتك..!

الأرق يقض ليلتك لأنّ أمامك سفر غامض طويل، فتترك فراشك في نزل البحارة البائس وتعود إلى شوارع المدينة في انتظار أول خيوط الفجر لتذهب إلى الميناء مبكرًا، تصادف متشردًا مخمورًا جافاه النوم هو أيضًا، تدردش معه، فلا تفهم منه شيئًا لأنه يتحدث «السلتية» وهي لغة «الولش»، تصل إلى المرفأ وتنتظر حتى يفيق بحارة الباخرة ليشرعوا أبوابها لاستقبال المسافرين، تركب الباخرة دون أن تعرف وجهتها لأنك هارب من الحاضر إلى المجهول، لأنك مطارد، تلوح في مخيلتك أشباح الماضي، وصورة الحبيبة التي ضيعتها، تبحث عنها بين المسافرين عبثًا، أو بين المودعين، لكنّك توقن أنك لن تعثر عليها إلى الأبد..!

تتلفت وراءك بشكل يثير الشكوك، لكنّك تمسك بزمام نفسك ورباطة جأشك فتسير بلا مبالاة كأي سائح من أصل لاتيني مستغلاً تنكرك ومظهرك الذي يوحي بذلك وبضعة كلمات قليلة من لهجات إسبانية، متوشحًا بحالة من الغموض التي تخفي ما يدور في نفسك من هواجس ومخاوف لا أحد يصنعها غيرك، فلا أحد يكترث أصلاً من تكون ولا إلى أين تتجه..!

تصل إلى موقعك في بطن الباخرة في الدرجة الرابعة التي ليس

بعدها درجات أقل، تضع حقيبتك على السرير الممدد في قاعة ركاب خاوية شاسعة، تذهب إلى سطح المركب تترقب الإبحار، وتبحث عن وجه تعرفه بين المودعين رغم أنك اعتدت أن لا يلوح لك أحد..!

الوقت لا يزال مبكرًا للإبحار، ولا يزال المسافرين يحمّلون بضائعهم وأغراضهم، لكنّك تنتظر لأنه ليس لديك شيء تفعله سوى الانتظار..

طيور النورس وهي تغطس لتقبض على شيء من الطعام تضفي بانوراما على مشهد المرفأ، السياح المسافرين وقصصهم وحكاياتهم التي تتخيلها وتبنيها كالعادة، القوارب واليخوت التي تلوح من بعيد في أفق مدخل المرفأ وهي تأخذ طريقها إلى البحر المفتوح، كل ذلك يجعلك تشعر بأنك تعيش في لوحة زيتية معلقة على مدخل إحدى الحانات الرخيصة..

تتهادى الباخرة متثاقلة فوق مياه خليج كارديف وهي تدلف إلى بحر سيلتك غربًا، مخرج الخليج يبعث تيارات هواء محملة ببرودة بحر الشمال، وأنا أقف ها هنا في مؤخرة السفينة متطلعًا نحو الأفق البعيد، هدير المحركات ورائحة الوقود الممزوجة برائحة البحر، مشهد نوارس البحر وهي تحلق حول منارة الميناء القديمة كأنّها تعيد رسم لوحة تعود إلى القرن التاسع عشر، حركة الملاحة التي لا تزال بطيئة في هذا المرفأ لأن الوقت لا يزال مبكرًا لعودة الصيادين بقواربهم المحملة بخيرات البحر الوفيرة..

في عرض البحر، اكتشفت أنّ وجهة الباخرة مختلفة عمّا وضعت في بالي، فهي لن تذهب إلى إسبانيا ولا إلى البرتغال، إنّها تتجه إلى العالم الجديد، إلى نيويورك تلك المدينة العامرة الصاخبة الساحرة الغامضة الموحشة التي تتحقق فيها كل الأحلام، وكأنّها عفريت مصباح علاء الدين..!

ترى هل ستتحقق فيها أحلامك فتصحوا على واقع جديد، وأنت الهارب أصلاً من الواقع، ترى أتريد فعلاً أن تصحو من عالم الأحلام الذي تعيش فيه..!

ألم يكن هروبك من مدينة إلى أخرى جزء من حياتك المنذورة دائمًا للمجهول، حتى صرت هائمًا بلا هدف وليس لديك وطن أو تاريخ أو عنوان، لأنّك تعيش حالة هذيان محموم، مشحون بحب ضائع، وقلب مفطور، وذات تائهة في بحر الشجون، وروح معلّقة بأسفار سرمدية أبدية..!

أنت فعلاً مجنون، تذهب بقدميك إلى الشيطان الأكبر، إلى قائد الجبهة العالمية للحرب على الإرهاب، وأنت هارب من تهم تتعلق بالإرهاب، أي جنون ذاك وأي مصير مجهول سوف تؤول إليه، وأنت تسلك الطريق إلى جوانتنامو..!

ولكن ماذا يمكنك فعله الآن، وأنت على متن هذه الباخرة التي غادرت الميناء فعلاً!

تريد مغادرة أرض المملكة المتحدة بأسرع ما يمكن وبأيّ شكل دون لفت الأنظار، ألا تقرأ، ألا تسأل، ما الذي أوقعت نفسك فيه مرة

أخرى، ماذا ستفعل الآن..!

تبًا للأحلام، فالواقع مختلف تمامًا، وعليك النجاة بنفسك الآن أكثر من أي وقت مضى، هل تعتقد أنّ حبك لنيويورك سيشفع لك! شعرتُ بالحيرة والاستلام للمصير المجهول، فلا شيء يمكن فعله الآن على أية حال، والأفضل التصرف بشكل طبيعي لعدم إثارة أية شكوك، اندمج وسط هؤلاء السياح، تصرف كأنك واحد منهم، فذلك أقصى ما يمكن فعله الآن..!

ها أنت تواجهه مخاوفك وهواجسك كالعادة بتهكم وابتسامة ساخرة، أنت في الطريق إلى موقع غزوة منهاتن، أيٌّ سخرية تلك وأي مصيبة تنتظرك..!

تقنع نفسك بعدة احتمالات تضعها في رأسك، فمن سيخطر بباله أنّ عاقلاً سيدخل بنفسه الى وكر الذئاب، من يعتقد أنَّ هاربًا مثلك سيلجأ إلى أميركا..!

ولكن لم لا، أليست أميركا هي بلاد الحرية والديموقراطية؟ ألم تكن كذلك منذ أكثر من مائتي عام، ملجأً لجميع الهاربين من الظلم والقهر والاضطهاد في القارة العجوز، فلماذا لا أكون واحدًا من أولئك المظلومين الهاربين إلى العالم الجديد، إلى بلاد الحرية والمساواة..!

ثم إنّك ذاهب إلى نيويورك، تلك المدينة التي تحتويك لتألفها سريعًا، وتدخل ضمن نسيجها وإيقاعها، فتشعر بأنّك جزء منها، وجزء من تمثالها الشهير الذي يمثّل سيدة الحرية، وهي تقف

مستقبلة الزوار والمهاجرين والهاربين على جزيرة «ستاتن»، لتأخذ شقاءنا وهمومنا، لتمنحنا الحرية والانعتاق من الهواجس والأوجاع ومخاوف مواجهة المجهول الكامن في أزقتها، وفي أعماقها، بل وفي أعماق تلك القارة بأسرها..!

شعرت بشوق للوصول، غير أن الطريق لا يزال طويلاً ومحفوفًا بمخاطر وأهوال بحر الظلمات.

بحر سيلتك مضطرب كنفسي المضطربة، جعل الباخرة تترنح وهي تشق صفحته كنصل حاد يشقُّ طريقه في فؤادي المثخن بالأوجاع.

ترنح رأسي فأُصبت بدوار البحر، جعلني انتفض من مكاني وأنتقل إلى مقدمة السفينة، من هنا ترى المستقبل أمامنا، لكنّه ضبابي غامض، فلا يلوح شيء في الأفق البعيد، إنّه غموض المصير المجهول الذي نبحر باتجاهه..

السياح عجائز في خريف العمر كرّسوا ما بقيَ من الحياة لارتياد الآفاق واستكشاف الأرض الجديدة واللحاق بما فات، إنّهم يرون الأشياء بمنظور مختلف، يختلف تمامًا عن رؤية مرافقيهم في هذه الرحلة البحرية من المسافرين الشُّبان أو من نظرة أولئك العروسين اللذين يقضيان شهر العسل على هذه الرحلة التي تستغرق عدة أيام..

الفصل الرابع عشر

التفاحة الكبيرة

الضباب يغلف الأجواء في هذا الوقت المبكر قبل خيوط الفجر، شبح تمثال الحرية لا يزال يقف شامخًا في جزيرة «ستاتن»، ثمّة سفن محملة بالبضائع بانتظار السماح لها بالرسو في رصيف البضائع، ما إن اقتربت باخرتنا من رصيف الركاب في ميناء نيويورك حتى كانت خطوط الفجر قد أضفت شيئًا من الإضاءة على المكان فتمكنت من رؤية حاملة الطائرات «الأنتربد» التي تم تحويلها إلى متحف حربي قبل سنوات..

تسارعت ضربات قلبي وأنا أعبر بوابة الميناء الإلكترونية، وعندما توقفت أمام موظف الجوازات تلعثمت وحاولت أن أكون طبيعيًا بين بقية السياح كأنني واحد منهم، وادعيت أنني لا أجيد الإنجليزية، فتحدثت ببضعة كلمات إسبانية، نظر الموظف إليّ من فوق نظارته قبل أن يهوى بخاتمه بعنف على الجواز وهو يناوله لي مرحّبًا بي في الولايات المتحدة الأميركية..

تشدك رائحة الصباح بجوار نهر «هدسون»، فتكمل مسيرك في شوارع نيويورك وأزقتها قبل أن تتوقف في مقهى في طريقك لتناول القهوة التي تزيل بقايا نوم طال انتظاره، تختار أن تجلس في البهو الخارجي لتراقب الشارع حتى لا تفوتك التفاصيل التي رسمتها مسبقًا في ذاكرتك، وتلك اليمامات التي تهرع باتجاهك بحثًا عن فتات أو بقايا طعام..

وجهتك هي منهاتن، تبحث عن حلم، وحيث كل شيء قريب منك،

ومن أجل أن تزور ميدانها الشهير «تايمز سكوير» حيث الحياة مختلفة عن أي مكان آخر، وحيث المسارح والمتاحف تشغل شارع «برادوي» الشهير، وحيث تتحقق الأحلام، لتصبح مع مرور السنين حلمًا يراود الجميع، ويتساوى في ذلك أصحاب رؤوس الأموال الذين يرغبون في زيادة ثرواتهم، والفقراء والبسطاء، والباحثين عن الحرية والثروة، والعلماء والمفكرين الباحثين عن تبني لأفكارهم وبحوثهم.

في «تايمز سكوير» توجد كل التناقضات، وتجد فيه كل النّاس من جميع الجنسيات والأعراق والديانات، هو يختصر لك مدينة نيويورك التي تختصر لك كل شيء آخر، فهي تختصر الولايات المتحدة وتختصر العالم في مدينة عالمية كونية واحدة.

تسطع أضواء لافتات الإعلانات التجارية، ويتزاحم الناس والسياح مع السيارات الفارهة وسيارات الأجرة الصفراء ذات الخط الأسود على مدار اليوم.

تتفرّس في وجوه النّاس المنشغلة بهمومها وبحياتها، أو بالغبطة لانتهاء يوم العمل على خير، أو المتسوّقة في المحال التي يعمل فيها باعة من اليهود والعرب والهنود والصينيين والأفارقة..

وفي المساء تجد هذا الميدان وبقية شوارع نيويورك وقد تحولت إلى مأوى لمشردين غدر بهم الزمان، يفترشون قارعة الطريق ويغطّون في النوم على فُوّهات المجاري التي يخرج منها الهواء الدافئ، يستجدون فتات الدولارات التي ينفقها الأغنياء على الحفلات

والسيارات الفارهة والليموزين..

وتعود إلى مقر إقامتك في نهاية اليوم منهكًا، لكن صخب المدينة يظل يطاردك، فهي مدينة لا تنام ويزيد من صخبها صوت سيارات الشرطة التي تطارد المجرمين أو تتسابق إلى مكان حادث ما، وكأنّها تتناوب مع حركة السيارات التي لا تتوقف طوال اليوم على إيقاظك في منتصف الليل من نومك في تلك الغرفة الصغيرة المطلة على الشارع الرئيسي.

تجوب شوارع منهاتن متسكعًا بين أزقتها وأسواقها، ليس لديك هدف محدد غير التسكع، غير أنّه قد يكون من أجل بحث لا شعوري عن قلب تركته في هذه المدينة قبل سنوات، أو ربما يكون من أجل إعادة استكشاف المدينة العجيبة، التي تعانقك وتحتويك فتجذبك إليها لدرجة التماهي، ولدرجة أن تصبح جزءًا من نسيجها الاجتماعي، ومن يومياتها السريعة التي تسابق الزمن.

الناس هنا يصحون مبكرًا، لأنّهم في سباق يومي على شوارع المدينة التي يصفونها بالتفاحة الكبيرة، فترى الزحام يبدأ من السادسة صباحًا في حين أنّك تكون قد خلدت للنوم والمدينة لا تزال صاخبة، إنّها مدينة لا تنام أبدًا..!

وصلت إلى الجادة الخامسة التي تعتبر أشهر شارع تسوّق في العالم والذي يرتاده المشاهير والنجوم، وأكملت إلى «برادواي» حيث المسارح والمعارض الفنية التي لا تجد فيها ما يشد اهتمامك من عروض مسرحية فتكمل التسكع من أجل قتل الوقت، فتجد نفسك

وقد وصلت إلى «تشاينا تاون» التي لا تختلف كثيرًا عن بقية الأحياء الصينية التي تتوزع على مدن العالم، تتركها فليس بها شيء جديد، لتذهب إلى «سنترال بارك» لتمضي بقية اليوم تراقب الناس والعشاق، فتشعر بالحسرة وتقرر مغادرة المكان.

وفيما كنت أهُمّ بالمغادرة رمى عليَّ أحدهم عملة معدنية من فئة نصف دولار، نظرت إليه ولم يكن يكترث بي، وقبل أن ألتقط القطعة المعدنية تبعه آخر بنفس السلوك، في تلك اللحظة شعرت بأن الحياة تسخر مني ومن الحالة المتردية التي وصلت إليها لأبدو كالمتشردين الذين يجوبون هذه المدينة، وأفقت من الموقف الساخر على ضربة قوية على ظهري، فاجأتني الضربة فانتفضت متلفتًا بهلع لأرى مصدرها، فرأيت مسنًا ربما يكون متسولاً متشردًا يهم بضربي مرة أخرى بهراوته الغليظة، فصرخت عليه مبتعدًا متحفزًا محاولاً معرفة سبب هجومه المفاجئ، وابتسمت حين قال لي أنني أتعدى على مكانه وأملاكه الخاصة..!

أعطيته القطعتين النقديتين اللتين حصلت عليهما نيابة عنه، وغادرت المكان وعلى وجهي بقايا ابتسامة ساخرة من هذه المدينة المجنونة..!

في طريق العودة إلى مقر إقامتي عرجت على نهر هدسون، لعلي أرى مشهدًا جميلاً يعدل المزاج ويضفي شيئًا من الهدوء على نفسي المضطربة، لكن الشمس كانت قد شارفت على الغروب، وسرعان ما ستمتد خيوط الليل إلى المكان، فتحوله إلى مكان موحش يشعرك

بقشعريرة ربما يكون سببها تيارات الهواء الباردة، أو ما سمعته من قصص مخيفة عن الليل في ضواحي نيويورك..!

وبينما كنت اتأمل الضفة الأخرى من النهر والجسر المعلق الذي يصل بين الضفتين، أفقت من تأملاتي على نداء من الخلف، التفت نحوه، فإذا برجل يصافحني وهو يدعوني باسم «انطوان فيشر»، اعتذرت منه وأبلغته أنني لست «انطوان فيشر»، وأنّه لابدّ أن يكون مخطئًا، غير أنّه لم يصدق كلامي، وضحك، ثم قال: حسنًا دعك من هذا المزاح، وأرني ما أريد..!

قلت: ولكني لا أعرف ماذا تريد؟

قال: قلت لك دع عنك هذا الهراء، فلا وقت لديّ أضيعه هنا، الزعيم في الانتظار، وأنت تعرف العواقب لو تأخرت عليه..!

قلت ساخرًا: إذًا الأفضل أن تعود إليه قبل أن تتأخر، فلا أعرف لا زعيمك ولا انطوان فيشر هذا، أرجوك اذهب واتركني وشأني..!

وما إن أكملت حديثي حتى شعرت بلكمة قوية في المعدة، تلويت ألمًا، وقبل أن أسترد أنفاسي شدني من رقبتي كأنّه يساعدني على الوقوف وقد شهر مسدسه، وهو يأمرني بالسير أمامه مرفوع اليدين فيما كان يدفعني بعنف نحو سيارته، ويخبرني أنَّ عليّ أن أخبر الزعيم بنفسي بأنني لست المدعو فيشر لأنّ هذا الهراء لا يسري عليه..!

ضحكت عليه رغم الألم وتوقفت أمام السيارة، وقلت: حسنًا، حسنًا أخبرني ماذا تريدني أن أفعل..؟

ولكمني لكمة قوية في المعدة مرة أخرى، وقال: حسنًا هذا سينشط

ذاكرتك..!
شعرت بضيق في التنفس، وقبل أن أفيق من الألم، أمسك برأسي تحت ذراعه وهو يقول: أنت مدين للزعيم بمئة ألف دولار، وكما هو متفق يفترض أن تدفع المبلغ هذه الليلة، وحسب الاتفاق فإنّ مكان التسليم هنا وفي هذه اللحظة، هل استعدت ذاكرتك الآن؟
قلت متلويًا من الألم: اللعنة عليك..!
وحاولت التملص من تحت ذراعه، فلم أتمكن، قلت: حسنًا، حسنًا، اتركني لأخبرك..
حينها ترك رأسي، فاعتدلت واقفًا وأنا أقول: انظر، لابدَّ أنّ هناك خطأ ما، لا أملك هذا المبلغ، إنني غريب في هذه المدينة، لقد وصلت صباحٍ اليوم فقط، بإمكانك التأكد من هويتي، انظر..!
وهممت أن أخرج جواز سفري من جيبي، لكنه لم يمهلني ليهوي علي بضربة قوية على وجهي، فترنحت وشعرت بدوار وارتطمت بالسيارة فاستندت عليها حتى لا أقع أرضًا، في تلك الأثناء انشغل هو بفتح باب السيارة، وفي تلك اللحظة وبلمح البصر عاجلته بركلة عنيفة أسفل بطنه ليقع متلويًا من الألم، وقبل أن يستعيد تركيزه تلقى لكمة خاطفة في وجهه، وأخرى لركل المسدس من يده، ثم لذت بالفرار، وبعد لحظات سمعت طلقات الرصاص خلفي، وبلمح البصر وجدت السيارة تلحق بي، فانطلقت هاربًا، وناورت وقفزت إلى جسر للمشاة في الأسفل على مستوى النهر فلن يتمكن من اللحاق بي بسيارته على هذا المستوى ممّا سيمكنني من الفرار،

غير أنّه أوقف سيارته ولحق بي ليطاردني على قدميه وهو يطلق عليَّ وابلًا من النيران، وما كان مني إلا أن أطلقت قدميَّ للريح، وبعد قليل رأيت سيارته تسبقني إلى المخرج العلوي، فغيرت اتجاهي، وأخيرًا قفزت في الماء البارد، لأختفي عن أنظاره بسرعة البرق..

اختبأت قليلاً في الماء بلا حراك ملتصقًا بالحاجز الاسمنتي في النهر، كنت أرتجف من البرد، غير أنّ المسألة خطيرة جدًا، وبعد مرور بعض الوقت وعندما تأكدت أنّ السيارة غادرت، خرجت، فشعرت بأنَّ جسدي يكاد يتجمد، قمت ببعض الحركات الرياضية لأبعث شيئًا من الدفء في جسدي، لكنّ ذلك لم يؤت بنتيجة، فسرت مرتجفًا متخفيًا في الظلال إلى أن وصلت إلى الفندق..

لابدَّ أنَّ هذه المدينة مجنونة، ولابدَّ من مغادرتها حالاً، غير أنني شعرت بالإرهاق والتعب، بل وشعرت بالخمول والمرض، جرّاء البرد الذي تعرضت له، فتكاسلت عن المغادرة في هذه الليلة، لابدّ من المبيت هذه الليلة، خصوصًا أنّ جسدي لم يعد قادرًا على تحمل المزيد من الجهد، بعد كل تلك الأسفار الطويلة، وبعد تلك المطاردة الخطرة التي كانت ستودي بحياتي..

أمامك سفر طويل في الصباح الباكر، ولابدّ أن تخلد للراحة، لتلحق بالقطار الصباحي السريع الذي سيحملك إلى العاصمة واشنطن، لكن النوم يجافيك كالعادة، لأنّك أُصبت بعدوى أرق المدينة، ولأنك تعتقد أنّك قادر على مجاراتها واللحاق بإيقاعها السريع فلا تستطيع، فتجد نفسك تعود إلى شوارع المدينة في منتصف

الليل، تدخل مقصفًا قريبًا تبحث عن دواء مسكن لنزلة البرد التي أصبحتَ تعاني من بوادرها وربما لتتناول الطعام، وتساهر البائع التونسي ومديره الصيني، قبل أن يدخل زبائن من رجال الشرطة الساهرين على أمن المدينة، فتنسحب بهدوء حتى لا تثير تساؤلات او شبهات تجرك إلى مناطق بعيدة ومصير مجهول.

كان هناك متسوق آخر في المحل، ما إن رأى رجلي الشرطة حتى ارتبك واضطرب، وشهر مسدسه باتجاههما، ولأنَّ حظي عاثر، فقد كنت الأقرب إليه، وقبل أن أستوعب ما يحدث وجدت نفسي رهينة بين يديه، الغبي، لقد اعتقد أنَّ الشرطة تلاحقه لجريمة فعلها في مكان آخر، وهكذا زج بي في أُتون الحدث، في ورطة أُخرى، كان المسلح يضع المسدس على عنقي مهددًا بقتلي إن اقترب منه أحد، شعرت بالخوف خصوصًا أنّه مرتبك ويده ترتجف، بل وشعرت بالاختناق وبأنني على مشارف الموت، وبأنني قليل الحيلة، فاقد السيطرة، وعليّ الاستلام، فأي حركة بطولية أو جنونية قد يكون فيها هلاكي، وفي تلك اللحظة، مرت صور من حياتي البائسة أمامي، بل مرَّ ما يشبه السيناريو لما يمكن أن تكون عليه نهايتي، قطعها المسلح البائس وهو يجرني إلى خارج المحل ورجلي الشرطة يتبعانه شاهرين أسلحتهما، وهو يهددهما ليبتعدا عنه، فأفسحا له المجال بهدوء، وحاول إرغامي على ركوب سيارته، لكنني وجدتها فرصة سانحة للتخلص منه، وفي تلك اللحظة، وفي غفلة وبسرعة خاطفة ضربته بمؤخرة رأسي على وجهه في الوقت الذي أمسكت

بيده لأتخلص من المسدس الموجه إلى عنقي، وانطلقت رصاصة طائشة قبل أن أتمكن من التخلص من قبضته وأختبئ في الجهة الأخـرى مـن السيارة، فاضطرب وارتبـك إلى أي اتجـاه يوجّه مسدسه، لكنه بسرعة ركب سيارته وانطلق بها بسرعة خاطفة فيما كان رجلي الشرطة يلاحقانه بوابل من الرصاص، قبل أن يمتطيا سيارتهما ليلحقا به وسط ذهول الجميع..!

في صباح اليوم التالي كان هناك ثمة شعور بالقلق يجعلني غير قادر على التفكير بشكل سليم، شعرت بأنني مشتت تائه متعب، ثمة رضوض في أماكن متفرقة من جسدي المنهك، أحتاج إلى شيء يجعلني أستعيد السيطرة على خلجات نفسي بعد الأحداث المثيرة في الليلة الماضية، ذرعت أرضية محطة القطارات المركزية جيئةً وذهابًا ممسكًا بصحيفة نيويورك تايمز بانتظار الرحلة التالية بعد أن فاتني موعد رحلتي الصباحية إلى واشنطن العاصمة..

ثمة حاجة ملحّة لتصفية الذهن، لكن كيف يمكن ذلك وسط هذه الفوضى التي تعصف بذهني، وقلة النوم، والسفر المتواصل، وفروق التوقيت والتغيرات المناخية، والهروب من أشباح الماضي، ومن «الاسكتلنديارد» وجهاز إم آي 5 وإم آي 6 و«الإنتربول» وحتمًا انضم إليهم الآن الشرطة الفيدرالية «إف بي أي» ووكالة الاستخبارات الأمريكية «سي آي ايه» ورجال «الزعيم»، ليتني أجد نفسي في جزيرة معزولة عن العالم لبضعة أيام فقط.

ألم تسنح لك الفرصة نهار الأمس مع بائعة الكتب الحسناء في

شارع برادوي والتي أبدت إعجابها صراحة بك لدرجة أن المسكينة كادت تتوسل إليك وهي تلمح لك لتمضية بقية اليوم معها، ألم يكن ذلك كفيلاً بلم شتات نفسك المبعثرة وتصفية ذهنك المزدحم!

لكنّك كالعادة تقف مشدوهًا مذهولاً بليدًا عندما تقف أمام حسناء، وتغلب الحماقة والبلاهة على تصرفاتك، فتتخلى عن الفرصة لأنك لا تملك الشجاعة الكافية لتدخل في مغامرة عاطفية جديدة..!

لو ذهبت معها لما تعرضت لمواجه الموت مرتين، ألم يحن الوقت لمواجهة هواجسك ومخاوفك، وهل لذلك علاقة بذهابك طواعيةً واختيارًا إلى حيث تكمن المشاكل، بل وربما تنتظرك مفاجآت لا تحمد عقباها..!

شعرت بالدوار من الجيئة والذهاب فجلست على كرسي خشبي، حاولت قراءة الصحيفة، قلبت صفحاتها، شعرت بالملل لدرجة أنني لم أعد أفهم ما أقرأ، تركت الصحيفة وذهبت لشراء قهوة سوداء، في الجهة المقابلة، يجلس رجل أصلع يخفي وجهه وراء صحيفة، شعرت أنّه يراقبني على طريقة الأفلام، غيرت مكاني لأختفي من أمامه، ثمة رجل آخر ينظر إليّ من تحت نظارته السميكة، تركت له المكان أيضًا، ثمة هاجس يجعلني أشعر بأنني تحت المراقبة..!

ربما تكون مجرد أوهام وتخيلات، فقد تكون مطلوبًا لكنك لن تصل إلى قائمة أشهر المطلوبين في العالم، فما أنت سوى صعلوك متسكع تعيش في عالم من نسيج الأوهام والخيال والأحلام..!

عُدت إلى الكرسي الخشبي، وجدته مشغولاً، سحبت جريدتي،

واختفيت خلف عمود عريض متصنعًا الاستناد عليه لقراءة الجريدة التي تساقطت صفحات منها أمام سيدة عجوز، لكزتني بعكازها لتنبهني، فانحنيت لألتقط صفحات الجريدة من الأرض، وفيما كنت أهم بالنهوض، توقفت فثمة ساقين جميلتين أمامي، تتبّعتُ مصدرهما حالما، فأفقت على ضربة عنيفة بحقيبة نسائية على رأسي، ترنحت ورفعت رأسي لأعرف مصدر الضربة، كانت من تلك العجوز صاحبة العكاز، تجاهلتها، نظرت إلى صاحبة الساقين الجميلين، فلم تعرني اهتمامًا واكتفت بابتسامة خفيفة وهي تبتعد من المكان..!

الفصل الخامس عشر

حقيبة الأوهام

ثمة شعور مُبهم يراودني منذ أن وصلت إلى العاصمة واشنطن لازمني طوال وجودي في هذه المدينة التي سُميت باسم رجل تخليداً لذكراه..

سرت بمحاذاة البيت الأبيض وأنا أجوب المدينة متجهًا إلى مبنى الكونجرس، ثمة متشرد يرفع لوحة كرتونية قديمة، لم أُميز ما كتب عليها، لكن مظهره لا يختلف كثيرًا عن مظهري، فكلانا أشعث أغبر، لولا الظروف التي تحيط بي لشاركته التشرد والاحتجاج، غير أنني تجاوزته حتى لا يعتقد أحد أنني أُسانده في احتجاجه الصامت، ودخلت مكتبة الكونغرس ولم يكن لي مزاج في القراءة والبحث بين الكتب فخرجت وسرت نحو النصب التذكارية للرؤساء الأوائل توماس جيفرسون وابراهام لينكولن وفرانكلين روزفلت، ثم أكملت نحو المتاحف العديدة التي تصطف في شارع واحد ودخلت متحف التاريخ الطبيعي وآخر للتاريخ الأمريكي ومتحف الفن الحديث ومتحف الطيران ومتحف الطوابع البريدية.

شعرت بأنَّ النّهار طويل وكأنَّ الشمس تأبى الغروب، فأكملت تجوالي على ضفة نهر بوتوماك الذي أدخلني إلى حي جورج تاون فتوقفت في مقهى مصري يكاد يشتعل بأدخنة الشيشة حتى شعرت بالثمالة، بحثت عن مقعد أحتله في وسط زحام طلاب جامعة جورج تاون القريبة المتهافتين على أجواء الشيشة والطعام العربي، وهو ما دفعني للتساؤل: هل هذا ما يمكن أن يتعلمه هؤلاء الشبان عن

الثقافة العربية..!

بطبيعة الحال الشعب الأميركي لا يهمه أن يعرف ما يجري في الشارع العربي، لأن كل اهتمامه ينصب على ما يجري في القطاع الذي يحيط بمنزله أو بالشارع الذي يسير فيه إلى مقر عمله، إنه نوع من التقوقع الأميركي حول الذات ذلك الذي كان نتيجة عزلة هذه الدولة التي تكاد تكون قارّةً لوحدها نتيجة المساحات الشاسعة التي تشغلها والتي تساوي مساحة أوروبا، ويزيد من حالة التقوقع تعدد ولاياتها الإحدى والخمسين وعدد سكانها الذي يصل عددهم إلى ثلاثمائة وسبعة ملايين نسمة، وتنوعهم عرقيًا وإثنيًا ودينيًا وسياسيًا لدرجةٍ تجعلهم مختلفين رغم التجانس الذي جاء نتيجة تبني الجميع للثقافة الأميركية التي تحولت إلى ضرب من العولمة التي اعتنقها أكثر من ثلثي سكان العالم..

عندما خرجت من المقهى كانت الأجواء ماطرة ماهرة في تحريك أشجاني، انكفأت على نفسي وأكملت مسيري مستجيرًا بالأزقة والأرصفة الملاصقة للمباني، شعرت برغبة في العزلة، الشوارع تلمع بعد أن غسلها المطر حتى أصبحت نظيفة خاوية من البشر، الناس هنا يخشون المطر، وأنا أسير تحته وحيدًا، اضطرب قلبي وارتجف وزادت خفقاته، شعرت بالبرد، وجدت نفسي ملطخًا بالخطايا، تُرى هل يغسلها ماء المطر..!

شعرت كأنني محارب وحيد في معركة أعرف مسبقًا أنّها خاسرة، ما الذي يدفع واحد مثلي لخوض معارك كثيرة لا تنتهي، ويعرف

مسبقًا أنّ الانتصار فيها محفوف بالموت..!

لم أشأ العودة إلى مقر إقامتي فأكملت تسكعي في المدينة، وبعد أن توقف المطر، وجدتني أقبع متكورًا على نفسي في ساحة الحرية «فريدوم بلازا»، أعاني الغربة والوحدة، والبرد والزكام الذي يجعلني طريح هذا الكرسي الخشبي الوحيد، لا أرغب في مفارقته لأنني أشعر بالخمول، بالمرض، أبدو بائسًا، مرهقًا، متشردًا..!

غير أنّ الدماء تدفقت دافئة في جسدي عندما توقفت تلك الحسناء أمام الكرسي، همّت بالجلوس متجاهلة وجودي، كأنني شبح لا تراه، اعتدلت، أفسحت لها المجال، اضطربت نفسي وزادت ضربات قلبي، قلت: يا إلهي لم أرَ أجمل منكِ في حياتي..!

حدقت بي، ثم ابتسمت، فازدادت وتيرة سعالي، فأخرجت شيئًا من حقيبة يدها ودسته في يدي وغادرت..!

خالجني شعور مبهم عندما رأيت في يدي دولارًا، وعلى سخرية الموقف غير أنني لم أتمكن من استيعابه أو الابتسام، فيبدو أنني قد تجاوزت مراحل التسول والتشرد، يبدو أن مظهري أصبح فعلاً بائس لدرجة البكاء..!

في تلك اللحظة شعرت بسخرية الأقدار، وبأنني في مدينة غريبة تسخر مني، ترفضني وأرفضها، لأنّ لها يدًا في ضياع حقيبة أحلامي ومن قبلها حقيبة آمالي، ولم يبق لي غير حقيبة أوهامي..!

شعرت بعدم الرغبة في العودة إلى الفندق لأنني أعرف أنّ الوحدة والهواجس ستداهمني فيجافيني النوم، فأكملت السير نحو مسرح

«فورد» لعلي أجد ما يسليني حتى الصباح، ولم يُسمح لي بالدخول لأنّ العرض كان قد بدأ، فأكملت ليلتي متنقلاً بين النوادي الليلة الرخيصة..!

وفي الصباح التالي تحدثت هاتفيًا مع صديقي الأمريكي ويلسون دايفس وأخبرته أنني في المدينة، وأنني بحاجة للقائه، فأصرّ على أن نتناول العشاء معًا في منزله.

زوجته ساندي من أصل صيني، وهي صديقة عزيزة، وكلاهما يدينان لي، فقد كنت سببًا في لقائهما وزواجهما، وقد استعدنا تلك الذكريات الجميلة، أما دايفس فهو ضابط استخبارات التقيته لأول مرة على متن طائرة عسكرية من نوع سي 40 كانت تحملنا معًا إلى العراق، وتشاركنا خيمة واحدة عندما كنا نعود للمبيت في معسكر القوات البريطانية في البصرة، وقد استقر به الحال للعمل المكتبي في واشنطن تاركًا العمل الميداني، وهو يتندر على ذلك الآن بالتربيت على كرشه المترهل قليلاً، قائلاً: هذا هو الفرق بين العمل الميداني والعمل المكتبي..!

بعد العشاء أخبرته بما حدث لي مع البريطانيين، فغمغم ببضعة شتائم ساخرة على الإنجليز، وهو يقول: إنني آسف على ما جرى لك، لكن عليك تسليم نفسك لهم في كل الأحوال، فلابدّ أن تظهر الحقيقة، يزعجني أن يحدث هذا لك، وأتفهم ما تمر به من ظروف صعبة.

قلت: شكرًا يا صديقي على التعاطف، غير أنّ ذلك لن يفيدني

للخروج من هذا المأزق، أحتاج إلى مساعدتك الآن أكثر من أي وقت مضى، أرجوك..!

قال بنبرة بطيئة محايدة وهو ينفث دخان سيجارته: تعرف جيدًا يا عزيزي أنّ بريطانيا حليف رئيسي للولايات المتحدة وخصوصًا فيما يتعلق بالحرب على الإرهاب، فلا يمكنني بأي حال أن أُخفي معلومات تتعلق بهذه المسألة بالرغم من كل شيء..

شعرت بالغباء والسذاجة لدرجة الندم لأنني لجأت إلى هذا الوغد، نظرت إلى زوجته وهي منهمكة في تنظيف طاولة الطعام، وقلت ساخرًا: يبدو أنني تكبدت عناء الوصول إليك، لم أتوقع أن يكون ردك سلبيًا بهذه الطريقة المضحكة، إنك لم تعرف حتى ماذا أريد منك ليكون ردك بهذه الطريقة..!

قال بطريقة تهكمية: حسنًا، حسنًا ماذا يمكن أن أُقدم لك في مثل هذا الموقف، إنَّ المسألة صعبة، لا تنسى أنَّ صديقك الآن يتبوأ منصبًا حساسًا، وبصراحة لا أريد توريط نفسي في متاهات قانونية، أرجو أن تتفهم موقفي يا صديقي، فالمسألة سخيفة..!

قلت: بالنسبة لي هي ليست سخيفة على الإطلاق، إنّها مسألة حياة أو موت..!

قال: عذرًا لا تسيء فهمي، ولكن لا يمكنك مواصلة الهروب، في الواقع إنَّ وجودك هنا في واشنطن خطأ فادح، كان عليك ألا تأتي أصلاً إلى أميركا في هذه الظروف وفي هذا الوقت بالذات..!

شعرت بأنَّه وغد لا يمكن الوثوق به بعد الآن، لقد أخطأت بالتحدث

إليه منذ البداية، فقلت: حسنًا لا بأس، هل يمكن أن تنسى هذا الحديث الذي دار بيننا، بل أن تنسى أنك رأيتني أصلاً..؟

تململ في جلسته بصمت، فشعرت بالغيظ فأردفت: أم تريد تذكر كل ماضيك، تُرى ماذا لو تحدثتُ قليلاً مع زوجتك، إنّها فعلاً لا تستحقك أيها الوغد، هل نسيت ما حدث في العراق، هل نسيتم مايكل سلون مراسل نيويورك تايمز في العراق ودور الاستخبارات الأمريكية في مقتله، ترى ماذا لو تسربت تلك المعلومات إلى وسائل الإعلام؟ أنت يا سيد دايفس آخر شخص يجب أن يتحدث عن حجب معلومات لها علاقة بالحرب على الإرهاب..! إن تلك نكتة سمجة، غير أنني الطرف الأضعف الآن، أعترف بذلك لأنني في دائرة الاتهام، والمتهم مذنب حتى تثبت براءته في هذا الزمان، ولن أُضيع عمري هباءً في محاولة إثبات براءتي، فليس هناك من يكترث لواحد مثلي..!

احتقن وجهه واحمرّ، وقال بحدة وبصوت مرتفع: اللعنة عليك، إنك فعلاً تجيد وسائل الابتزاز، أجئت هنا لتهددني في منزلي..؟

وبعد برهة صمت، أردف: حسنًا، حسنًا ماذا يمكن أن أقدم لك..!

انتبهت زوجته إلى صوتنا الحاد، فاقتربت برفق لتضع يدها على كتف زوجها الذي لا يزال في مقعده الوثير في محاولة لتهدئة الأجواء، قلت: لم يعد هناك شيء يمكن أن تقدمه، لقد قدمت لي ما أحتاجه، كنت أحسبك صديقًا، وكنت أعتقد أنَّ علاقتنا عائلية، لكن ذلك لم يكن له أي اساس، الآن فهمت، إنّها مجرد ترهات

ومصالح مؤقتة..!

تدخلت الزوجة وهي تنظر إلى زوجها، ثم اقتربت نحوي وقالت: اهدأ يا عزيزي، لا أريد أن أعرف سبب خلافكما، غير أنني واثقة من أنّ هناك حلولاً ترضي الجميع، اهدأ فلا يوجد في هذه الدنيا ما يستحق الخصام..

قلت: شكرًا لك سيدتي لكن حان الوقت الآن للانصراف، لم يعد لي مكان هنا..

نظرت نحو زوجها، وقد هممت نحو الباب، وتبعتني فأمسكت بذراعي، وهي تقول بهدوء: مهلاً أرجوك لا يجب أن تذهب هكذا بحق الأيام الخوالي.

ونادت على زوجها، فنهض من مكانه، وقال على مضض: أرجوك، تفضل، وهو يشير إلى المقعد، دعنا نتحدث لنتوصل إلى حل، اسمح لي بأن أساعدك..!

نظرت إلى ساندي، وقلت لها: شكرًا لكن لم يعد هناك شيء يمكن أن أقوله هنا، لقد غمرتني بلطفك كعادتك ساندي، العشاء كان رائعًا، يجب أن أذهب الآن فأمامي سفر طويل، أرجوكِ أخبري زوجك أن ينسى ما أخبرته به، فهو لم يعد قادرًا على مساعدتي.

الفصل السادس عشر

الهروب من الجحيم

في تلك الليلة جافاني النوم كالعادة، حديثي مع ويلسون دايفس جعلني أستعيد كل شيء، اللعنة عليك يا ويلسون، أعادني إلى تلك الأيام العصيبة التي شهدتها في أرض المعركة، الحرب بشعة، صورها تطاردك إلى الأبد، شعرت أن بين ضلوعي حريق، شعرت بالآلام تعتصر فؤادي، ومرَّ كل شيء في رأسي كلقطات مجزئة من شريط سينمائي، الوصول إلى أرض المعركة في العراق، أرتال الدبابات والآليات العسكرية، الغبار الذي يلف المكان، الجنود المدججين بالسلاح وهم يفتشوننا في كل نقطة تفتيش وما علينا إلا التسليم ورفع أذرعنا إلى السماء، أطفال أم قصر وهم يتحدثون معي بالإنجليزية، ثم وهم يستجدون الماء والحلوى من الجنود الأمريكان، طائرة الهليكوبتر التي اعترضت سيارتنا بالصواريخ حتى توقفنا ونزلنا منبطحين أرضًا، فيترجل منها الجنود ويفتشون أغراضنا ويفتشون ملابسنا للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة ولسنا عملاء أو إرهابيين..!

قرى الجنوب والبلدات البدائية البائسة، أم قصر والزبير، والنساء اللاتي يحملن أواني المياه على رؤوسهن، كأنَّه مشهد يعود إلى ستينيات القرن الماضي، البصرة، مقبرة الإنجليز، وفندق الشيراتون المهدم المهجور، والتماثيل الواقفة على مشارف شط العرب، بؤس القرنة وأطفال الناصرية، حسناء السماوة، والدليل الذي هجرني في العمارة، والعجوز التي تشبثت بي في الرميثة،

الكوت والشيخ سعد وتهم الخيانة والعمالة لإيران، مسجد الشيعة في الديوانية، والحوزة المقدسة في النجف..!

صوت الرصاص في الليل ونحن نبيت في فندق السندباد في بغداد، ومرة في بناية شبه مهجورة في حي المنصور، الأدخنة السوداء كل ليلة والنار التي تشتعل من بعيد، لا أحد يهتم ما سببها ولا أحد يعرف هل هي حرائق لمخازن أسلحة أم أنها لمباني مقصوفة..!

جثث القتلى المتفحمة والأشلاء المبعثرة التي لا يكترث بها أحد، صراخ الجرحى في مستشفى بائس في الناصرية، الجرحى في مستشفى في بغداد وآخرين في الرمادي وبؤس في مستشفى ناء في الرطبة، صرخات الأمهات الثكالى، ودموع أب ليس بيده حيلة يحمل طفله المضرج بالدماء، وآلام رجل يحتضر ملقىً على قارعة الطريق، رائحة الدم الممزوج برائحة السلاح، رائحة البارود المحترق، دخان البنادق، والموت الذي يكتنف المكان..!

الفقر يحاصر المكان، والبؤس يقتل الأطفال والعجائز في بابل والمحلة والحديثة وهيت والقائم وقرى لم أعد أذكرها، مبيتي في مزرعة في الصفية تحت قصف مدافع الهاون، وصليل جنازير الدبابات وهي تطوّق المكان، الدبابة المعطوبة في مكان ما من الطريق الواصل بين بغداد والرمادي والتي أمتطيتها لأخذ صورة تذكارية، الطائرات الحربية العراقية المحطمة في كل مكان، بقايا القذائف التي تشكل خطرًا نتجاهله أو لا نكترث له..!

الهروب إلى الصحراء، والمبيت في العراء، حيث نتوسد الأرض

ونلتحف السماء، الصحراء ليلها بارد، تلفها الوحشة والظلمة، القمر الشاحب الحزين والنجوم التائهة عن مساراتها..!

سقوط بغداد وتحطم التمثال، ساحة الفردوس، التعرض للاحتجاز على أيدي قوات التحالف في الفلوجة، تقاوم فتفيق مضرجًا بالدماء، النجاة من قذيفة في سوق مكتظ، اغتيال زميل وصديق صحفي بقصف على مكتبه في وسط بغداد، وموت زميل صحفي غربي آخر متأثرًا بجراحه بعد أن تعرضت سيارته للتفجير ولم يعلن أحد المسؤولية، فندق فلسطين الذي احتله الجنود الأمريكان، وعملك هناك لوقت متأخر حتى بعد حظر التجول، عودتك إلى فندق السندباد..

هروبك من اللصوص بعد مطاردة ليلية شرسة في أحياء بغداد، ثم وقوعك في فخ لتصبح رهينة أنتَ وزميلك الأمريكي في يد الإرهابيين، تلك اللحظات الرهيبة التي مرت عليك، ذهولك، شجاعتك، ذعرك، جنونك، وهروبك بعد أن رأيت قطع رأس مايكل سلون مراسل صحيفة نيويورك تايمز أمام عينيك دون أن يكترث له أحد أو يذكره أحد..!

رغم ذلك تقرر البقاء في الجحيم، لأنَّ المهمة لا تزال قائمة، أي جنون ذلك وأي شجاعة مصطنعة تلك، وأي مجد صحفي زائف ضائع، كلها مجرد أوهام ستدفع حياتك ثمنًا لها..!

تقع في شرك قطاع الطرق، وتهرب من كمين على الطريق الصحراوي خلف البصرة، وتضحك وأنتَ تهرب من المبشرين

قرب العمارة..!

مشاعر الخوف والألم وكوابيس النوم، ودموع الحسرة عندما تعتصر روحك فضائع ومآسي الحرب، تجهش بالبكاء لأنّك تشعر بقلة الحيلة، ولأنك تشعر أنَّ الإنسانية تحتضر، تمزق أوراقك وتكسر أقلامك لأنك لم تعد ترغب في كتابة الخبر، ولا في وصف ما حدث، ولا في الموضوعية أو المهنية الصحفية، لأنَّ الحقيقة في خطر، وأنتَ لا تستطيع التزوير، تعتزل العالم، تعتزل الصحافة، تسافر بلا هدف، تبحث عن سلام داخلي، يشفي جروح روحك، لأن التجربة كانت قاسية، والمشهد كان أكبر ممّا تحتمل..

المعتقل الصحراوي الذي وجدت نفسك نزيلاً فيه، زملاء المعتقل البائسين، الهروب مختبئًا في شاحنة عسكرية وعثورك فيها على بندقية أم 16 مفككة ومخبئة، تعيد تركيبها وتضعها في وضعية الاستعداد متحفزًا لاستخدامها للدفاع عن النفس، جرأتك في اختطاف الشاحنة العسكرية من سائقها، وهروبك بها في عمق الصحراء، إلى أن تتوقف الشاحنة بعد أن يفرغ منها الوقود، فتكمل سيرًا على الاقدام، في منطقة خاوية نائية، إلى أن يعثر عليك المهربين فتعيش في حمايتهم، وترافقهم في عمليات التهريب، تصبح واحدًا منهم، وعندما تشعر بالسأم تودعهم وتعود إلى أقرب قرية..

مبيتك في معسكر القوات البريطانية، لجوؤك لنادي الضّباط في الليالي الباردة، الجنود المترعين، كؤوس الخمر، أجساد الجنود

العارية كل صباح، تلك المروحية العسكرية التي قفزت إليها للتنقل في ضواحي البصرة..

رائحة الغاز والبارود، دخان البنادق والقنابل، الجثث التي تملأ أرض المعركة، الدماء والأشلاء، واللعنات التي تصبها على الجميع وعلى جنونك الذي جاء بك إلى أرض المعركة..!

الوقوف على شفة شط العرب لرثاء النخيل، والوقوع في الحب في السماوه، وسمك المسكوف في كازينو الخضراء على ضفاف نهر دجلة، والشاي العراقي من منزل أم حميد، ورفقة أبو حميد إلى ولائم أبناء العشائر وشيوخ القبائل في الرمادي.

الطريق إلى بغداد، والدمار الشائع في كل مكان، الهروب من الجحيم، طريق بغداد عمان السريع، كأنّه طريق إلى الجنة، قطاع الطرق مرة أخرى، مواصلة الطريق سيرًا على الأقدام لمسافات طويلة بعد تعطل السيارة، صهريج الماء الذي حملنا لأقرب محطة..

السفر فجرًا، قبل بزوغ الشمس، ومسابقة الرعاة قبل إطلاقهم نعاجهم في المراعي المفتوحة قرب الطرق السريعة، يطول سفرك، تقطع آلاف الكيلومترات برًا، العبث في الطرقات، إعداد الشاي في السيارة على الطريق السريع كما اتفق، ثم تناوله في بقايا علب المياه المعدنية، كل شيء ارتجالي، من أجل التأقلم مع الظروف..

تقف طويلاً على نقاط الحدود، الجمارك والتفتيش في كل نقطة، المفرق والرويشد وطريبيل، تشعر بالسخرية، تضحك، يعثر رجال الجمارك على خرطوشة ربما وصلت عن طريق الخطأ إلى

حقيبتك، يصادرونها، ويصادرون الحقيبة، وبقية أغراضك، تهزأ منهم وتضحك كثيرًا، لأنَّ ذلك ما تجيده مراكز الحدود العربية..!

الفصل السابع عشر

الراقصة العارية

في صباح اليوم التالي، كنتُ على متن قطار يتجه جنوبًا إلى تامبا بولاية فلوريدا، شعرتُ طوال الليلة الماضية بخيبة أمل، ربما كنت ساذجًا لأعلِّق آمالاً كبيرة على مساعدة ويلسون لكنَّ الوغد تنكَّر لي، شعرت بالندم على إخباره بقصتي، ولم يبق لي الآن إلا مواصلة الهروب إلى الأمام، ربما جنوبًا إلى كوبا، أو إلى المكسيك أو إلى أي مكان في أميركا اللاتينية..!

رغم الشعور بعدم الأمان غير أنني حاولت الاستسلام إلى النوم قليلاً في القطار، فلا زلت أعاني من قلة النوم والأرق، ربما قلقًا من المصير المجهول، لأنني مطارد، هارب، وربما بسبب الترحال الشاق، ولا يزال أمامي سفر طويل متواصل، الحياة شاقة، إنّها كفاح وصراع من أجل البقاء، وبحثٌ مستمر عن شيء ما، عن الحب، عن السعادة، عن المجد، وأهم من كل ذلك، البحث عن الأمان والسلام الداخلي الذي نرنو إليه جميعًا.

وصلت إلى تامبا، تلك المدينة الساحلية الجنوبية الساحرة المستلقية على خليج المكسيك، كانت دافئة ومشمسة على عكس غالبية المدن الأميركية الباردة في كل شيء خصوصًا في مثل هذا الوقت من العام.

تلفتُّ حولي وأنا أخرج من محطة القطار، فلا يزال يلازمني ذلك الإحساس بأنَّ هناك من يراقبني، وأكملت سيري لاستكشاف المدينة، والبحث عن طريقة لإكمال السفر نحو الجنوب.

لم أتمكن من مقاومة جمال الطبيعة والبحر خصوصًا أنَّ كل شيء هنا يشي بالجمال، ولطالما أُغرمت بالمدن وبالنساء، وكلاهما سبب مصائبي المتلاحقة.

يُقال أنَّ هذه المدينة هي مدينة أطلنتا الأسطورية المفقودة وربما قصد بذلك التشبيه لأنَّها مدينة خيالية الجمال تشعرك بذلك الغموض الأسطوري، غير أنّها اليوم مدينة حديثة وعصرية، ولذلك شعرت برغبة عارمة في ممارسة هوايتي في تفقد تاريخ المدينة، فقد شكّل جمالها الغامض ما يشبه الإلهام للخروج من الحالة النفسية السيئة، وهكذا جرتني قدماي إلى مركز للمعلومات، وجدت شابًا يلتفُّ حوله مجموعة من السُّياح، وقفت قليلاً بينهم، الشاب يسترسل في حديثه عن المدينة: عندما وصل المستكشفون الإسبان لشواطئ هذه المدينة في عام 1528 كان لا يزال بها بقية حضارات بدائية تسكنها، كان منها قبائل من الهنود الحمر الذين سكنوا المنطقة لما لا يقل عن 3500 عام، وفي بداية القرن الثامن عشر انقرض الهنود الحمر سكان المنطقة الأصليين بسبب الطاعون الذي انتقل إليهم من المستوطنين الأوروبيين ولم يكن لديهم أي مناعة ضده أو أي أدوية أو مضادات حيوية، وفي منتصف القرن التاسع عشر وقعت أعمال عنف وإبادة بين أقلية من الهنود الحمر والمستوطنين البيض، ومع اكتشاف الفوسفات في المنطقة انشغل البيض بجمع الثروات، وفي بدايات القرن العشرين تحوّل هذا الإقليم إلى مركز صناعي رئيسي، أمّا ما يميز المدينة عن

غيرها فهو طقسها شبه الاستوائي على مدار العام وهو ما يخلق العواصف الرعدية خلال موسم الصيف، وبالرغم من أنَّ المدينة لا تزال تُعرف بسيجارها المميز غير أنَّها تحوّلت لتصبح المدينة الصناعية والتجارية والمالية للساحل الغربي من ولاية فلوريدا وهي الثالثة على مستوى الولاية من حيث عدد السكان، وتسعى لتكون منطقة تجارية حرة..!

تَركتُ الشاب والسياح يكملون تعرفهم على المدينة، وسرت منفردًا أجوب شوارع المدينة، ولابدّ أن يخالجك إحساس وأنتَ تجوب شوارع تامبا، ويظل يراودك إلى أن تقع أسيرًا للمدينة وتشعر بأنك استسلمت لها من غير مقاومة، ربما بسبب عشق قديم لكل ما يأتي من الثقافة اللاتينية التي تجدها هنا في كل التفاصيل كرائحة أو طعم يلح ليذكرك بالتوابل المكسيكية الحارة وتجده في شوارعها ومبانيها القديمة وتفاصيلها وفي كل شيء..

ربما لأنّها تعطيك شعورًا بأنّها مدينة نسائية، لأنَّ فيها أجمل نساء الأرض فلا تتمالك نفسك من الوقوع في حب وغرام من طرف واحد بعد أن يصاب قلبك بسهام فتنتهن..

إنّك فعلاً مجنون، تجيد ممارسة فن اللامبالاة، ها أنتَ في خضم أحداث جسيمة ستؤثر حتمًا على حياتك وعلى حريتك ومع ذلك لا يزال قلبك يهفو للحب، وللتمتع بالحياة، وممارسة هوايتك في نكران الذات والتنكر لكل ما يربطك بالعالم الواقعي، ها أنتَ تعود لتعيش في عالم الأوهام، ذلك العالم الجميل الذي ترفض الخروج

منه، لكن كيف يمكنك تجاهل ما يحدث حولك أو ما قد يحدث لك! تجوب طرقات المدينة تشدك الأحياء القديمة، والمتاحف المتنوعة، يهطل عليك المطر وأنت تجوب الشوارع فتكمل سيرك لأنَّ المطر هنا جزء من الثقافة اليومية لا تتوقف الحياة بهطوله، لقد اعتاد الناس على المطر منذ أن كانت هذه المدينة مجرد منطقة موحشة يقطنها الهنود الحمر فاشتقت اسمها من كلمة «كالوسا» التي تعني البرق في لغة سكان المنطقة الأصليين من الهنود الحمر.

تنتقل إلى الضفة الأخرى فتجد نفسك في مدينة بطرسبيرج، ثمة متحف لسلفادور دالي تجد نفسك تدخله وتجد نفسك تعيش داخل لوحاته، محاطًا بإطار خشبي مذهب، فتخرج من المتحف هاربًا قبل أن يتم احتجازك بين بقية معروضات المتحف، وما أن تخرج حتى تجد نفسك على رصيف لليخوت، تتسكع فيه، تأسرك اللوحة الطبيعية، المياه الزرقاء المتلألئة، اليخوت البيضاء، الخضرة وطيور مالك الحزين التي تستوطن المكان، إنها صورة ربانية رائعة مفعمة بالألوان..!

في المساء تكتشف ناد تعرٍ قريب من مقر إقامتك، وتجد العاملات فيه من الحسناوات اللاتينيات يتمخترن كعارضات الأزياء أمام الزبائن المترعين، وثمة موسيقى بنفس الطعم رائعة ساحرة، تجعلك تشعر بأنك تعيش حلمًا جميلاً لا تريد أن تصحو منه، تتراقص الفتيات شبه العاريات على أنغام الموسيقي تقترب واحدة منهن منك، تطلب منك مشاركتها الرقص، لكنك كالعادة

تضطرب وتـزداد ضربات قلبك لدرجة أنّ الفتاة تكاد تسمعها، وتبقى خائبًا فتعتذر بأنك لا تعرف رقصة التانجو ولا التشاتشا ولا السامبا، لكنها لا تفارقك من أجل دمجك في الجو العام فتبقى لترقص لك وحدك، وإمعانًا منها في تعذيبك ترتمي في حضنك، تحتضنك بجسدها العاري، تلصق صدرها العاري تمامًا على وجهك، فلا تتمالك يديك وهما تعصران نهديها برفق، ثم فخذيها ومؤخرتها العارية، لكنّها تزيل يديك، وسرعان ما تعاود يديك ممارسة الشقاوة، فتمسكان بخصرها، تحاولان فك قيوده، وإزالة ما تبقى عليه من ملابس والتي ليست سوى قطعة صغيرة لا تخفي شيئًا، تبعد الفتاة يديك مرة أخرى، وهي تشير لك بسبابتها بطريقة مسرحية مشاغبة، تفيق من المشهد الذي يبدو كالحلم على جلبة في الخلف فتجد أنَّ أحد الأعراب قد دخل في خلاف مع رجال الأمن، فتنسحب بهدوء خشية أن يُزج بك في أتون خلاف ليس لك به علاقة..

تقضي أسبوعًا في تامبا، مرَّ خفيفًا لطيفًا وكأنّه يوم، تتردد على نادي التعري لأنك وقعت في حب الفتاة اللاتينية التي تراقصك كل ليلة، لكنك لم تخبرها أنّك تحبها، لأنك لا تملك مالًا لتشتري وقتًا معها، فيبقى حبك من جانب واحد، إلى أن تشعر أنّه قد حان وقت الرحيل..

تشعر بأنّ مكوثك في هذه المدينة جاء كبلسم لمحارب قديم مثخن بالجروح، وكأنّها استراحة أزاحت عن كاهلك هموم السنين،

لتنفض شقاء الأيام، وتعب الترحال في محطات الحياة التي نعيش فيها كعابري سبيل في رحلة العمر الطويلة، بضعة أيام كانت كافية لتبيع خلالها بضعة خدمات صحفية لصحيفة محلية تصدر بالإنجليزية والإسبانية.

تقف أمام الخليج، البحر مضطرب، والسماء مكفهرة تنذر بطقس سيء، وأمامك سفر طويل، ثمة نسمات باردة رجوتها أن تصفي عقلك المشوش وثمة هاجس يدفعك إلى المكوث في هذه المدينة التي تعلق بها قلبك المضطرب..

الفتاة اللاتينية الحسناء لا تزال تداعب مخيلتك، بعد أن وقعت في غرامها من طرف واحد كغرامك بهذه المدينة، الاتجاهات مفتوحة وليس لديك هدف أو بوصلة، تطلعت نحو الجنوب فخفق فؤادك نحو هافانا التي قد تُغري بالتوغل جنوبًا في مدن أميركا اللاتينية، فليس أفضل منها مكانًا للهروب، وربما لاستعادة مغامرة مجنونة قمت بها قبل سنوات، غير أنك تذكرت كلام العرافة الغجرية المجنونة، فنظرت نحو الغرب، بل وشعرت بأنّه يناديك، عليك مواصلة الهروب إلى الأمام، إلى المجهول، فذلك قدرك الذي لا مفر منه وعليك أن تؤمن بذلك.

تسترجع كل ما حدث خلال الأيام القليلة الماضية، تتذكرها، تراها في جسد تلك الفتاة اللاتينية، وتشعر بكراهية الذات، لو كان الاستقرار مباحًا لما تركت هذه المدينة، ولما تركت تلك الحسناء، ولاستجمعت كل شجاعتك لتفوز بقلبها، غير أنّ قلبك لطالما تعلق

بمدن كثيرة، النساء تجعلنا نتعلق بالمدن، إنّهن كالمرافئ التي ترسو فيها قلوبنا، لكن قلبك كتب عليه أن يبقى هائمًا حائرًا إلى الأبد يبحث عن مرفأه الذي حتمًا لن يجده إلى الأبد.

تقرر إكمال المسير باتجاه غروب الشمس، عابرًا مُدنًا وولايات أميركية، تكمل دائمًا إلى الأمام بدون خارطة طريق، تودع حارس الفندق ذلك المهاجر اللبناني ذي السبعين عامًا والذي ألهمك بروحه المفعمة بالحيوية والشباب والمغامرة والعشق، وبقصصه التي لا تنتهي، يروي لك مغامراته وقصصه المشوقة المترابطة ببعضها كرواية طويلة والتي تبدأ في لبنان ومنطقة الخليج ولا تنتهي في أوروبا ولا في أميركا..

فتبحث عن عذر بعد ساعة أو ساعتين للخلاص بعد أن تشعر بنقص في الأكسجين فتتثاءب ويغزو النعاس عينيك فتنظر إلى الساعة فتجدها قد تجاوزت الثانية فجرًا..

في صباح اليوم التالي تترك المدينة الناعسة وهي غارقة في النوم، هانئة بليلتها الماضية، الفجر ندي مشبع برطوبة باردة لها رائحة كرائحة الأشجار والبحر ومياه حوض السباحة القريب من مدخل الفندق الذي ينبعث منه البخار..

شعرت بأنني أعيش كالعادة حالة سفر متواصلة، هكذا أنا على سفر دائم، أشعر بالحنين إلى الرحيل، كأنَّ ذلك انعكاس لإرث البدو الرُّحل الذي لا تزال بقاياه تسري في دمي، أشعر بالحنين إلى الوطن، وطني يسكنني أينما رحلت، يحتل جهة اليسار بين الضلوع،

الرحيل قدري ومصيري، ولا وداع لأنني أكره لحظات الوداع، فلم أُخبر تلك الحسناء عن قرار الرحيل، ولم يكن ذلك مهمًا فهي حتمًا لا تكترث، لأنني مجرد زبون، معجبٌ بأدائها الراقص..

ها أنا أسافر نحو المجهول، متسكعًا متصعلكًا، نحو الغروب، وجهتي قاتمة ضبابية، فقد ضيعت بوصلتي ومزقت خرائطي ورميت تذاكر سفري، ولم تعد لدي أي وثائق سوى تلك الوثائق المزيفة التي منحها لي ذلك الصديق القديم في كارديف.

الأفق مكفهر ينذر بالخطر والرياح عاتية، وبحري مضطرب، أمواجه عاتية متلاطمة، طريقي مسدود، وهلاكي محتوم، بحثت عن محطاتي في زمن التيه، في زمن الضياع والأطماع، زمن فاسد لم يعد يصلح لأمثالي، البقاء فيه للضباع، بعد أن رحلت عنه كل الأسود، فعُدت إلى الصراع من أجل البقاء، ألهث حتى أنهكتني السنون..!

قلبي مثخن بالجروح والأوجاع، وروحي هائمة في بحر الشجون، وفؤادي بالشوق مفجوع وبالحنين، والعرافة الغجرية المجنونة العجوز قالت إنّ سفري طويل مجهول وإنّ دربي خطير مرصود والحب قدري ومن أجله ضيعت آمالي وتخليت عن أحلامي وتركت الحرية ورائي، لكنّها ضحكت حين قالت إنّ الحب سيبقى أجمل الأقدار..!

تردد صدى صوتها: الحب أجمل الأقدار..! أجمل الأقدار..!

أخفيت سخريتي، كتمت ضحكتي، شعرت باليأس، داهمتني

هواجسي، شعرت بالخوف من المجهول، ومن الماضي السحيق الذي لا يفتأ يطاردني، وقد تخليت عن أسلحتي ودروعي، فليس أمامي سوى مواصلة الهروب حتى وإن كانت دروبي لا توصلني إلى بر الأمان، وحتى لو مللت الهروب، وسئمت العيش على حافة التسكع والتشرد كعابر سبيل، سئمت الغربة، وسئمت خيبات الأمل، بل وسئمت الحياة بعد أن فقدت روح المغامرة، وبعد أن فقدت جنون الحب لدرجة المجون، انتفضت، ثرت على ذاتي، حتى تشرذمت، وخلعت نفسي فما عُدت أملك بوصلتي ولا راحلتي ولا أحلامي ولا حريتي، وتخليت عن قلمي وأوراقي حتى فقدت ذاتي في الزحام، فترجلت واعتزلت، ولم يعد لي سوى تاريخي وذكرياتي التي أجترُّها لأتمكن من إكمال المسير..!

الآن أيقنت بعد فوات الأوان أن الحرية هي أوطاني، فعُدت إلى قوقعتي، أعيش وحيدًا معزولاً، أسيرًا لأشجاني، حبيسًا لأوهامي، أسير هائمًا في دروب وعرة لا بداية لها ولا نهاية..!

الفصل الثامن عشر

ترويض الخيول الجامحة

سارت بي الدروب إلى أن قادتني إلى «فورت ورث» بولاية تكساس، واسم المدينة يدل على أنّها قلعة أو حصن، وقد وصلتها ظهرًا ونزلت في فندق يتوسطها وهو قريب من كل شيء، المطاعم والمحال والمكتبة العامة ومقاهي ستاربكس..

يعود تاريخ هذه المدينة إلى زمن الحرب مع الهنود الحمر حيث تشكلت المدينة حول حصن بناه الرائد ريبلي ارنولد في عام 1849 بهدف حماية الشرق الأميركي من الهنود الحمر وحماية المستوطنين البيض من غزواتهم، وسُمي الحصن باسم الجنرال (وليم جنكنس ورث) تخليدًا لدوره في الحرب مع المكسيك.

جعلني ذلك أشعر بأنني أعيش في فيلم من أفلام رعاة البقر والغرب القاسي ممّا دفعني لمجاراة ذلك الشعور فوجدت نفسي أذهب إلى منطقة تسمى ستوك يارد التاريخية، التي ما زالت تحافظ على مبانيها التاريخية القديمة التي تعود إلى 100 عام، ودخلت حلبة للروديو حيث يتنافس فيها المتبارين على ركوب الثيران وترويض الخيول الجامحة فوجدتني أجرِّبُ حظي وليس عندي لا خبرة ولا مهارة في المسألة، فرمتني الفرس بعيدًا وكدت أقضي تحت قوائم الثور الهائج، غير أنني نلت السلامة وتصفيق من الجمهور وإشادة من المعلق الذي أعتبرني مغامرًا قادمًا من الصحراء عابرًا البحار والقفار من أجل المشاركة في هذه المنافسة الودية..

ومن أجل ذلك دعاني بعض المشاركين من أبناء البلدة لإكمال بقية

السهرة في حانة تقليدية أيضًا، كل شيء فيها يعكس طابع الغرب القاسي، البناء الخشبي القديم والمصنوعات الجلدية التي تزين الجدران ورائحة الدخان التي تعبق المكان والموسيقى والأغاني الشعبية الشجية التي تحكي قصص الحب والهجران والترحال..

لا شيء ينقص المشهد إلا الحسناء التي ينشب عليها عراك يكون للبطل دور فيه وينتهي بفوزه بقلبها، وتخيلت نفسي بطل القصة التي تطورت إلى نزال بالمسدسات تمكنت فيها من قتل زعيم قطاع الطرق بطلقة واحدة فقط وطرحته قتيلاً مضرجًا بدمائه على أرضية الشارع الترابي الذي تذروه الرياح، وفي الخلفية موسيقى تصويرية مأخوذة من فيلم لكيلنت ايستوود..

اعتبرت هذه المدينة محطة رئيسية في رحلة هروبي من هذه البلاد، كما كانت في يوم من الأيام محطة رئيسية يتجمع فيها رعاة البقر استعدادًا لرحلتهم الطويلة إلى أوكلاهوما التي يبيعون فيها مواشيهم..

بعد أن قضيت بعض الوقت في الاستكشاف الثقافي لتاريخ وتراث المدينة، عُدت متأخرًا منهكًا إلى مقر إقامتي، ثمة آلام في ضلوعي من أثر السقطة من على ظهر الفرس الجامحة، وخضة الثور الهائج، وفي الطريق شعرت بحنين إلى الوطن، لا أعلم ما الذي يحرك ذلك الحنين والشوق، غير أن الوطن يسكننا في الحل والترحال، لأنّنا نحمله في الصدور، ومهما ابتعدنا يبقى القلب معلقًا به، أما الروح فيبدو أنها تغادر الجسد كلما دخلنا في غيبوبة النوم فتعود إلى

أوطاننا ولذلك نشعر في اليوم التالي بنوع من حضور الوطن في الوجدان..

سائق الحافلة الأمريكي الأسود أصرّ على أن يوصلني إلى أقرب محطة من مقر إقامتي في فورت ورث خشية على سلامتي فهو يرى أنّ من الخطر على أمثالي السير ليلاً في مثل هذه المدينة التي تعج بالمكسيكيين والذين يعمل كثير منهم ضمن عصابات منظمة كما يقول، بل إنّه أصر على أن لا يأخذ قيمة تذكرة ركوب الحافلة فهذا أقل شيء يمكن أن يقدمه إلى «أخ» غريب مثلي حسب ما يقول..!

غير أنني عندما ترجلت وعلى الرغم من تحذيراته مشيت في شوارع المدينة بحثًا عن مكان لا يزال مفتوحًا لتقديم الطعام، فقد كنت أشعر بالإنهاك وبالجوع من جرّاء سفر طويل متواصل عبر البلدات الحدودية طوال ذلك اليوم..

ثمة حانة ملحقة بنادٍ ليلي، لم أجد غضاضة من أن أدخلها مختلطًا بالزبائن معتمدًا على مظهري الذي يوحي بأني من أصل لاتيني، وفيما كنت أتناول الطعام اقترب مني أحدهم مترنّحًا واصطدم بكتفي، نظرت إليه بعنجهية ورفعت إبهامي لأرد عليه التحية دون أن أتحدَّث حتى لا أكشف هويتي، فما أعرفه من الإسبانية قليل، عندما أتحدث بها قد تنطلي على الأمريكان لكنّها حتما لا تنطلي على متحدثيها..

عُدت لتناول طعامي متجاهلاً تعليقات الرجل الذي لم أفهم من كلامه سوى «كوول مان» وربما تعني «رائع يا رجل» أو هكذا فهمت

فاكتفيت بأن هززت رأسي شاكرًا..!

غير أنّه لم يكتف بذلك واعتبر تجاهلي له احتقارًا، وربما أراد أن يثير انتباهي بسكب المشروب عليّ، غير أنّه ومن غير قصد سكبه عن طريق الخطأ على الجالس في المقعد المجاور ما جعله يشتاط غيضًا، وينفجر في وجهه فيرد عليه بسيل من اللكمات وبدفعة قوية جعلته يترنح ليسقط على رجل آخر ممّا جعل الأمور تتطور بتسارع حتى اشتعل شجارًا تورط فيه معظم رُوّاد الحانة.

لم أكترث بكل ما يحدث وحملت طعامي وانتقلت إلى زاوية بعيدة عن الفوضى وجلست أكمل تناول الطعام، وقبل أن أغادر طلبت مشروبًا غازيًا لأحمله معي وأنا أترك المكان بعد أن تحوّل إلى فوضى عارمة..

قبل أن أبتعد دخلت إلى النادي الليلي المجاور فوجدت أنغامًا ذات نكهة لاتينية فتوقفت قليلاً فلا يمكنني مقاومة هذه الموسيقى التي تنقلك إلى عالم خيالي..!

لم أشعر بالوقت وأنا أراقب الراقصين وهم يتمايلون طربًا على تلك الأنغام الشجية، وخرجت بعد أن هدأ كل شيء لأجدني أسير وحيدًا في الشارع في ساعة مبكرة قبيل الفجر..

الأجواء منعشة والهدوء والسكون يعمّان المكان لدرجة أنني شعرت أنّها حالة استثنائية وغريبة خصوصًا بعد يوم شاق مليء بالأحداث المتواصلة والغريبة..

في اليوم التالي اكتشفت أن ثمة مطعم قريب من مقر إقامتي تعمل

به فتاة عراقية حسناء قالت إنّها أمضت الثلاث سنوات الأخيرة هنا في تكساس، ولذلك صار هذا المطعم مكاني المفضل، قد أمر به لأتحدث إليها، فلم يعد بإمكاني تحمّل ثمن وجباته، غير أن الفتاة تجعلني أشعر بالألفة للمكان أتزوّد بها لمقاومة آثار الشعور بالغربة.

غير بعيد كثيرًا عن فورت ورث تقع مدينة دالاس التي اغتيل فيها الرئيس الأميركي جون كينيدي، كان هناك بعض السيّاح الذين حرصوا على التقاط الصور التذكارية في مكان الحادث وكان الجو ماطرًا والمدينة شبه خالية فهو يوم الإجازة الأسبوعية، وهو أيضًا يوم عطلة دينية، كان هناك رجل أسود يبيع الورد للعابرين بطريقة ذكية، فهو يقول للسيدة التي تمشي بجانب رجل أن تُقبل رجلها فيعطيها وردة حمراء مكافأة لها ثم يطلب ثمن الوردة من الرجل الذي تلقّى القبلة، وقد لاحظ البائع الذكي أنني أراقبه فسألني من أين أكون، فقلت: إنني مواطن عالمي من سكان الأرض..!

وضحكنا وربما علق تعليقًا طريفًا قبل أن ينطلق كل منّا إلى حال سبيله..

بحثت في هذا المكان عن مقهى؛ أستجير به من المطر ولأحتسي قهوة ساخنة علّها تشعرني بالدفء، لكنّ المقاهي لا تفتح في مثل هذا اليوم، توجد بعض الحانات لكنّها لا تبيع القهوة..

وهكذا أكملت سيري في البرد والمطر مستجيرًا بجدران المباني ومظلات الواجهات الأمامية للمحال أو مداخل البنايات..

الفصل التاسع عشر

حسناء القطار

تُغازلك المناظر الطبيعية الخلابة ذلك الصباح الجميل عبر النافذة الزجاجية للقطار السريع المتجه غربًا إلى لوس أنجلوس وأنتَ تجلس واجمًا على الكرسي الجلدي متأملاً، تتمنى لو يتوقف القطار قليلاً لتنسجم مع روعة الطبيعة في مكان ما من هذه الأراضي الأمريكية الشاسعة..

السفر بالقطار يمنحك تلك الميزة التي قد لا يمكنك الحصول عليها في السفر بالطائرات أو حتى بالسيارة فهو يمنحك متعة مشاهدة الطبيعية الرائعة التي تعبر بها سكة الحديد خصوصًا هنا في الغر ب الأمريكي الذي يمكن وصفه بأنّه أجمل ما خلق الله من طبيعة، السكك الحديدية تمر بعيدًا عن الطرق المعبدة والمدن أو القرى فتتجلى الطبيعة كما هي بجمالها وروعتها..

تذهب إلى مقصورة الطعام حيث يمكنك ممارسة الانسجام مع الطبيعة وأنتَ تتناول طعامك لأنَّ النوافذ في تلك المقصورة تمتد إلى أرضية المقصورة فتسمح لك بمشاهدة المنظر كاملاً..

ثمة حسناء تجلس وحيدة تتناول قهوتها الصباحية، اقتحمتُ عليها خلوتها وربما انسجامها مع الأجواء، حدثتها عن الطبيعة الخلابة وعن مشاهداتي في الولايات الأمريكية وعن مغامراتي وشغفي بالترحال، وحدثتها عن رحلتي إلى غابات الأمازون المطيرة وعن اكتشافاتي في أدغال أفريقيا، وحدثتني هي عن شغفها أيضًا بالترحال وأنّها في طريقها إلى الوطن بعد جولة في عدة ولايات

أمريكية صادف أنني زُرتها أيضًا فتشاركنا الاهتمامات لدرجة أنني كدت أجزم أنني أعرف هذه الفتاة منذ زمن بعيد..!

كدت أن أتغزل بها وبجمالها وأخبرها عن مدى إعجابي بها من أول نظرة، غير أنني قبل أن أنطق بالكلمات التي يُعدها عقلي وجدت شابًا وسيمًا يقف بجواري، نظرت هي إليه مبتسمة وقاطعتني لتعرفني عليه، قالت إنّه صديقها الذي تسافر معه، وانضمّ إلينا هو الآخر في حديث طويل عن السفر ومغامراته واكتشافاته..

الأمريكان طيبون وودودين وكثيرًا ما تجد نفسك تشاركهم نفس الاهتمامات ونفس الثقافة ونفس الطعام ذلك أنّ ثقافتهم غزت العالم فاعتنقها أكثر من ثلثي سكان الأرض..

عندما عُدت إلى مقصورتي في القطار السريع الذي ينهب بنا الأرض نحو أقصى الغرب الأمريكي وجدت نفسي وحيدًا، نظرت من النافذة الزجاجية فلم أرَ غير أراضٍ شاسعة قاحلةٍ موحشة، فتعمقت لديّ مشاعر الوحدة لدرجة الوحشة، وهاجمتني هواجسي وداهمتني مخاوفي ووجدت نفسي أمارس كراهية الذات مرة أخرى..!

كم مرة عاهدت نفسي على ألا أبقى وحيدًا حتى لا يتسرّب اليأس إلى وجداني المفجوع، وحتى لا أجلس محزونًا مهمومًا لا أجد غير لوم النفس وكراهية الذات، لأنني ضيعت قلبي ذات يوم بتصرفات صبيانية حمقاء، كان نتيجتها ضياع وكراهية ذاتي، بل وما آلت إليه الأمور من تهم بدعم الإرهاب وهروب نحو المجهول..!

لابدَّ أنّ حسناء القطار تلك ذكرتك بها فهيّضت الأشجان، وألهبت المشاعر، رُبّما لأنّها تشبهها كثيرًا، ضحكتها، شعرها، أنفها، بل وحتى ما تفعله بشفتيها عندما تبتسم..!

ها أنتَ تعود إلى غَيِّك القديم، كعاشق مجنون، تلك القصة لا تحمل لك سوى الأحزان والآلام، وكأنك لم تعد تفرق بين النساء، وكلما رأيت حسناء تراها بصورتها وتراها تشبهها..!

لا تجد الآن إلا اجترار الذكريات، ترى ألم يحن الوقت بعد للنسيان ولاستمرار الحياة..؟

لابدَّ من الغفران ومسامحة الذات فما فات قد مات..!

لن يفيد بعد كل هذا الزمان مواصلة البحث عنها في كل مكان، لم تترك أرضًا ولا وطنًا لم تفتش فيه، والآن قد حان وقت النسيان، إنّها مجرد أوهام لابدَّ أن تفيق منها، حان الوقت لتصحو من أحلامك التي جعلتك لا تفرق بين الحقيقة والخيال، اتركها وعِش ما تبقى من سنوات عمرك البائسة..!

صوت القطار وهو يعبر فوق خطوط السكة الحديد يبعث على الرتابة، يقطعه أحيانًا صوت صليل الحديد ربما بسبب احتكاك وصلات العربات بعضها ببعض..

مرت برهة لم أشعر فيها بالوقت يمضي، ربما غرقت في بحر أحلام اليقظة أو لعلي غفوت قليلاً غير أنني وجدت القطار يتوقف في المحطة فحملت أغراضي وغادرت وحيدًا وما إن غادر القطار حتى اكتشفت أنّها لم تكن محطتي بل هي محطة فرعية بائسة..!

وجدتني وحيدًا مرة أخرى، وكان ثمة رجل عجوز يجلس وحيدًا في كشك منهمك بشيء ما، اقتربت منه وسألته عن أقرب قطار يصل إلى هذه المحطة، أجاب بأن قطارًا يتجه إلى لاس فيجاس سيصل بعد ساعة..

تجولت في المحطة ولم يكن بها شيء ملفت، بل أنني شعرت أنّها تعود إلى بدايات القرن الماضي وكنت كالقادم من المستقبل، نظرت إلى الرجل العجوز مرة أخرى فرأيته يضحك لوحده، تجاهلته وجلست على كرسي خشبي بانتظار القطار المتجه إلى لاس فيجاس أو مدينة الخطيئة..!

الفصل العشرون

أحلام الصحراء

مضت أكثر من ساعة ولم يصل القطار الذي يتجه إلى لاس فيجاس كما قال لي آمر المحطة العجوز والذي قررت أن أستقله بالرغم من أنّ وجهتي ليست إلى هناك..

شعرت بالملل من الانتظار فعُدت إلى الرجل العجوز الذي لا يزال يقبع في مكتبه الصغير في المحطة، سألته عن القطار الذي تأخَّر عن موعد وصوله، فضحك مرة أخرى وقال ساخرًا: إنّكم معشرُ الشباب دائمًا على عجل ولا تعرفون معنى الانتظار، إذا أردت شيئًا فعليك التَّحلي بكثير من الصبر، القطار حتمًا سيصل في النهاية، لا تستعجل فكلنا راحلون..!

لم أفهم ما يقصد، وتركته ليكمل ضحكاته المجلجلة، تجولت في المحطة بحثًا عن أحد غيره لأسأله، ولم يكن في المحطة أحد غيري وذلك العجوز الساخر وكلب عجوز هزيل بائس، مشيت قليلاً خارج المحطة باتجاه الغرب ووجدتني أكمل طريقي سيرًا على الأقدام نحو أقرب بلدة من هذه المحطة، وهي بلدة صغيرة يطلق عليها اسم «ستينس» تقبع وحيدة معزولة وسط الصحراء في مكان ما من ولاية أريزونا الأمريكية، والتي لا تبعد كثيرًا كما كُتب على لافتة خشبية بائسة..

الطريق موحش وسط هذه الصحراء القاحلة، وشعرت مرة أُخرى كأنني محتجز في لقطة من أفلام «الويسترن»، وتمنيت لو أنَّ لدي حصانًا لأعبر به هذه الفيافي والقفار..

ثمة زوابع رملية على شكل دوامات تعبر لتتماهى في الصحراء في الجهة الأخرى من الطريق الذي يبدو طويلاً لا نهائيًا وهو يتلوّى ككائن أُسطوري أسود وسط هذه الصحراء اللامتناهية..

تعززت لدي هواجس التيه في هذه الصحراء والشمس تقترب من المغيب، فشعرت بالندم لمغادرة المحطة وفكرت في العودة غير أنّ أضواء البلدة ما لبثت أن بدأت تظهر أمامي..

عندما وصلت إلى البلدة كان مظهري لا يختلف كثيرًا عن السكان المحليين، وكان سهلاً أن أندمج وسط الناس كأي عابر سبيل قادم من القرى أو البلدات المجاورة، دخلت إلى المقهى الوحيد في البلدة وتناولت الطعام ثم دلتني السيدة البدينة اللطيفة التي تدير المقهى على النزل الوحيد في البلدة ويديره رجل مظهره نحيف وبائس، لم يعرني أيَّ اهتمام، تحدث معي بالإسبانية وهو يناولني مفتاح غرفة أرضية في الباحة الخلفية..

ورغم الإرهاق غير أنّ النوم جافاني تلك الليلة، وفي الصّباح خرجت مبكرًا من النزل وعُدت إلى السيدة اللطيفة في المقهى، تناولت الإفطار وسألتها عن كيفية مغادرة هذه البلدة..!

فنصحتني بأن أستقلَّ حافلة ستغادر البلدة قريبًا إلى «سيلفر سيتي»، ووصفت الحافلة بأنّها وسيلة المواصلات الوحيدة المتوفرة لهذا اليوم..

قبيل ظهر ذلك اليوم توقفت الحافلة البائسة في استراحة جانبية بها محطة للتزود بالوقود في الطريق السريع إلى «سيلفر سيتي»،

فوجدت حافلة أصغر متجهة إلى «ويل كوكس» فتطفلت عليها لأنَّها قد توفر عليّ الوقت والمسافة، خصوصًا أنّها على نفس خط سير رحلتي الطويلة، بينما «سيلفر سيتي» تجعلني أعود إلى الخلف عكس اتجاهي..

في «ويل كوكس» حتمًا سأجد قطارًا يُوصلني إلى «توكسون» التي يوجد بها محطة قطارات مركزية لأنتقل منها إلى «سان دييغو»..

الواقع أنَّ الحافلة كانت تحمل فرقة موسيقية مغمورة تسافر في جولة في هذه البقاع التي لا تصلها الفرق الغنائية المعروفة، غير أنَّ غيرهم كثيرون يجوبون الأراضي الأميركية بحثًا عن مستقبل أفضل ويطاردون أحلامهم، تلك المطاردة صدَّعت رأسي بعزفهم التدريبي غير المتجانس على آلاتهم الموسيقية الإيقاعية..

فجأة توقفوا عن العزف وأخذ أحدهم يُدندن ويعزف على جيتار يحتضنه برفق فأخرج موسيقى حالمة جعلت رحلتنا الطويلة تعبر بسلاسة، وأدخلتني في عالم التأمل مع الذات، ربما لأبحث عن أحلامي التي أُطاردها حينًا وأهرب منها أحيانًا كثيرة..

كلٌّ منّا لديه أحلامه، لكنّها قد تبقى لدى كثير منّا مجرد أحلام لا يؤمن بتحقيقها، بينما يسعى آخرون بجهد وجدية لتحقيقها لأنَّ لديهم إيمانًا قويًا بأنّ لا شيء مستحيل..!

لم أعرف إلى أيّ فريق أنتمي، غير أنني عشت أحلامي كأنّها واقع، لدرجة أنني لم أعد أُفرق بين الواقع والأحلام حتى بِتُّ أجزم بأننا نعيش جميعًا في مرحلة الأحلام وعندما نموت ننتقل إلى مرحلة

الواقع..!

تلك الفكرة سحبتني إلى مكان آخر، فلطالما حلمت كثيرًا بل وبنيت أبراجًا من الأحلام لم يتحقق منها شيء، ربما لأنني بت أعيش كالطريدة، هاربًا من أشباح الماضي لدرجة لم يعد لديَّ وقت لالتقاط أنفاسي والتفكير في الأحلام أو في المستقبل..

في الخارج، من نافذة الحافلة، يتراءى لي السراب من بعيد، تمامًا كما هي أحلامي التي تبقى كما هي مجرد سراب، على الإسفلت الباهت كانت الخطوط البيضاء المتقطعة تتسابق حتى شعرت أنّها تشبهني فهي تجاهد مثلي للّحاق بما فات فلا أُلحق بما فات ولا أصل لما هو آت، وأشعر بأنني لا زلت في مكاني لا أُبارحه، رغم أنني أجوب الآفاق بحثًا عن ذات هائمة في صحراء الشجون..

الفصل الحادي والعشرون

فتاة سان دييغو

تبهرك الأضواء الساطعة في سان دييغو التي وصلتها مساءً منهكًا، رغم الانتعاش الذي تشعر به جرّاء الطقس الرائع في مثل هذا الوقت من العام، والذي يكتنف المدينة الناعسة المستلقية على ضفاف المحيط الهادي..

بعد أن نزلت من القطار سرت بمحاذاة البحر متأملًا مياه المحيط، أضواء المباني الشاهقة تتلألأ من بعيد، بينما يُبهرك جسر «البارون» الذي يربط نصفي المدينة بأضوائه التي تبدو كأنّها جسر مشتعل على صفحة الماء..

شعرتُ بنوع من الحماس لعبور المحيط لأغادر هذه البلاد، أُواصل هروبي إلى الأمام، نحو غروب الشمس، وربما لأزور قارات ومدن أخرى، ها أنا أخيرًا قد وصلت إلى أقصى الغرب الأمريكي، لم يبق أمامي سوى عدة مدن لأخرج من هذه البلاد، وربما لأعود إلى وطني أو أنتقل إلى قارة أخرى..!

كل ما أتمناه الآن، أن أحظى بوجبةٍ دسمةٍ شهية، وبمكان مريح أرتمي فيه، فأغرق في نوم عميق، بعد كل ذلك التعب والإرهاق جرّاء الترحال المتواصل في والقرى والبلدات في الطريق إلى هذه المدينة العصرية، غير أنني لم أحظ بشيء من ذلك في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، والميزانية المرهقة، وانتهى بي الحال في مطعم للوجبات السريعة ملحق بمحطة بنزين، ونُزُلٌ متواضع أقضي فيه ما تبقى من الليل، قبل إكمال الرحلة في الصباح الباكر إلى لوس

أنجلوس..

لا تخلو قصة المدينة من غرابة أو غموض قد يستهوي أمثالي ممّن يقضون حياتهم كعابري سبيل بين المدن، تعتبر هذه المدينة واحدة من أقدم المناطق المأهولة بالسكان، فقد سكنها شعب «كيومياي» قبل عشرة آلاف عام، اكتشفها لأول مرة الرحالة البرتغالي «خوان رودريغز كابريو» عام 1602 ورفع عليها العلم الإسباني فوق المناطق التي كان يقطنها الهنود الحمر من عشيرة «دييغينيو»، وهي الآن سادس أكبر مدينة في الولايات المتحدة، عدد سكانها يزيد على مليون ونصف نسمة، وتتألف من عدة بلدات تنتشر على مساحة واسعة، أشهرها «لا هويا» وتعني الجوهرة بالإسبانية..

وصلها أوائل المُعمّرين من الرهبان الإسبان قبل 232 سنة، وأنشأوا كنيسة البعثة الكهنوتية التي هاجمها الهنود الحمر وأحرقوها وقتلوا الرهبان، وما زالت الكنيسة التي أعيد بناؤها على بعد عشرة كيلومترات في الداخل قائمة حتى الآن فيما يسمى وادي البعثة (ميشن فالي)، وهي حاليًا منطقة للأسواق والمخازن الكبيرة الراقية.

في الصباح الباكر وجدتني أصعد إلى قمة جبل سوليداد، من هنا يمكنك رؤية المدينة بأكملها وصولاً إلى المكسيك، ترى الصحراء خلفك والبحر أمامك ولا مفر من استكشاف هذه المدينة الرائعة، فتغوص بين شوارعها لتكتشف أنَّ المدينة القديمة تحفل بالمتاجر والصناعات اليدوية والمطاعم المكسيكية، وحديقة بالبوا تحتوي

على 15 متحفًا ومسرح «أولد غلوب» المشهور.

وقبيل الظهر، بحثت عن أرخص وسيلة نقل تخرجني من سان دييغو، خصوصًا أنّ المسافة لا تبعد كثيرًا إلى لوس أنجلوس ربما ثلاث ساعات أو أكثر بقليل..

تمشي قليلاً إلى خارج المدينة إلى أن تجد نفسك على قارعة الطريق السريع، تعبر أمامك سيارات كثيرة لا تعيرك انتباهًا لكنك تبقى صامدًا منتظرًا، يمضي الوقت، تشعر بالملل، تكمل المسير، وكلما مرَّت سيارة ترفع إبهامك بإشارة متعارف عليها، قد ينظر إليك سائق السيارة لكنه لا يتوقف ربما لأنَّ مظهرك البائس لا يعجبه، فلا تهتم فعابري السبيل ليسو متأنقين على أية حال.

بدأت أشعر بالندم وألوم نفسي لأنني لم أركب الحافلة، غير أنني رجحت أن أجد واحدة من تلك الشاحنات التي تعبر الولايات المتحدة برًا محملة بالبضائع، غير أنّها على ما يبدو لم تعد تعبر من هذا الخط السريع بسبب الحظ العاثر كالعادة، لكن لم يدر بخيالي أبدًا أن تتوقف بمحاذاتي سيارة بائسة تقودها فتاة، شكرتها على التوقف، وأخبرتها أنني أُسافر غربًا، فرحبت برفقتي، وكررت شكري وأنا أنتقد بقية السائقين الذين لم يتوقف لي أيًّا منهم، فقد انتهى الخير في الناس في هذا الزمان..!

الواقع أنني لا أستطيع أن أصف الفتاة بأنّها حسناء، لديها شيء من الجمال لو أنّها تبرزه، كأن تخلع نظارتها الطبية السميكة التي تجعلها تبدو غبية، أو أن تطلق العنان لشعرها لينسدل بحرية

ويتطاير مع الهواء الطلق..

أردت مجاملتها كنوع من الامتنان على المساعدة، غير انني خشيت أن تعتبر ذلك نوع من الغزل أو التحرش، فحدثتها عن الطقس الرائع الذي جربته في هذه المدينة، وحدثتها عن أسفاري، وعن خططي، وعن أحلامي، وعندما سألتها عن أحلامها انفجرت باكية، فاعتذرت منها وطلبت منها أن توقف السيارة لأتمكن من مواساتها حتى تهدأ، ثم أمسكت يدها وطلبت منها أن تسمح لي بقيادة السيارة ريثما تستعيد ذاتها..

بعد أن أوقفت السيارة وجدتها ترتمي في حضني بحجة تبادل الأماكن، شعرت بنوع من الحرج، ووجدتني من غير قصد ممسكًا بصدرها، ثم كتفيها لأزيحها من فوقي لأتمكن من الانتقال إلى كرسي السائق، لنكمل المسير..

لم تشأ أن تتحدث، وقد كانت مُحرجة وهي تمسح دموعها، ووجدتني في موقف غريب، وقبل أن أستوعب الموقف وجدت سيارة الشرطة تأمرني بالتوقف..

يا إلهي، لقد وقعت في ورطة، تسارعت ضربات قلبي، دارت في رأسي عدة أفكار بشكل سريع، فكرت في الهرب فليس أمامي حل آخر، فقد تكشف الشرطة هويتي الحقيقية، خصوصًا أنني لا أحمل رخصة قيادة، بل وأنّ لدي مصيبة أُخرى، فحتمًا سيعتقد الشرطي أنني فعلت شيئًا بهذه الفتاة فهي تبكي بشدة، الحدود المكسيكية ليست بعيدة من هنا، و..

لاحظت الفتاة ارتباكي واضطرابي، وقاطعت أفكاري فشدت على يدي وهي تقول: لا تقلق واترك الأمر لي..!

نظرت في المرآة الجانبية، الشرطي يتجه نحوي وهو يضع يده على قراب مسدسه، شعرت أنَّ قلبي يكاد يقفز من مكانه، نظرت إلى الفتاة، قالت لي لا تخف ودعني أتولّى الحديث..!

تفقد الشرطي السيارة ونظر إلينا، فرأى آثار البكاء على وجه الفتاة، سألها إن كانت بخير، فأجهشت بالبكاء مرةً أخرى..!

ردَّدتُ في سري: لا حول ولا قوة إلا بالله..

حاولت تهدئتها، فأمرني الشرطي بالترجل من السيارة فورًا رافعًا كلتا يَدَيَّ في الهواء بناءً على تعليماته، ويبدو أنّ زميله رأى المشهد فجاء شاهرًا مسدسه للمساندة..

أمرني الشرطي بوضع كلتا يدَيّ على سقف السيارة ليتسنى له تفتيشي، وفي تلك اللحظة ترجَّلَتِ الفتاة وقد اقترب منها الشرطي الآخر محاولاً معرفة سبب بكائها، وسألها إن كنت قد آذيتها أو ضربتها أو إن كنت قد أجبرتها على شيء..

قالت: عذرًا، وهي تكفكف دموعها، دعوه فليس له ذنب، إنّه صديقي الوحيد، سألها الشرطي عن سبب بكائها..!

لم تُجِب، وبعد صمتها وإصراره لمعرفة السبب خشية أن تكون ضحية، نظرت إليَّ ثم أخبرتهم أنني حبيبها الذي يريد هجرانها، وأنّها تخلت عن كل شيء من أجل الحبيب الذي قرّر السفر وتركها وحيدة، قالت ذلك وانفجرت باكية مرة ثالثة..!

تعاطف الشرطيان معها وأنّباني، بل وربما كان في حديثهما تهديد ضمني، كنت مذهولاً من حديث الفتاة غير أنّه كان وسيلة إنقاذ، ولذلك جاريت القصة ووعدت بأن أعتني بها وألا أهجرها أبدًا..!

توليت قيادة السيارة مرة أخرى على الأقل ريثما نبتعد عن أنظار الشرطة، كنت واجمًا صامتًا، أُفكر في كيفية الخلاص من هذه الورطة، ابتسمت عندما دار بخلدي أن تكون الفتاة مريضة نفسية ولديها عقدة اضطهاد أو أنّها تعيش حالة وهم ناتجة عن انفصام في الشخصية، فذلك آخر ما ينقصني، ولذلك قررت الهرب في أقرب فرصة، فانتظرت حتى نتوقف في استراحة على الطريق..!

فجأة انفجرت الفتاة ضاحكة وهي تنظر نحوي، قالت: هل أثرت إعجابك؟ قلت: نعم، أنتِ ممثلة بارعة لقد انطلت عليهم القصة.

قالت: أية قصة..؟

فأعدت عليها قصتها عن هجران الحبيب أمام رَجُلَيّ الشرطة.

قالت: هل تعني أنني لا أُعجبك؟

قلت بحذر متوجسًا أن تنفجر باكيةً مرةً أخرى: بالعكس إنكِ فتاة جميلة وذكية، غير أنني مجرد عابر سبيل..

قالت: لا بأس سأرافقك أينما تذهب..!

مرَّت بُرهة صمت ونحن نعبر الطريق السريع إلى لوس أنجلوس وأنا أُفكر في طريقة للخلاص من هذه الفتاة المجنونة التي سرعان ما تحولت إلى فتاة مرحة ظريفة، وقد أطلقت العنان لنفسها فكانت طوال ما تبقى من الرحلة تُغني وترقص على أنغام موسيقى «البلوز»

المنبعثة من مذياع السيارة..
من يراها قد يعتقد أنّها مخمورة غير أنني واثق من أنّها في كامل وعيها، إنّه مجرد تعبير عن السعادة..
وصلنا لوس أنجلوس ولم أجد بعدُ فرصة للهرب، المدينة ساحرة غير أنَّ ذهني مشغول بالورطة التي لم تسمح لي بممارسة هوايتي في الاستمتاع بجماليات المكان..
شعرت بأنَّ الوقت قد حان لأكون صارمًا حازمًا، وعندما توقفت في وسط المدينة، شكرت الفتاة على المساعدة وأخبرتها بحزم أنني تأخرت وأنَّ موعد رحيلي قد حان، وأنني سأعبر المحيط وأنَّ أمامي سفر طويل..
غير أنّها ابتهجت وتحمست للسفر، وقالت إنّها فكرة عظيمة وأنّها تحلم طوال عمرها بأن تجوب العالم برفقة فارس أحلامها، غير أنّها تحتاج إلى شراء بعض المستلزمات والملابس..
أصررت على أنني أسافر وحيدًا، ولا حاجة لي بالرفيق، وشكرتها على كل شيء، مؤكدًا أنّ الوقت قد حان لنفترق..
كنت فعلاً قاسيًا عليها فلم يكن سهلاً إقناعها بأنني مجرد عابر سبيل، وقد حان الوقت لكي أكمل الطريق..
صمتت والدموع تغرق خديها وهي تنظر إليّ بعيون حزينة دامعة، شعرت بأنَّ عليّ أن أُواسيها، اقتربت منها واحتضنتها على مضض، ثم قلت لها بهدوء: اسمعيني جيدًا، أنت فتاة جميلة وذكية ويجب أن تشقي طريقك نحو النجومية، يجب ألا تُضيعي وقتك مع واحد مثلي

رحال لا يستقر به الحال، اتبعي أحلامك واعملي على تحقيقها، اذهبي إلى هوليوود فلديك مؤهلات لتصبحي نجمة، أما أنا فقد حان موعد رحيلي، وقد تركت قلبي ذات مرة في سان فرانسيسكو وسأعود لأبحث عنه..!

وتحدثت معها كثيرًا عن الأحلام والأفلام وعن السينما وكيف يُمكنها أن تبدع فيها، لأنّها ممثلة بالفطرة..

أعجبتها فكرة النجومية، غير أنّها أصرت أن تقضي معي أكبر وقت ممكن قبل عبور المحيط، ولذلك أصرت على السفر معي إلى سان فرانسيسكو التي تبعد نحو ست ساعات عن لوس أنجلوس فهي تعرف المدينة أكثر مني كما تقول..!

وهكذا عُدنا إلى الطريق وعقلي لا يزال مشغولاً بطريقة للخلاص منها على الرغم من أنني بدأت أستلطفها، غير أنني أعلم جيدًا أنني إن سمحت لنفسي بالانسياق واتباع الهوى فإن العواقب وخيمة، وأنني لا شك سأعود لممارسة كراهية الذات قبل أن اضيّع نفسي مرة أخرى..

كنت حذرًا طوال الطريق، لكن من أين لي بمزيد من الصمود لمقاومة أسلحة الفتاة الفتاكة التي أعرف أنني سرعان ما سأستسلم لرغباتها إن استمر الحال هكذا..!

كانت واجمة طوال الطريق، وثمة شعور غامض ينتابني بأنَّ ورائها ثمة قصة، لكنني تجاهلت الأمر فلا أُريد التورط معها أكثر، لم أكن في حالة تسمح لي بحل مشاكل الآخرين، وربما في منتصف الطريق

السريع توقفنا في استراحة جانبية لتناول الطعام، ولم أفتح معها بابًا للحديث..

صوت أنريكيه أجليشيس المنبعث من مذياع سيارة الفتاة هيَّض أشجاني، ونحن نعبر جسر البوابة الذهبية باتجاه سان فرانسيسكو، حتى شعرت بأنني سأجد قلبي الذي ضيعته هناك يومًا ما، شعرت بحاجة للحديث عن قلبي الضائع لكن صوتي تهدَّج، وشعرت بأنَّ الكلمات لا تريد الخروج من فمي، لملمت نفسي المبعثرة في تلك اللحظة ونظرت إلى الفتاة، كانت شاحبة متجهمة وهي تمسك بمقود السيارة بجدية..

ابتسمت متسائلة بغنج فيما أفكر عندما رأتني أراقبها، تجاهلت تساؤلها بابتسامة باهتة، وأخبرتها أنّ الوقت قد تأخر وأنّ علينا أن نجد مكانًا نقضي فيه الليلة..!

لم تعر كلامي اهتمامًا وقادت السيارة في صمت، نظرت إلى مياه البحر، يقال إنّ زرقة مياه المحيط الهادئ أنقى من بقية بحار العالم غير أنّها تبدو الآن داكنة بعد أن حلَّ المساء ليضفي بانوراما خيالية من خلال انعكاس أضواء الجسر على المياه المعتمة لتشكل لوحة ضوئية رائعة الجمال..

وصلنا إلى أطراف المدينة، وتوقفنا أمام نزل متواضع، فتقدمت هي إلى موظف الاستقبال وطلبت منه غرفة واحدة بسريرين منفصلين، لم أشأ مناقشة الأمر لأنّها تبدو حانقة صامتة، وأعرف أنني لو فتحت معها أي موضوع الآن ستنفجر في وجهي ولذا لزمت

الصمت، ولم نصعد إلى الغرفة بل خرجنا نبحث في الجوار عن مكان نتناول فيه الطعام..

كانت تبدو حزينة تلك الليلة، افتقدت مرحها الطفولي، فحاولت أن أجعلها تضحك، ألقيت عليها بضعة طرائف لم تجعلها تخرج من حالتها تلك، وخلدت للنوم مبكرًا، فوجدتني أستلقي وحيدًا على السرير، ثمة مجلة مهملة على الطاولة الصغيرة المجاورة، تصفحتها، يوجد مقال عن المدينة، شدَّ انتباهي، المدينة قديمة بقدم التاريخ، ورغم ذلك لا تحمل أيَّ سمات من ذلك، عاش بها الهنود الحمر قبل الميلاد بمئات السنين، وعندما وصلها الإسبان كانت تقطنها قبيلة «بيلامو»، المنتمية إلى شعب «الأولون» المسمى أيضًا «كوستانوئي»، ومات كثير منهم بسبب الأمراض الغريبة عليهم والتي جاء بها الجنود، وفي عام 1822 تأسست قرية «بيربا بوينا» وتعني «الحشائش الطيبة»، وذلك لكثرة أعشاب النعناع في المكان، ومنذ 30 يناير 1847 أطلق الأمريكيون عليها اسم «سان فرانسيسكو»..

وجدتني أشعر بالتعاطف مع شعوب أميركا الأصليين لقد تعرضوا لأشد أنواع الظلم في كل العصور على مر الحضارة الإنسانية، تم إبادتهم وتهجيرهم، ولم ينصفهم أحد لغاية يومنا هذا، وها هم لا يزالون يتعرضون للتفرقة العنصرية وكأنهم ليسو أمريكان، بل إنهم يعيشون كغرباء في أرضهم وهم سكان البلاد الأصليين..!

لست واثقًا ممّا حدث في تلك الليلة، فقد كان نومي عميقًا جدًا، ولم

أُفرق بين الحلم والواقع، فقد رأيتُ فيما يراه النائم أنني في ضيافة قبيلة هندية حيث وقعت ابنة زعيم القبيلة في غرامي، وبادلتها الحب والغرام وربما مارسنا نوع من المداعبة المثيرة، واكتشفت لاحقًا أنّ ابنة زعيم القبيلة ما هي إلا فتاة سان دييغو التي انتقلت للنوم إلى جواري على نفس السرير، ثم شعرت بها وهي تفعل أشياء بجسدي..!

في الصباح التالي، كان هناك شعور مُبهم يعتريني غير أنني صرفت النظر، فقد يكون ذلك مجرد أضغاث أحلام، غير أن الفتاة كانت مرحة وسعيدة، وتناولنا الإفطار سويًا، وانطلقنا نستكشف المدينة، وفي المساء دعتني إلى نادٍ ليلي مجاور، فسبقتها على أن تلحق بي لأنّها أرادت أن تكون لوحدها في الغرفة..

الفصل الثاني والعشرون

مفاجأة سعيدة

ثمة زحام في الملهى الليلي رغم أنّ الوقت لا يزال مبكرًا في هذا المساء، سرت قليلاً إلى أن وصلت أمام البار، وطلبت مشروبًا غازيًا كعادتي، ابتسم النادل ابتسامة ساخرة وهو يناولني المشروب ولم أُعره اهتمامًا ورحت أراقب الناس..

بعد برهة رأيت فتاة جعلت قلبي يكاد يقفز من مكانه، واضطربت نفسي، ولم أصدق عيني، لابدّ أنني أحلم، فركت عيني لأفيق، هل يعقل هذا، لوهلة صرفت النظر عن الفكرة فيستحيل أن تكون هي، يستحيل أن يكون حبي الضائع هنا في سان فرانسيسكو، هل يُعقل أن أجدها هنا، إنّ ذلك ضربٌ من الخيال، ضحكت ساخرًا من نفسي ومن أوهامي، وخشيت أن يكون النادل قد وضع شيئًا مسكرًا في المشروب الغازي، نظرت إلى النادل فرأيته منشغلاً لا يكترث بي، ضحكت وتركت المشروب من يدي..

غير أنّ الفضول لم يسمح لي بترك المسألة، فقلبي متأكد أنّها هي، بل إنني أقسم إنها هي بلحمها ودمها..!

اضطربت نفسي وارتبكت فلابدّ أنّه مجرد تشابه ليس أكثر، من المؤكد أنّها ليست هي..!

رغم ذلك اقتربت منها متوجسًا مترددًا، ناديتها باسمها فالتفتت، يا إلهي إنّها هي، احتضنتها بعفوية، قالت متفاجئة ضاحكة وهي تعانقني: يا إلهي إنّه أنت بعد كل هذه السنين..!

أردت تقبيلها لأروي عطش الفؤاد، وأطفي سعير نيران الشوق

والوله، غير أنّها أعطتني خدها محرجة لأطبع عليه قبلة خفيفة..!
كانت مفاجأة سعيدة أنستني غرابة اللقاء، قلت مبتسمًا بطريقة مسرحية: يا إلهي لا أصدق، أرجوك لا أريد أن أفيق من هذا الحلم الجميل، هل يفترض بنا أن نمارس الجنس الآن، لطالما حلمت بك، يا إلهي لماذا أتحدث هكذا في الحلم، أرجوك أخبريني أنّه ليس حلمًا..!

ضحكت قائلة: لا زلت رائعًا كعادتك..!

تأبَّطت ذراعي بمرح واقتادتني قائلة: تعال معي لدينا الكثير لنتحدث عنه..!

وقبل أن نغادر جاءت فتاة سان دييغو ببشاشة أردتُ أن أعرفهما على بعض، لكن الفتاة كانت تعرفها مسبقًا ولم يكن ذلك مهمًا، لابدَّ أنّها ربطت بين الأحداث وبين حديثي عنها طوال رفقتنا معًا..!

اعتذرنا للفتاة وغادرنا المكان فلدينا الكثير لنلحق به..!

في الطريق أردتُ الاعتذار عن كل سنوات الفراق، قلت لها: بحثتُ عنكِ في كل مكان، عُدت إلى روما لأبحث عنك فقد تصورت أنك ستعودين إلى هناك لتستقري بها كما حلمنا دائمًا..

لم تردّ علي ووضعت يدها على فمي لتمنعني من إكمال الحديث، يبدو أنّها ليست غاضبة مني، وربما لا تريد تذكر أي شيء من الماضي، ربما لأنَّ سنين الفراق والغياب أنستها ما حدث، ربما تناست كلَّ شيء، لأنني لم أعد أُشكل شيئًا مهما في حياتها، أردت احتضانها، استعادتها، أردت إخبارها أنني لم أتمكن من إكمال

حياتي بدون وجودها، أردتُ أن أخبرها أنَّها ملكت كل قلبي، أنّها استعمرته، وأنَّها لا زالت تحمله معها منذ أن رحلت، لكنها منعتني من نَكئ الجروح وتحريك الآلام..

كانت مختلفة قليلاً، لم تكن على طبيعتها، ثمة شيء ما مختلف، لكنني بررت ذلك ربما بسبب قسوة الحياة والفراق وما تتركه الخيانة من آثار في الوجدان، لكنَّ كل ذلك لم يعد مهمًا الآن، المهم أنني عثرت عليها، إنَّ العالم فعلاً قرية صغيرة هذا لا يصدّق..!

الواقع أنني كنت أشعر بسعادة عارمة فلم يكن أي شيء آخر مهم، العشاق سذج على أية حال ويتصرفون بغباء..!

أدخلتني غرفتها الفندقية، لم أحتمل البعد عنها طوال كل تلك السنين، احتضنتها، عانقتها، قبلتها، لكنّها تمنعت برقة..

في رأسي تدور أسئلة لا أجرؤ على طرحها، فربما لا تزال غاضبة مني، لكن لماذا احضرتني هنا إلى غرفتها إذا كانت غاضبة؟ تُرى هل تزوجت؟ هل أكملت حياتها مع رجل آخر..؟

تجاهلت الأسئلة التي تدور في رأسي وقلت: يا إلهي لا أصدق أنني وجدتك أخيرًا، طوال كل تلك السنين كان حبي لك هو الذي يمدني بالطاقة، بل ويمدني بالأكسجين لأكمل الحياة بشكل طبيعي، كنت بالنسبة لي الأمل في غدٍ مشرق، في يوم جديد وحياة جديدة، أنت الأمل في كل شيء جميل، بل أنت الجمال بعينه، أنت الأمل بعينه، أنت كل شيء، أنتِ منية النفس ومهجة الفؤاد ونور البصر، أنتِ توأم الروح، أحبكِ طول العمر..!

أشارت بيدها كأنّها تحاول تغيير مجرى الحديث وهي تقول: هل تريد تناول الشراب، تفضل..؟

قلت مبتسمًا: غريب أنّك تسألين وأنت تعرفين أنني لا اشرب الكحوليات!

تجاهلت تعليقي ورمت بنفسها على المقعد الوثير وقالت: حسنًا، أخبرني ما هي أخبارك وماذا تفعل هنا..؟

ابتسمت قائلاً: آه، لا عليك فتلك قصة طويلة ربما سأخبرك بها لاحقًا..!

اعتدلت في جلستها وقالت: ماذا حدث؟

فأخبرتها قصتي مع البريطانيين باقتضاب..!

قالت: لكن هل هو صحيح ما يدّعون به عليك؟

قلت: لا طبعًا، ليس صحيحًا، وهل تشكّين لحظة واحدة في ذلك..!

قالت مرتبكة: لم أعد أعرف شيئًا، فكل شيء جائز خصوصًا أنّك تغيرت بعد كل تلك السنين أليس كذلك..! ثم ماذا عن أفكارك ضد الرأسمالية وضد الغرب عمومًا، لطالما كنت منتقدًا تكره الغرب..!

ابتسمت بهدوء وقلت بلا مبالاة وأنا أُمسك بيدها: كانت تلك مجرد أفكار يا عزيزتي، لأنني أُؤمن بالحرية والعدالة، والليبرالية. الكراهية قد تكون لسياسة الهيمنة والعنجهية والعنصرية التي قد يتعامل بها الغرب مع بقية سكان العالم، وبطبيعة الحال ذلك لا يعني أبدًا محاربة الغرب أو القيام بأفعال مجنونة..!

ثم ضحكت، مستطردًا: من يسمعك تتحدثين هكذا سيعتقد أنني

غريب عنك، لا تخشي شيئًا فلم أتغير، مرت أربع سنوات منذ أن افترقنا غير أنّ ذلك لم يغيرني، ولم تتغير أفكاري بل زادت قناعتي بإمكانية التعايش السلمي بين كل البشر، وبشكل عام يا عزيزتي فإنني كما كنت داعية سلام وحوار وليس تصادم، هل نسيت إعجابي بالثقافة الأمريكية، وكيف كنّا ننغمس معًا في كل ما له علاقة بالثقافة الأمريكية لنعيش يومياتنا حسب الطريقة الأميركية..! ألستُ أنا الذي اقترحت عليك الهجرة إلى أميركا..!

شعرت بأن حديثي أزعجها، فتوقفت عن الحديث..!

تأففت، وقفت، ذرعت الغرفة جيئةً وذهابًا بعصبية، نظرت نحو النافذة، ثمة قلق يساورها، ثمة شيء ما يثير الريبة، تملكني شعور بعدم الارتياح لوجودي هنا، يبدو أنني أُسبب لها حرجًا، ربما تنتظر أحدًا، لكن هي التي اقترحت أن..

قطعت حبل أفكاري قائلة: لا أستطيع أن أُكمل هكذا..!

بدت مغتاظة من أمر ما، وبدأت تثرثر بصوت مرتفع تقريبًا، وعلى غرابة المسألة وغموضها غير أنني حاولت مجاراتها، لكنها أشارت إليّ لأصمت وهي تخلع ملابسها، اكتفيت بالابتسام، ثم اقتربت منها واحتضنتها من خلفها، غير أنّها التفت نحوي وأبعدتني برفق وهي لا تزال تتحدث بتفاهات لمجرد الثرثرة، جلست على حافة السرير أراقبها، لم تكمل خلع ملابسها وتناولت ورقة كتبت عليها ملاحظة وأشارت إليّ لأقرأها، نظرت إلى الورقة، قرأت: يجب أن تغادر هذا المكان فورًا..!

هززت كتفي باستغراب، أشارت إليَّ بيدها لأصمت، فقلت بصوت هامس: ماذا يحدث؟

كتبت وهي لا تزال تثرثر: إنّك مراقب ولا وقت الآن يجب أن نتحرك.

كانت في تلك اللحظة تبدل ملابسها، وما إن أنهت ارتداء ملابسها حتى تسللنا بسرعة وخفية إلى خارج الفندق وهي تتلفت حولها، ولم نكد نبتعد كثيرًا عن الفندق حتى ظهرت سيارة سوداء في أثرنا، فسحبت يدي بقوة ودلفنا في زقاق، وركضنا بسرعة، ألتفّتُ خلفي، فرأيت السيارة السوداء لا تزال تسير خلفنا، وفي لحظات توقفت السيارة وترجل منها شخصين، بينما استمرت السيارة في ملاحقتنا، فيما التفّ الرجلين حول المكان، خمنت أنّهما يحاولان قطع الطريق علينا، نظرت حولي، كان المكان مزدحمًا بالمارة، فكرت بسرعة، لابدّ أن نجد مخرجًا في الحال، وبسرعة خاطفة دلفنا إلى زقاق جانبي ضيق واختفينا في الظلام في زاوية معتمة، انتظرنا قليلاً نراقب الأوضاع في الشارع فالخطر لا يزال محدقًا، وهذه المطاردة لن تنتهي هكذا بسهولة فهؤلاء الرجال محترفون، وشعرت بأنني غارق في ورطة كبيرة لا مخرج منها..

غير أنّ الصراع من أجل الحرية لابدّ أن يستمر بكل ما لدي من حيلة وشجاعة، لابدَّ أن أتخلص من هؤلاء الحمقى، لابدّ أن نتخلص من هذه المطاردة، ولابدّ أن أُخلصها من هذه الورطة التي ورطتها فيها، يجب علينا مغادرة هذه البلاد بأسرع وقت ممكن، فكرت، قلبت كل الاحتمالات الممكنة، وأخيرًا قررت المواجهة..!

وقبل أن أقوم بأي حركة متهورة، سحبتني من يدي لنخرج من الجهة الأخرى من الزقاق المفضي إلى مرآب للسيارات، فاختارت واحدة من بين السيارات المتوقفة، وأمرتني بكسر زجاجها الجانبي، لتقفز بداخلها بخفة اللصوص وتدير المحرك بطريقة احترافية، كنت مذهولاً ممّا أرى حتى شعرت بالإثارة وبالدماء تتصاعد إلى رأسي وهي تأمرني بركوب السيارة، لتنطلق بها بسرعة ومناورة فائقة، مستغلة الأزقة والمنحنيات لتختفي حتى نتخلص من مطاردة السيارة السوداء، مرَّ كل شيء بسرعة، كان الأمر مثيرًا وغامضًا، ما الذي اقحمها في كل هذا، هل لهذا علاقة بالتُّهم الموجهة لي، أم أنني تورطت مرة أخرى في قصة جديدة، شعرت أنني أعيش في دوامة، شعرت بدوار، بغثيان، وفي لحظات، أوقفت السيارة في منطقة خلفية، ثم نظرت خلفها في مرآة السيارة وبعد أن اطمأنت أنّها خلصتنا من المطاردة الجنونية، اطفأت المحرك، لنترجل ونسير قليلاً، كنت مذهولاً من كل ما يحدث، فما الذي ورطها في مثل هذه المطاردة، وهل تفاقمت الأمور معي لهذه الدرجة..؟ اللعنة عليهم..!

أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلنا إلى محطة القطار، وفي الطريق أعطتني مفتاحًا قالت إنّه لخزنة بريدية موجودة في محطة القطار، وأردفت: ستجد فيه هوية جديدة، جواز سفر وبعض النقود، وتركت لك بعض الأدوات لتغير ملامحك لتبدو شبيها بالصورة في جواز السفر، نظارة طبية سميكة وشعر مستعار

وقبعة يجب أن ترتديها بحذر، ثم اذهب إلى المطار فورًا وغادر من هنا على أول رحلة تجدها متوفرة..!

قلت: لابدّ أنّك تمزحين فلا يمكن أن أتركك هنا وحيدة تواجهين كل هؤلاء بمفردك، كيف تورطتِ في هذا، وكيف عرفتِ أنني هنا وأنني مطارد..؟!

قالت: تلك قصة طويلة سأخبرك بها لاحقًا، هيّا اذهب الآن فلم يعد هناك مزيد من الوقت..!

شعرت بأنني لم أعد أعرف هذه الفتاة، إنّها ليست هي، ليست الفتاة التي أبحث عنها، أردتُ أن أسألها ماذا فعلت بفتاتي، غير أنني قلت لها: لن أغادر قبل أن أفهم ما يحدث..؟

قالت بعصبية: لا وقت لمزيد من الشرح، هيّا لا تتصرف كالأطفال، أنت في خضم عملية معقدة أثق أنّه ليس لك علاقة بكل ما يحدث، هناك حرب تدور وقد علقنا في منتصفها، الفتاة التي كانت برفقتك كانت عميلة وكان هدفها استدراجك لإيجادي بعد أن استغلني رجال «الاف بي آي» لأستدرجك لتزودني بالمعلومات التي لم يتمكن البريطانيين من ربطك بها هذه هي القصة باختصار..!

قلت: لابدّ أن أشكر الفتاة إذًا، فقد بحثت عنك في كل مكان، بدءًا من روما وصولاً إلى هنا، ولكن ما الذي ورطك في كل هذا؟

نظرت إليّ وبعد برهة صمت قالت: إنّه أنت..!

قلت: حسنًا يجب أن نغادر هذه المدينة سويًا، لن أتركك هنا هيّا بنا..!

قبلتني قبلة وداع وقالت: لا أستطيع، الأمور أكثر تعقيدًا من ذلك وهناك أشياء كثيرة عالقة يجب أن أنتهي منها أولاً، سنلتقي يومًا ما وسأخبرك بكل شيء، أعدك بذلك.

الفصل الثالث والعشرون

أنتاركتيكا

وصلت إلى ملبورن الأسترالية، بعد رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر، أشعر بالهزيمة، بالوحدة والغربة، وبأنني في الحضيض، وفي أسوأ حالاتي، تمالكت نفسي وأنا أقف أمام موظف الجوازات، اضطربت وشعرت بالخوف عندما قلب الرجل جواز السفر الأمريكي المزيف الذي أسافر به، نظرت نحوه من خلف نظارتي السميكة فابتسم وهو يهوي بخاتمه على جواز السفر قبل أن يسلمه لي، لملمت نفسي المبعثرة، وقبل أن أغادر منطقة الجوازات استوقفني موظف الجمارك، فاضطربت نفسي وشعرت بضربات قلبي تتسارع، لكنني شعرت بنوع من الطمأنينة عندما أحضر الموظف كلبه البوليسي ليشم ملابسي، ربما تحسبًا لأن يكون بين طياتها مخدرات بهدف التهريب، وانفرجت أساريري عندما سألني إن كنت قد زرت أية مزارع مؤخرًا، أجبته بالنفي، فشكرني مرحبًا بي في ملبورن..!

عندما خرجت من المطار، شعرت بنوع من الارتياح غير أن النفس لا تزال مضطربة، والفؤاد محطم، ثمة مشاعر تجيش في نفسك، لتقلب كيانك، فتعود لتنزوي بصمت في كهفك لممارسة كراهية الذات، تشعر بالخزي والعار، بالجبن والجنون، بالفشل والإحباط، تعود لحالة التيه التي ما لبثت أن تخلصت منها، تسير بلا هدى، البرد قارس، ها أنت في قارة جديدة، تجوب شوارع هذه المدينة برغم البرد الشديد الذي يكتنف المكان، مدينة أخرى ذات طابع أوروبي في أقصى قاع العالم، تضحك لأن الأستراليون يرون العالم

معكوسًا، هم يرون أنّهم في قمة العالم وليس في قاعه، ثمة كنائس لا تزال قائمة كشاهد تاريخي على المكان، رياح الشتاء تعصف بأوراق الخريف، فلا تستحمل فكرة البرد ولا درجاته المتدنية، فتلجأ إلى مقهى يطل على قناة مائية، تجلس تحتسي القهوة، تستجدي الدفء تحت مدفأة كهربائية، المكان هادئ في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، ولم يبدأ بعد صخب المدينة التي لا تزال ناعسة مستكينة إلى الدفء ترفض الخروج إلى صخب الشارع والناس، ثمة بجعات تتهادى على المياه الهادئة، تغطس رأسها في الماء وتخرجه وكأنّها تغتسل لتزيل الكسل وبقايا النوم من أجل الانتعاش ليوم جديد مفعم بالحيوية والبحث عن الرزق، تشعر بأنّك تحسد البجعات، تفكر في رمي نفسك في القناة المائية، علك تغتسل من آثامك وجبنك، علك تفيق من كوابيسك، لتجد نفسك بجوارها على سرير دافئ يحتويك ليبعد عنك البرد الذي يعتري قلبك وجوارحك وكأنّ شيئًا لم يكن..! أنتَ من عرّضها للخطر، انت من وضعها في خضم هذه الورطة بل وفي كل ما حدث، ثم تركتها لتواجه مصيرها وحيدة، وهربت، أنت مجنون، إنك ملعون بألف لعنة ولعنة، وكان عليك أن تبتعد عنها حتى لا تصيبها لعناتك..!

أسير في طرقات الحزن وحدي، يتملكني شعور بأنني في الحضيض، بأنني في أسفل سافلين، محبط مكتئب لدرجة البكاء، فتظهرين أمامي، تقلبين حياتي، تهزين عالمي، وفجأة تختفين مرة أخرى، فأفيق من أوهامي، وأستعيد أحزاني، وتبقين أنت تشغلين فؤادي،

فيما يستعر بين ضلوعي حريق وأنا الغريق في طريق غامض مجهول، لا نهائي، عالق هنا بين الزمان والمكان، أتغنى باسم الحرية البلهاء..!

قد تداهمك المخاوف والهواجس، فتكمل الهروب نحو المجهول، تهرب من الشمس، نحو الغروب، لأنك تحب الليل، تخشى مفارقة الظلام، وتبحث عن القمر، لأنّه يذكرك بها، ولأنّه رفيقك الدائم في السفر، تعود إلى عزلتك، تمارس نكران الذات، كناسِكٍ متعبد تتأمل، آه كم اشتقت إليها، لكنك تواصل الهروب إلى المجهول، ترحل وحيدًا، تستعيد حريتك المسلوبة، تتخلص من كل القيود، تنتابك نوبة ضحك هستيرية، تمسح دموعك، تشعر كأن الضحك يختلط بالبكاء، أنت فعلاً مجنون، فاحذر، فأنت لم تعد بعد اليوم كما كنت في الماضي..!

تكمل تسكعك في المدينة، تبحث عن أحد لا تعرفه، عن شيء ما لا تعرف ما هو، كأنك تنتظر شيئًا يعفيك من أسفارك الطويلة، تصل إلى رصيف الميناء، تقف، تواجه البحر، تناجيه، تنظر إلى الأفق، البحر مضطرب والأجواء مكفهرة، تشعر بكراهية الذات تترسخ في نفسك، تشعر برغبة عارمة في الهروب من ذاتك، من واقعك ومن ماضيك، لأنك صرت بلا معنى..!

تفيق من خيالاتك على صرير أرضية المرفأ الخشبية التي ترتطم بها القوارب الراسية، فتعود إلى الواقع وإلى إكمال التسكع في المدينة، يحل عليك المساء فتلجأ إلى الفندق الذي ستقضي فيه

بقية ليلتك وحيدًا، لكنك لا ترغب في النوم، بل إنك أصبحت تخشى النوم، فتنزل إلى بهو الفندق، تجلس لتراقب الناس وتفتش عن قصص في وجوههم، ترى لافتة إعلانية في بهو الفندق كتب عليها: اجتماع المشاركين في الفوج العلمي إلى أنتاركتيكا الساعة العاشرة صباحًا في قاعة المؤتمرات، لا تعير المسألة اهتمامًا، تشعر بالملل، فتخرج إلى الشارع، تتسكع، فتكتشف أن للمدينة حياة تبدأ في المساء، فتلوب على المقاهي إلى أن تقفل أبوابها، حينها تبدأ رحلة لاستكشاف حياة ليل المدينة، متسكعًا في الطرقات، تشعر بالخواء وبالبرد..

تراودك فكرة القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيكا)، حيث يمكن دفن الماضي ونسيان الآلام والأحزان بين جبال الثلوج كما يقال في الأساطير، تضحك من نفسك، لأنك مجرد متشرد، تائه، كيف ستسافر إلى القطب الجنوبي الآن وأنت مطارد، ومفلس، والرحلة خطيرة طويلة ومكلفة..!

تلح عليك الفكرة فترى نفسك متدثرًا بالملابس الثقيلة تجوب الأرض الجليدية على زلاجة تجرها الكلاب، هناك في القطب المتجمد ربما تتمكن من دفن ماضيك ومن نسيان أحزانك وآلامك، وربما تجد ما تبحث عنه، أو على الأقل سترى ما لم يره غيرك من قبل، فتشعر برضا النفس وبدفء عاطفي يعيد لك بوصلتك لتعرف اتجاهاتك وتستعيد ذاتك..!

في صباح اليوم التالي، وجدتني بين المجتمعين في قاعة المؤتمرات

مندمجًا بصمت بينهم ودون أن أتحدث مع أحد، معظمهم يضع بطاقات تعريفية على صدره، جلهم علماء أو ربما طلاب، وأنا الوحيد غير المعروف، ثم وجدتني لاحقًا أُقدم نفسي على أنني عالم باحث في «الأركيولوجي» ومتخصص في التاريخ الطبيعي، وقد نشرت لي عدة أطروحات في هذا المجال، وأعمل حاليًا على إعداد دراسة علمية عن الكهوف الجليدية التي يمكن أن نكتشف بداخلها وجود مؤشرات لمرور الإنسان القديم بتلك القارة المتجمدة، وأخبرتهم أنني جئت متكبدًا المشقة من أجل هذا البحث العلمي وكعلماء لابدّ أن نتكاتف من أجل العلم والحضارة الإنسانية، ولهذا أبحث عمن يدُلّني على طريقة لتحقيق أهدافي العلمية..!

قادني ذلك التعريف المُزيف، ككل شيء آخر مزيف في حياتي مؤخرًا، إلى العثور على من يدلني إلى جزيرة فيليب التي تبعد بضع ساعات عن ملبورن، حيث يجتمع فريق علمي تحضيرًا للسفر على كاسحة الجليد الأسترالية «ريدمبشن» المتجهة إلى القارة القطبية، وحيث يمكنني أن أبذل مساعي لإقناعهم بمرافقتهم في المهمة..

وهكذا تطفلت كالعادة على فوج سياحي علمي حتى أصل إلى جزيرة فيليب التي تشهد تجمعًا لطيور البطريق التي تجتمع في هذا الوقت من العام لبناء أعشاشها وتشهد إقبالاً سياحيًا لأنّ الناس يَشُدّون الرحال إلى تلك الجزيرة من أجل مراقبة تلك الطيور..!

الطريق هادئ، يعمه اللون الأخضر، ولا شيء سوى المزارع التي تحيط بها الغابات والمرتفعات، وفي وقت ما توقفنا لتناول طعام

الغداء في مطعم ملحق بمزرعة تُربى فيها الخراف، وقد حولها صاحبها إلى مزار سياحي يفاخر به، ولذلك يعرض تجربته أمام المسافرين وعابري السبيل، ويحكي قصة المزرعة التي يعرض فيها نماذج من التراث الأسترالي الخاص برعي الماشية والعناية بها من أجل الحصول على أفضل ما يمكن إنتاجه..

تناولت لحم الضأن المطهو بالطريقة الأسترالية التقليدية، وكانت وجبة شهية رائعة، وهو ما جعلني أتقدم بالشكر للطّباخ الذي رفض تقاضي ثمنها ضيافة لي كواحد من العلماء الذين يعملون من أجل خير الإنسانية..

وصلنا إلى جزيرة فيليب قبيل غروب الشمس عبر طريق سان ريمو الذي يصلها بالبر الرئيسي ورغم عزلتها في جنوب البلاد غير أنّ هناك نحو مليوني سائح يزورونها سنويًا بعد أن تم تحويلها إلى محمية طبيعية محاطة بخلجان وشواطئ صخرية، رغم ذلك فهي تعتبر وجهة سياحية، وموئلاً لطيور البطريق وأكبر مستعمرة لحيوانات فقمة الفراء في نصف الكرة الأرضية الجنوبي..

ووجدتني متورطًا في دروس بيئية، وانسحبت لأبحث عن البعثة العلمية المتجهة إلى (أنتاركتيكا)، وقيل لي أن بإمكاني مقابلة أحدهم في الصباح الباكر وعليّ أن أقضي الليلة هنا في هذه الجزيرة، ووجدتني أسير صوب الشاطئ، ثمة صخور وكثبان رملية، عرفت فيما بعد أنّ طيور البطريق تلجأ لها لبناء الأعشاش..

نظرتُ حولي، ثمة سياح ينتظرون شيئًا ما قد يخرج من البحر،

يقفون هنا على الرغم من برودة الطقس والظلام الذي يكتنف المكان، العدد كبير، ووجدتني أقف بينهم لأرى ماذا سيحدث، فاكتشفت أنّهم بانتظار وصول مواكب الطيور القادمة من الجنوب المتجمد لتبيت في هذه الجزيرة، شعرت بالبرد ومع ترحيبي بأول الواصلين ابتسمت وعُدت أدراجي لأحتمي من البرد فلم أعد قادرًا على الانتظار، فذهبت إلى الفندق الوحيد في الجزيرة، متحمسًا بانتظار الصباح لأبدأ رحلة جديدة إلى قارة غامضة متجمدة لا يزال الغموض يكتنفها منذ زمن سحيق..

كانت ليلة باردةً جدًا لحد التجمد، درجات الحرارة منخفضة تحت الصفر، وشعرت بالسأم والملل فلا يوجد شيء يمكن القيام به في هذا المساء، صعدت إلى غرفتي الفندقية مُقطبًا جبيني بسبب خيبات الأمل التي تعرضت لها، فقد كنت أتوقع أكثر ممّا أراه في هذه الجزيرة شبه المعزولة، شعرتُ بأن وقتي يضيع هباءً وألحّت علي رغبة للعودة إلى ملبورن لإكمال رحلتي في القارة الأسترالية متجهًا صوب الغرب، غير أنّ ثمة ما يدفعني للبقاء وفعل ما يمكن للترحال إلى القطب الجنوبي، خصوصًا أنّه ليس لدي شيء آخر أفعله سوى الهروب، أعرف أن المسألة ليست سهلة، وأنّها تحتاج إلى استعداد وإلى تمويل لكنّ المحاولة لن تضر..!

تذكرت العرّافة الغجرية المجنونة التي قالت لي أن اتجه غربًا في كل الأحوال، وشعرت بأنني في الاتجاه الصحيح..!

غدًا سأجد طريقي إلى القطب الجنوبي وهناك ربما سأجد ما

أبحث عنه، هناك يمكنني الاختباء من كل هذا الجنون، سأبقى ستة أشهر على الأقل فتهدأ نفسي وتهدأ كل الدنيا من حولي، وربما أجد ذاتي التائهة أو على الأقل أكتشف شيئًا جديدًا أو أطأ أرضًا لم تطأها قدم بشر من قبل..

لم أنم جيدًا تلك الليلة، الواقع أنّ النوم لم يعد أمرًا مهما منذ أن بدأت هذه الرحلة الطويلة، غير أنني كنت متعبًا، فقد كانت رحلتي متواصلة منذ أن غادرت سان فرانسيسكو ولم أحظ بكثير من الراحة، بل وشعرت بالقلق من مساري القادم، فلا شيء يبشر بالخير..!

في الصباح الباكر ذهبت إلى مقر البعثة العلمية واستقبلني عالم شاب قال لي أنَّ تكاليف الرحلة باهظة ومكلفة، وأنّ عليّ تسديدها مقدمًا قبل الانضمام إلى الرحلة، إلا إذا كان لديّ رسالة اعتماد من جهة علمية أو رسمية تقدم رعاية كاملة تُغطي كافة المصاريف، وبطبيعة الحال لم يكن لديَّ أي من ذلك، وطلبت التحدث إلى كبار المسؤولين في البعثة، وانتظرت طويلاً، وبعد ساعة عاد إليَّ العالم الشاب ليخبرني أن الرحلة قد ألغيت أصلاً لأنَّ مصلحة الأرصاد الجوية ترى أنّ عاصفة ثلجية ستهب على المنطقة فتقفل الطرق للستة أشهر المقبلة..!

شعرت بأن الشاب يرغب في التخلص مني بهذه الحُجة، وربما عرف ما يدور في خلدي، فقال: صدقني إنك لا ترغب في الذهاب إلى تلك المنطقة، فلن يتواجد فيها أحد على الإطلاق، أو على الأقل

لم ينج أحد حوصر في مثل تلك الظروف وعاد ليخبرنا بما حدث..! واصطحبني بصمت إلى غرفة مليئة بأجهزة المراقبة، وقدمني إلى زميله، ثم عرضا عليّ صورًا ورسومًا بيانية لم أفهم منها شيئًا غير أنها دليل على العاصفة الثلجية..

شكرتهما على أية حال وقد شعرت بنوع من الارتياح، وقررت العودة إلى ملبورن وبي شعور بالاطمئنان، فعدت مسرعًا إلى الفندق، وبالكاد تمكنت من اللحاق بالفوج السياحي الذي سأكمل تطفلي عليه..

الفصل الرابع والعشرون

خرافات أسطورية

العبّارة السريعة التي تشبه الحافلة المائية والمعروفة هنا «بالفيري» تنطلق سريعة على صفحة مياه المحيط الهادي لدرجة تبدو كأنّها تطير دون أن تلامس الماء في طريقها إلى مدينة سيدني، تيارات الهواء باردة لدرجة التّجمد، نظرتُ باتجاه ساحل ملبورن المحاذي، الرؤية غير واضحة بسبب نفاف المطر المتساقط بشكل جميل على المدينة الوادعة التي لم تعجبني كثيرًا..!

شعرت بالبرد فدخلت إلى المقصورة الداخلية حيث يوجد بعض الدفء والمقاعد الفاخرة، جلست بقرب فتاة شقراء، أبحث عن دفء يتوغل إلى أعماقي الخاوية، حاولت فتح آفاق الحديث معها لكنّها كانت منكفئة على نفسها وكأنّها عليلة أو تشكو من أمر ما، فتركتها مع نفسها وانتقلت إلى مؤخرة العبّارة متدثرًا بالملابس الثقيلة، متأملاً الأفق البعيد والمياه الهادئة التي تثيرها حركة العبّارة الطائرة..

بعد بضع ساعات وصلنا إلى سيدني التي تعتبر أكبر وأقدم مدينة في أستراليا، فقد تم تأسيسها في عام 1788 على يد آرثر فيليب، قائد أول أسطول بريطاني يصل إلى أستراليا، وهي أول مستوطنة أوروبية في القارة الأسترالية، كما أنها تعتبر من أبرز المدن السياحية على مستوى العالم، وذلك بفضل جرفها العظيم وجسر «هاربر» ودار الأوبرا الشهيرة التي تطل بشكل رائع على ميناء سيدني.

كما أنّ طقس المدينة يشفع لها فيصعب أن يتوفر في العديد من مدن العالم الأخرى طوال شهور السنة، وهكذا قمت بجولة سريعة في المدينة قبل أن أذهب إلى الفندق الذي سأقضي فيه بضعة أيام..
المدينة رغم قدمها تجعلك تشعر بالشباب وبالحيوية، طابعها يشبه المدن الأمريكية، إنّها من تلك المدن العالمية الطابع، وهي من أكثر المدن تنوعاً ثقافياً، وذلك ما يعكس أهميتها كأحد أهم المدن التي تجتذب المهاجرين في أستراليا.

جبت أسواقها ووسطها التجاري، ثم ذهبت إلى حديقتها الوطنية حيث تجد الناس يسترخون وسط الخضرة والماء والوجه الحسن، وزرت متحفها الوطني وبه أسرار وغموض اكتشافات المهاجرين الأوائل وكيف وصلوا إلى هنا ولماذا، وهو ما جعلني أضع نظرية متأثرًا بشخصية عالم التاريخ الطبيعي المزيفة التي تقمصتها..

مفاد النظرية أن التجار العرب وصلوا إلى سواحل أستراليا قبل الأوروبيين، تمامًا كما وصلوا إلى أندونيسيا وما جاورها من بلدان بحثًا عن أسواق للتبادل التجاري الذي اتخذوه مطية لنشر الإسلام، غير أنّهم عندما وصلوا إلى الشواطئ الغربية لأستراليا وجدوها قفراء جرداء خاوية من أي مظاهر سكانية أو حضارية، فسكان البلاد الأصليين يتواجدون في الطرف الشرقي من الجزيرة القارة، وكان أولئك البحارة العرب مجرّد تجار لا يبحثون عن الاستيطان أو الاستعمار، إنّهم تجار يبحثون عمّن يتاجرون معه، يبيعون ويشترون البضائع، فلم يلتفتوا لتلك السواحل المهجورة، وربما أبحروا نحو

الجنوب، وربما جنحت بعض سفنهم فربما يكون ذلك سبب وجود نماذج من السفن العربية في متحف سيدني، وربما يكون حدث ذلك قبل وصول الأوروبيين بألف عام..!

حاولت عبثًا التحدث عن تلك النظرية أمام بعض الطلاب من زوار المتحف وأنا أقف فخورًا أمام نموذج للسفن العربية التي وجدت على شواطئ القارة، غير أنّه لم يكن هناك من يكترث، ذلك أنّ كتب التاريخ تركز على البرتغاليين والإسبان باعتبارهم أول من لاحظ وجود أستراليا في القرن السابع عشر، وتذكر أنّ الهولنديين قد استكشفوها في القرن الثامن عشر وانتهت تابعة للتاج البريطاني لأنّ القبطان البريطاني المغامر جيمس كوك وصل إليها في يوم ما من عام 1770 وألقى مراسي سفينته في خليج «بوتاني» ليعلن ضم الساحل للإمبراطورية التي كانت لا تغرب عنها الشمس.

وبعد أربعة عشر عامًا توالت عليها دفعات من المبعدين والمساجين، وبحلول عام 1829 أصبحت القارة كلها تابعة للتاج البريطاني، ودارت بخلدي فكرة أنّ هذه المدينة تصلح لواحد مثلي هارب من العدالة، وسخرت من نفسي وأنا أتصور نفسي أعيش في المهجر..!

أمضيت بقية ذلك اليوم في مقهى أراقب الناس، وبينما كنت أحتسي القهوة تقدمت مني فتاتين طلبتا مشاركتي الطاولة نظرًا للزحام الذي يشهده المقهى، نظرت إليهما ولم تكونا مثيرتين من الناحية الجمالية، ندبت حظي وأفسحت لهما المجال عندما عرفت أنّهما من سكان البلاد الأصليين وتنتميان لمجموعة عرقية بدائية

مستقلة تسمى «بورجينيز» التي تشكل أقلية سكانية، وعندما عرفت الفتاتين أنني عالم في التاريخ، عرضتا عليّ مرافقتهما بحثًا عن مزيد من المعرفة لهذا العرق البشري الذي يعتبر الأقدم على وجه الأرض، حيث اكتشفت آثار تابعة لهم ترجع إلى 38 ألف عامًا قبل الميلاد قرب نهر «سوان» حول منطقة سيدني، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي..

كنت متحمسًا في اليوم التالي لمقابلة الفتاتين، ثمة خيالات سخيفة تراودني، فهما بغض النظر عن بشرتهما الداكنة وتكوين وجهيهما، غير أنّهما لطيفتين، تظهران براءة طفولية في ضحكاتهما كلما علقت حتى ولو كان تعليقًا ساذجًا..

استقبلتني الفتاتين بترحاب، كانتا لطيفتين فعلاً، وشعرت بأنني أعرفهما منذ زمن بعيد، فلم يكن هناك تكلّف في الحديث أو في التعامل، لدرجة أنّهما تأبّطتا ذراعي، وهما يقودانني إلى سيارتهما لننطلق في رحلة عبر أستراليا، وفي الطريق حدثتهما عن صديق أسترالي يعمل مصورًا فوتوغرافيًا يدعى «سايمون دايمون» فاكتشفت أنّهما تعرفانه وقد قدم صور كثيرة عن التراث القبلي للسكان الأصليين، وأخبرتهما عن جنونه وحبه لمهنته، وكيف تشاركنا أنا وهو خيمة واحدة في معسكر القوات البريطانية في البصرة، وكيف تبادلنا الأماكن فهو لا يزال يجوب العالم في تلك المنطقة العربية المضطربة وأنا جئت إلى أطراف العالم هاربًا باحثًا عن الحب والمعرفة وعن الذات..!

قالت إحداهما: إنّ هناك الكثير لأتعلمه عن شعبهما، خصوصًا بعد أن تغيرت الأحوال منذ أن هجروا كهوفهم وتلالهم قسرًا للالتحاق بالمدنية، وقد هجرت الأجيال الجديدة معتقداتها واعتنقوا بدلاً عنها المسيحية غير أنّهم تمسكوا بعاداتهم وبصلواتهم فدينهم الجديد يبقى مجرد شكليات لكن العادات والتقاليد والطقوس تبقى جزء من العائلة ومن تاريخ شعبهم الطويل، بل إن الدولة استغلت تراثهم ليصبح جزءًا من برامج الترويج السياحي..

أمامنا طريق طويل، أولاً إلى الجبال الزرقاء حيث سنرى الطبيعة والحيوانات التي يعتقد هؤلاء أنّهم جاؤوا من نسلها، وهو ما تحمست لأراه، فذلك أمر غريب غير أن إحدى الفتاتين ضحكت وقالت إنّ ذلك مجرد أسطورة، فلم تعد تلك المخلوقات موجودة الآن، فهي جاءت من عوالم أخرى وتركت هؤلاء البشر الذين كانوا في أحلامها، أو لعلها تناسخت على شكل بشري، وذلك اعتقاد غريب منحرف، وأخفيت ابتسامتي الساخرة من سخافة المعتقد لأنّهم أحرار فيما يعتقدون، غير أنني سألت الفتاة إن كانت تصدق ذلك، فضحكت وهي تقول: إنّها مجرد خرافات..!

وصلنا إلى إحدى المغارات حيث توجد رسومات تعود إلى آلاف السنين، ربما إلى خمسين ألف سنة، وهي تعتبر الأقدم على وجه الأرض، وتلك الرسومات تروي قصة أجداد هؤلاء القوم، ومعتقداتهم عن كيفية بدء الكون ونشأة الإنسان، وقالت الفتاة أنّه لا توجد حضارة في العالم تشبه إرثهم لأنهم ظلوا معزولين تمامًا ولم

يدخلوا فيما عرف بتمازج الحضارات، ولأنّهم يستمدون معرفتهم ومعتقداتهم من الأرض والطبيعة، كما يعتقدون أنّ خلف تلك الجبال تكمن أرض الأجداد حيث يتزاوجون ويوزعون الأرزاق، وأنّ الكائنات الحية قد انفصلت عن مصدر حياتها وأنّها كانت جميعًا على شكل سمكة أو دولفين على وجه التحديد أو كنغارو، كما أنّ هناك كائن خرافي أسطوري مقدس يسمى «الأنجروندري» وينحدر من فمه نهر «موراي» الذي يشق القارة الأسترالية ولذلك هو نهر مقدس أيضًا، وببركاته تشكلت كل البحيرات والأنهار الموجودة في أستراليا.

وقبيل المساء ودعت الفتاتين على الرغم من لطفهما الذي يشدني للبقاء برفقتهما، وشكرتهما على ما قدمتاه لي من معرفة وافترقنا، فأمامي سفر طويل، ولابدّ من إكمال المسير نحو غروب الشمس، محطتي التالية هي «بريسبن» التي كانت في الماضي مجرد نقطة عبور جنوبًا نحو سيدني حيث يذهب السّياح للوقوف على الحاجز المرجاني العظيم أو إلى الساحل الذهبي «القولدن كوست» شمالاً حيث الدفء والشمس ومياه المحيط الهادئ..

كانت رحلتي بالطائرة مليئة بالأحداث، فقد تأرجحت الطائرة بعنف بفعل المطبات الهوائية قبل دخولها في عاصفة قوية لدرجة أيقن جميع من على متن الطائرة بأنّها واقعة بنا لا محالة، وهو ما جعل أحد المسافرين يصاب بنوبة قلبية حادة ممّا زاد من غرابة الرحلة، وتمدد المصاب بجواري وكان عليّ أن أقوم بدور ما لإنقاذه،

خصوصًا أنّ طاقم الطائرة كان يعتبرني دكتورًا، جاهدت لأقنعهم أنني متخصص في التاريخ الطبيعي وليس في الطب البشري، ولم ينفع ذلك فكان عليّ القيام بشيء، وهكذا وجدتني أقوم ببعض الإسعافات الأولية، إلى أن اكتشف طاقم الطائرة وجود طبيب حقيقي على نفس الرحلة كان مشغولاً بالنجاة بنفسه من أهوال تأرجح الطائرة العنيف..

كان الأمر أشبه بوضعنا في لعبة بهلوانية، أو في طائرة ورقية تتقاذفها الرياح، وساد الهرج والمرج والصراخ والعويل والفوضى، لكنّ الأمور لم تفلت تمامًا من السيطرة والقبطان يحاول تهدئة المسافرين الذين أصيبوا بهلع أثر على قواهم العقلية..

لا أنكر أن المخاوف داهمتني، وأفكار المجد الصحفي تتسارع في رأسي، وتحمست لكتابة قصة تحطم الطائرة، وتعوذت من الشيطان الرجيم، ومن الفال السيء، وحاولت طرد كل تلك الأفكار السخيفة الساذجة..!

عندما هبطت الطائرة بسلام في مطار «بريسبن»، صفق المسافرين، ووقفت كالمنتصر، كمن قام بدور رئيسي في الوصول إلى بر الأمان..

وربما أردت الاحتفال بالنجاة، فقمت بجولة استكشافية للمدينة، تجوّلت بين مقاهيها المتزاحمة، ومحلاتها الأنيقة، ومعارضها الفنية المتعددة، وتناولت الطعام في مقهى لبناني، وكان الطعام مقلدًا فليس له نكهة الطعام العربي على الإطلاق..!

سرت بجوار نهر «بريسبن» الذي يشق طريقه حتى خليج «مورتون» مروراً بمخازن الصوف التي تحولت إلى شقق فاخرة، ومنازل تاريخية مقامة على أعمدة وتحولت محطة طاقة سابقة على طرف الخليج إلى مركز فني، ويعتبر معرض الفن الحديث أحدث مناطق الجذب السياحية على آخر زاوية للنهر في «ستانلي بلاس» في حدائق «ساوث بانك»، أو الضفة الجنوبية، ثم هناك المتاحف التي تسرد عليك مجريات التاريخ، وكيف كانت هذه المدينة مقرًا لقوات الحلفاء في المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية، وكيف كان ذلك سببًا للاعتقاد بأنَّ هذه المدينة الهادئة ستشهد تغييرًا كبيرًا بعد الحرب ولذلك عبر إليها ملايين الأمريكيين ولم يحدث ما توقعه الجميع وبدلاً من ذلك أغلق وسط المدينة تقريبًا بعد انخفاض عدد السكان الذين انتقلوا للعيش في الضواحي..!

لم يستقر بي الحال كثيرًا في «برسبن» وغادرتها في اليوم التالي إلى الساحل الذهبي أو «القولدن كوست» والتي لا تبعد سوى ساعة عن «برسبن»..

كل ما في «القولدن كوست» يجعلك تشعر بالهدوء والسكينة بعيدًا عن صخب المدن الكبيرة، توجهتُ صوب البحر، وقفت على رمال الشاطئ الذهبية التي جاء منها اسم المدينة لأنّها تلمع كالذهب بعد أن تلامسها أشعة الشمس، مشيت على الشاطئ، استمعت لصوت المحيط، ثمة ما يشبه الضحكات، كأنّها تنبعث من عمق المحيط، ربما تكون صادرة عن الأمواج الهادئة التي تقترب من الشاطئ

بشكل حنون كأنّها تعانق رماله وتخشى عليه من أن تسبب له خدوشًا عندما تتكسر وتتلاشى بسعادة، ثمة قصة حب بين الرمال والماء، وفي الخلف خضرة تحيط بالمدينة المحصورة بشكل رائع بين الماء وجبال «تامبورين» الخضراء المغطاة بالغابات المطيرة..

تركت قصة الحب بين الماء والرمال، وذهبت أبحث عن شيء ما في المدينة، جلت منطقة «سيرفر برادايس» حيث كل شيء عجيب، المطاعم والمقاهي والمحال والفنادق..

وفيما كنت أستكشف المدينة كنت أيضًا أبحث عن مكان للإقامة، وانتهى بي الحال بعد بحث جهيد في فندق يناسب الميزانية المتعثرة، نسبة السّياح المتزايدة على مدار العام على هذه المدينة تجعل الحصول على إقامة مناسبة أمرًا شاقًا إلى حد ما..!

استكشفت الفندق وعُدت لأستكشف المدينة، هناك حركة نشطة للسياح العرب والخليجيين، تعرفهم من نسائهم المنقبات والعباءات السوداء، تبحث عن فسحة لتسترق نظرة على الجمال العربي الأخّاذ، فلا تجد على الرغم من أنك تشعر بأنّك تسير في شوارع مدينة عربية، وهو ما يجعلك تشعر بألفة سريعة للمدينة..

على الرغم من ذلك تلجأ إلى زاوية في مقهى، لتبقى بعيدًا منزويًا، ربما لأنك ترغب في البقاء وحيدًا، معزولاً، لأنّ هناك شعور مبهم يداهمك، ربما هو شعور بالغربة حتى في المدينة التي ألفتها بسرعة، وربما لأن هناك شعور بالملل من طول السفر والترحال بلا هدف، ربما بسبب شوق للوطن الساكن فينا ليل نهار في الحل والترحال،

وربما لأنك تشعر بالضجر من رتابة الحياة، وسكون المدينة حتى لو كان ليلها صاخبًا، تشعر بلهفة للمغامرة، فأمثالك لا يبحثون عن وجهات سياحية، ولا عن استجمام واستراحة، أمثالك هاربون، مطاردون، يبحثون عمّا يعيد إليهم وهج الحياة ليشع الأمل في ثنايا أرواحهم، من أجل الرغبة في البقاء، تراهم يبحثون عما ينعشهم ليشعروا بطعم الحياة كما لم يتذوقوه من قبل..!

ذلك الشعور أغراك باستكشاف حياة الليل الصاخب في المدينة الهادئة، لأنّ عليك أن تودعها في الصباح التالي فأمامك سفر وطريق طويل لا تعرف نهايته..!

الفصل الخامس والعشرون

ليلة الغرائب

وصلت طوكيو منهكًا بسبب الرحلة الطويلة قادمًا من أستراليا، بعد أن اضطررت لأسباب لوجستية إجبارية إلى اختصار إقامتي في تلك القارة المعزولة في قاع العالم وبالتالي تحتم عليّ تغيير مسار رحلتي الذي كان من المقرر أن يخترق قارة أستراليا وصولاً إلى بيرث في أقصى غرب القارة حيث سأنتقل إلى جزر سليمان ومنها إلى غينيا الجديدة..

غير أنّ خططي باءت بالفشل لظروف غير مفهومة، ربما لأن خططي ارتجالية، وربما لأنّ مواردي المالية محدودة جدًا، ولم أنتظر للبحث عن عمل أو وظيفة في أستراليا، ربما لأنني شعرت بأن علي مواصلة الرحيل، وها أنا أجد نفسي في طوكيو، هذه المدينة الاستثنائية، محطة رائعة أخرى في رحلتي الطويلة..

خرجت من مطار ناريتا وينج متثاقلاً أشعر ببقايا نعاس، خصوصًا أنني لم أحظ بشيء من النوم، فمسألة النوم في الطائرة مزعجة أكثر ممّا هي مريحة، غير أنني شعرت بالانتعاش ما إن خرجت من بوابة المطار في ذلك الصباح الياباني الذي لا يزال يتثاءب..

ركبت قطار الأنفاق حتى وسط المدينة التي أحاول إعادة استكشافها بعد أكثر من خمسة عشر عامًا على زيارتي الأولى لها..

لم يتغير شيء كثير طوال تلك السنين، فالتغيير والنمو نراه فقط في بلادنا التي تسابق الأمم على القمم..

المدينة منظمة نظيفة وجميلة، إنّها من تلك المدن الأنيقة بصخب

والتي قد ترغب في العودة إليها مـرارًا وتكرارًا بغض النظر عن تجهم طقسها الغائم، الذي لا يحول دون حركة الناس المتأنقين وهم يعبرون الشوارع بكثافة ونظام مفعمين بروح العمل والنشاط، ترى ذلك في حركة سيرهم ووجوههم التي تعلوها الابتسامة والهمة، يبدو أنّ كل من في المدينة متأنق بما في ذلك عامل النظافة الذي يرتدي زيًا يشمل ربطة عنق، الفتيات وحدهن لا يرتدين زيًا رسميًا، وتراهن يتمخترن بين أفواج الموظفين الذاهبين إلى أعمالهم سيرًا على الأقدام..

الفتيات جميلات يذكرنك بشخصيات الرسوم المتحركة بقصات شعورهن القصيرة والملونة، وهو ما دفعني للّجوء إلى مقهى لتمضية بقية الصباح ترصدًا لمراقبة تلك الفتيات اللاتي لا يتوقفن عن العبور وكأنه شريط سينمائي يعيد نفسه، فالأشكال تتشابه ويصعب أن تجد الفرق غير أنني وجدتها لعبة مسلية لمحاولة اكتشاف الفروقات السبعة..!

وأمضيت بقية المساء أبحث عن المغامرة متوغلاً في الشوارع الخلفية للمدينة، فخلف هذه المظاهر الأنيقة لابدّ أن تكمن قصص وحكايات، وهو ما يشكل نسيجًا ثقافيًا ومعرفيًا عن المدينة، غير أن النادلة الشابة كانت قد حذرتني لمكامن الخطر، وربما ذلك ما أثار فضولي أكثر وجعل روح المغامرة تعتريني فلم أكترث كثيرًا لحديثها وحرصها وربما خوفها..

إنني رجل سلام، ولا أملك شيئًا يستحق الموت من أجله، ثم أن

الجريمة هنا منظمة وليست عشوائية، فلا خوف طالما لا تتدخل فيما لا يعنيك..!

غير أن أمثالي من الفضوليين لا يمكنهم رؤية فتاة تتعرض للتحرش ولا يتدخلون من باب الشهامة والنخوة العربية، الله ستر، فهؤلاء المتحرشين مجرد صبية مراهقين تمكنت من إنقاذ الفتاة من عبثهم، فشكرتني بامتنان، وشعرت بالاطمئنان أكثر عندما عرضت عليها مرافقتها لمنزلها في نهاية الشارع، بالنسبة لي كان الأمر سهلاً لأنّ منزلها في نفس طريق مقر إقامتي..

في الطريق تحدثنا بإنجليزية كسيحة غير أنها كانت كافية لأفهم أنّها ترغب في أن أتحدث مع أمها عمّا حدث وعن البطولة والشهامة النادرتين، وعندما وصلنا إلى منزلها أصرّت الفتاة رغم تحفظ والدتها على أن أبقى في منزلهما لبعض الوقت خشية أن يعود الفتية بتعزيزات بهدف الانتقام، لأنّهم من تلك العصابات التي تمارس نوع من الفتوة على الضعفاء..

تصورت نفسي محاطًا بتلك العصابة كما في أفلام الحركة، غير أنني لم أعد أخوض المعارك ولا الحروب، وشعرت بنوع من القلق، غير أنه عذر مناسب أيضًا للبقاء برفقة هذه الفتاة التي لابدّ من الاعتراف بأنّها جميلة بالمقاييس اليابانية، عيناها واسعتين مدورتين، شعرها منسدل على كتفيها كأنّه خيوط حريرية كثيفة، رشيقة، لطيفة، وروحها تضفي شيئًا من الألفة على المكان، هي قروية بسيطة جاءت لتعمل في المدينة، كانت تسافر يوميًا نحو 300

كم على متن القطار، غير أنّه لم يبق من أحد مع والدتها في القرية، فقررت أن تحضرها لتعيشا معًا في المدينة، وتختصر على نفسها مشقة الترحال اليومي..

خشيت أن أقع في الحب، وهممت بالمغادرة رغم توجسي من عواقب انتقام الفتية المراهقين، توقفت أمام الفتاة، نظرت إلى عينيها، شعرت بالخجل، قالت: هل سنراك مرة أخرى؟

قلت: ربما، غير أن أمامي معركة لابدّ أن أخوضها..!

لا أنكر أنّ الهواجس كانت تداهمني، وأنا في طريق عودتي، غير أنني وجدت عجوزًا يسير وحيدًا، فسرت معه كنوع من الرفقة لأبعد المخاوف عن النفس، ولأعرف طريق الخروج من هذا المكان الذي اكتشفت أنه بعيد عن مقر إقامتي، كان العجوز لا يعرف الإنجليزية، غير أننا تفاهمنا بالإشارة، واكتشفت لاحقًا أنّه يعرف بضعة كلمات عربية لأنّه عمل سابقًا في العراق في زمن صدام حسين في ثمانينيات القرن الماضي، حاولت أن أفسر له معنى أن العالم مجرد قرية صغيرة..!

عندما وصلنا إلى مفترق الطرق ودّعني العجوز وهو يضحك، ولم أعرف السبب، فأكملت المسير في منطقة شبه مقطوعة ربما لا تمر بها لا سيارات الأجرة ولا أي نوع من وسائل المواصلات، فشعرت كمن يعيش على الحافة، خلف الكواليس حيث لا يشعر بك أحد، بين المهمشين والمنبوذين، غير أنني في عاصمة أحد أكثر البلدان تقدمًا وعصرية..!

اختفيت في زقاق معتم رغم الهواجس، وخرجت منه إلى فسحة شاسعة، وثمة أضواء برّاقة تصدر من لافتة إعلانية، اكتشفت أنّها تابعة لنادٍ ليلي، دخلت أستكشفه وأقضي ما تبقى من تلك الليلة الغريبة في أجواء أشد غرابة في ذلك النادي الذي يحمل كل التناقضات التي يمكن أن تتوفر في مجتمع واحد..!

في صباح اليوم التالي وجدت تلك الفتاة اليابانية تنتظرني في بهو الفندق، فهو يوم إجازتها الأسبوعية، وأرادت أن تقضيه برفقتي كدليل سياحي، تبدو منتعشة وسعيدة، وجهها مضيء بصورة جميلة، تعلقت بيدي وأخذتني لاستكشاف المدينة، ركبنا القطار معًا، نزلنا في أكثر من محطة إلى أن وصلنا إلى حي «جينزا» الشهير المتلألئ بالأضواء التي تبهرك فتشعر أنك في منطقة احتفالات، كان هذا الحي مكانًا لتجمع تجار الجملة القادمين من «أوساكا»، غير أنه أصبح اليوم مكان التسوق المفضل لأهالي المدينة، تنتشر فيه المحلات التجارية الكبرى، والمطاعم، ودور السينما والمسارح، ويتم منع مرور المركبات فيه يوم الأحد لتقتصر حركة السير في شوارعه على الراجلين فقط، تناولنا الطعام في مطعم هندي أو باكستاني فهناك عدد من العاملين فيه من الباكستانيين غير أنّ فيه عاملات يابانيات، أخبرتني الفتاة أنّهن طالبات بعمل جزئي، وأكلمنا استكشاف هذا الحي الراقي..

في الطريق أخبرتني الفتاة أنّ كلمة «طوكيو» تعني العاصمة الشرقية، وذلك لأنّها تقع على الجهة الشرقية لأكبر الجزر الأربع للبر

الياباني وهي جزيرة «هونشو» بالقرب من مصب نهر «سوميدا»، تعتبر طوكيو عاصمة البلاد منذ عام (1868)، ووجدت المسألة مثيرة للاهتمام خصوصًا لواحد من أمثالي لديه شغف بالتاريخ والجغرافيا من واقع كثرة الأسفار، فهذه المدينة العصرية لطالما تصارعت عليها القوى منذ العصور الوسطى وفي نهاية القرن الثاني عشر أسس المحاربين القدامى حكومة عسكرية في جنوب خليج طوكيو في مكان يُدعى «كاماكورا» ومنذ ذلك الوقت أخذت المدينة اسمها الأول «إيدو» ومعناه ميناء الخليج، وعرفت عصرًا مزدهرًا في تلك الفترة، لكن بعد سقوط نظام «الشوغونية» الذي أسسه المحاربين القدامى، اضمحل دور «إيدو»، لصالح «كيوتو» عاصمة الإمبراطور الذي ما لبث أن انتبه إلى أهمية «إيدو» فقرر نقل عاصمته إليها وأطلق عليها اسم «طوكيو»..

مشينا على امتداد نهر «سوميدا» حيث تمتد أحياء المدينة القديمة، إلى أن وصلنا إلى حي «أساكوسا» الشعبي، سرنا في شوارعه الضيقة المتعرجة، وبين دكاكين الحرفيين ومحال الصناعات التقليدية، توقفنا لنطلع على تلك الصناعات الدقيقة التي يقوم بها اليابانيين، إنّهم بالرغم ممّا وصلوا إليه من تطور تقني وصناعات لا يزالون يتمسكون بصناعاتهم التقليدية والحرفية..

سرنا حتى وصلنا معبد «سينو» أو «سيسوجي» المكرس لشخصية «كانون» الذي يعتبر آلهة الرحمة حسب الديانة البوذية القديمة، دخلنا المعبد، أشعلت هي شمعة، بينما رفعت أنا سبابتي بذكر الله

عز وجل الذي لا شريك له..
عندما حلَّ المساء أوصلتُها إلى منزلها وعُدت وحيدًا سيرًا على الأقدام إلى مقر إقامتي، وفي الطريق، داهمتني مشاعر الوحدة والعزلة، وجدتُني كمن يسير في غابات الحنين، غير أنَّ هذه المدينة تشدك، تستحوذ على عقلك، ثمة شيء يجعلك ترغب في البقاء فيها مدة أطول، هل هي تلك الفتاة الطيبة الرقيقة، لا تُريد الاعتراف، بل لا تُريد مواجهة الأمر، لأنّك تعلم أنّك لست جديرًا بالحب مرةً أخرى، لأنك تعلم أنك لن تبقى معها طويلاً، وأنَّك ستُحطم فؤادها الصغير لا محالة، لأنك لن تستقر هنا، وستغادر قريبًا، تطارد الغروب، هاربًا من أشباح الماضي، تلاحقك خيبات الأمل، بعد أن ضيعت حقيبة أحلامك التي ربما نسيتها في محطة من محطات العمر لأنّها أصبحت مثقلة بالأحلام المتراكمة التي لم تتحقق..!
العُمر يمضي مسرعًا وها أنت لا تجد غير ذرف الدموع على الأطلال، والهرب من الماضي السحيق الذي يطاردك، بل والهروب من أوهامك التي تتصور لك على شكل ألف لعنة ولعنة تُطاردك..!
ها أنت تعود إلى عزلتك، تقبع وحيدًا متكورًا على نفسك، تتعلق بالأمل وتبحث عن السلوى في غياب الوعي وفي النسيان، تعود إليك تلك الفتاة اليابانية لتنتشلك من بؤسك بضحكاتها الطفولية، تعاهد نفسك للمرة الألف ألا تبقى وحيدًا مرةً أخرى..!
في اليوم التالي تعود إلى شوارع المدينة تذرعها والفتاة تتأبَّطُ ذراعك، تركض أمامك، تضحك، تقرر الذهاب معها إلى قريتها

النائية، حيث الجبال والطبيعة والخضرة، وحيث كل شيء عفوي طبيعي، بعيدًا عن صخب المدينة..

تجد في ذلك استعادة لروح المغامرة، تنتعش، تُسافر بالقطار، بعد ساعات تنزل في محطة نائية، تسير على قدميك بين حقول الأرز، تمتطي الأحصنة معها، تتوقف على التلال الخضراء لتستنشق الهواء النقي، تصل إلى بيت جدتها، تجد ترحيبًا من القرية بأسرها، الزوار هنا نادرون، فلا أحد يزور هذه القرية إلا أبناءها، تُحدثهم عنك، ويحنون لك رؤوسهم ترحيبًا، تحاول أن تتحدث معهم باليابانية، فيضحكون عليك، يسخرون من مظهرك المختلف عنهم، ربما لأنّهم لم يروا في حياتهم شخصًا مثلك، تشعر في حديثها عنك بأنّها تتفاخر بك، وذلك يجعل المسألة صعبة عليك، لأنك لابدّ أن تغادر هذه البلاد، لابدّ أنّك ستتركها، كما تركت غيرها، لأنك لم تجد ذاتك الضائعة بعد..!

في المساء تعود برفقتها إلى طوكيو، تغرق في زحامها، في أضوائها، في صخبها، بين الحشود، بين السُّياح والسهارى، تدخل نادٍ ليلي، تمارس طقوس أبناء المدينة، تنغمس في رقص جنوني بين مئات الشباب، لأنَّ ذلك يجعلك تبدو طبيعيًا، يجعلك تشعر بأنك تمارس الحياة كبقية سكان المدينة..

تشعر بأنَّ الوقت قد حان لمغادرة المدينة، لأنك لا تستطيع الاستمرار أكثر، لأنَّ الوقوع في الحب بات يخيفك، فقد نذرت ألا تعشق امرأة مرة أخرى..

في الصباح الباكر تذهب إلى المطار من غير وداع، تترك لها رسالة تقول: إنّ أمرًا طارئًا حدث وإنّك مضطر للمغادرة..

تجلس في صالة المسافرين، تغرق في أوهامك، في أحلامك، تستعيد لحظاتك الجميلة حتى تجد نفسك تمارس كراهية الذات مرةً أخرى..

الفصل السادس والعشرون

صخرة الحكمة

كان الجو باردًا جدًا ما إن خرجت من مطار سيئول، تدثرت بأسمالي ومشيت قليلاً حتى وجدت من يقلني إلى وسط المدينة، كان يفترض أن ألتقي بشاب يعمل مترجمًا خاصًا يفترض به أن يكون رفيقي خلال عبوري بهذه البلاد، وعندما وصلت إلى الفندق الذي شُيِّد على تلة عالية وجدت صعوبة في التواصل مع الموظفين إلى أن توصَّلنا إلى نوع من التفاهم بالإشارات..

في المساء وصلني ذلك الشاب معتذرًا لأنّه اضطر للعودة إلى القرية لظروف عائلية، قلت له ممازحًا، أنَّ تعلُّمه العربية علمه أيضًا الثقافة العربية ومنها عدم الالتزام بالمواعيد، وضحكنا، وبرغم البرد خرجنا لجولة في المدينة..

الشاب طريف، ويبدو أنّه تعلم أيضًا خفة الدم من المصريين الذين عاش بينهم وتعلم العربية منهم، غير أنّه يتحدث الفصحى ولا يفهم الدارجة، وهو ما جعلني طوال الرحلة أشعر بأنني أعيش في مسلسل تاريخي وربما أستخدم كلمات مثل «حقًا» و«حسنًا» بشكل مسرحي خصوصًا للتفاعل معه في خضم حماسه للحديث عن بلاده، وعن أنّ سبب تسمية كوريا بهذا الاسم، حيث يعتقد أنّه جاء على يد بعض التجار العرب حيث كانت البلاد تدعى «غوريا» أو «جوريا» ولتسهيل النُّطق تحولت إلى كوريا واستمر الحال كذلك منذ عام 1890 والتي تعني باللغة الكورية «الجبال المرتفعة» و«البحار المتلألئة»..

مع ذلك فلا ترى في المدينة أي مظاهر لوجود عربي أو حتى لمرور

للحضارة العربية في هذه البقاع من العالم، بل إنَّ الإسلام وصلهم عبر مسلمي شمال الصين في أوائل القرن العشرين وانتشر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بواسطة القوات التركية التابعة لقوات الأمم المتحدة خلال الحرب الكورية، وهناك اليوم ما يقارب نحو واحد بالمائة من عدد السكان من المسلمين في بلد يعيش فيه نحو 60 مليون نسمة تقريبًا يعتنق غالبيتهم «اللا ديانة» أو مجموعة من الديانات غير السماوية بالإضافة إلى النصرانية.

تَعَشّيْنا في معبد تم تحويل جزء منه إلى مطعم يقدم فقط طعام الرهبان، الذي يتكون في الغالب من الأعشاب والنباتات، ولا يدخل في إعداده أي منتج من أصل له روح، ولا أعرف إن كان الندل والعاملين من الرهبان أم إنّهم يرتدون كذلك فقط من أجل إضفاء طابع المعابد على المكان..!

زمهرير الرياح القارية التي تصفر في أذني جعلت رأسي يكاد يتجمد ونحن نعود سيرًا على الأقدام إلى الفندق الذي سأقضي فيه بضعة ليالٍ حتى الرحيل صوب الجنوب، ورفيقي الذي يتفاخر بأنّه ينحدر من سلالة الهان لابدّ أن يغادر مبكرًا في المساء، لأنَّ عليه أن يعود إلى منزله البعيد في القرية، فيتركني وحيدًا في مدينة لا تعرف شيئًا من الإنجليزية..

بعد يومين في العاصمة سيؤول قضيتهما في استكشاف المدينة وفي تعلم طقوس إعداد الشاي، أراد رفيقي المترجم الكوري أن نذهب إلى أولسان وهي إحدى المدن الكورية التي تقع في جنوب شرق

البلاد على ضفاف بحر اليابان قريبًا من مدينة بوسان الشهيرة، لم يكن هناك هدف محدد للزيارة سوى أنّه نوع من الاستكشاف، فهو الدليل والمترجم ورفيق السفر، وهو يرى أنَّ هناك موقعًا مهمًا لابدَّ أن أزوره في تلك الأنحاء، قال إنّ فيه تطهير للنفس وعلاج للروح وللذات الهائمة المحطمة المتشرذمة..

الطريق البري مرة أخرى، في سيارة صغيرة يقودها الرفيق المترجم، المناظر الطبيعية تجعل الطريق مسلٍّ، غير أنك ما تلبث أن تشعر بالملل لطول الرحلة ورتابتها، فيقرر السائق النزول في استراحة جانبية، لتناول الطعام الشعبي.

بضعة ساعات في الطريق أوصلتنا إلى قمة جبل يدعى «بيسوسان» حيث شُيِّدَ معبد أعتقد أنّ اسمه «يوجاسا» يعود إلى عام 827 قبل الميلاد، وتدور حوله الأساطير والحكايات الشعبية المتداولة عبر التاريخ، تتوقف السيارة في منتصف الطريق إليه في أعلى الجبل، وعلينا إكمال الصعود سيرًا على الأقدام في طريق متعرج تحفه الصخور، وفي ذلك نوع من الجهاد والكفاح من أجل الحصول على العلم والمعرفة، فالرهبان يفعلون أكثر من ذلك فعليهم الاعتكاف في هذا المعبد والصوم لمدة أربعين يومًا لا يتناولون خلالها شيئًا سوى الماء، لكنَّ ذلك يجعلهم يصلون إلى مرحلة التنوير وهي أسمى المراحل التي يمكن أن يصل إليها البشر..

في الأعلى حيث يقبع المعبد المغلق في هذا الوقت من العام إلا ربما للرهبان الذين يحجون إليه للتعبد في سكون وهدوء وصفاء المكان،

خصوصًا أنـه يتكون من عدة قمم متعددة الأشكال، وتحيط به الهضاب والصخور الجبلية بشكل رائع، تجعله يبدو كلوحة زيتيه لأحد فناني عصر النهضة، تصعد قليلاً إلى الأعلى حيث يقع دير آخر يقال أنّ خلفه تقع صخرة يعتقد أنّ الحكمة أنزلت من السماء على الكاهن «دوسينج جوكسا» وهو جالس عليها، ولو فكر هؤلاء قليلاً لأيقنوا أنّ الحكمة موجودة إذًا في السماء..

شكرت الله على نعمة الإسلام وعلى العقل، ونزلنا باتجاه المدينة التي تجولنا بها قليلاً ثم انطلقنا نحو العاصمة، حيث وصلنا ليلاً منهكين، أنزلني أمام الفندق وعاد إلى قريته، في بهو الفندق ثمة احتفال وهناك مدعوين، وبعد قليل تمخطرت أمامي فتاتين بفساتين السهرة، توقفت إحداهن، التفتت نحوي، ابتسمت، اعتقدت أنها تعرفني، اتجهت نحوي، تأهبت للحديث وقد رسمت ابتسامة على وجهي، شعرت بنوع من السعادة، بددها شاب خرج من خلفي، احتضنها واختفيا في الظلام..

في صباح اليوم التالي شعرت أنّ تلك الموسيقى الصباحية الحالمة المنبعثة من مكان ما في بهو الفندق أعادتني إلى منطقة ما من الذاكرة، فخرجت من الفندق لا إراديًا أهيم على وجهي في شوارع المدينة بحثًا عن منظر طبيعي ينسجم مع الموسيقى التي لازلت أسمعها في رأسي..

بعيدًا عن المباني الشاهقة، ثمة جدول مائي تبعته حتى وجدته يصب في بحيرة صغيرة، أقيم في وسطها كوخ للاسترخاء لآخر

امبراطور حكم البلاد قبل أن يغزو الجيش الياباني الشرس البلاد، ويقتل الامبراطور، ويقضي على العائلة الامبراطورية بأسرها ما عدا أصغر الأبناء، الذي تم الإبقاء عليه من أجل أن يكون آخر وريث للدم الامبراطوري، ومن أجل ضمان انتهاء تلك السلالة الامبراطورية هي وتاريخها، تم تربية ذلك الطفل بعيدًا عن وطنه، وعندما كبر تم إرغامه على الزواج من فتاة يابانية من العامة، حتى يتماها الدم الامبراطوري مع دماء العامة، ويفقد بذلك نقاءه فلا تقوم قائمة لتلك السلالة إلى الأبد، ويندحر تاريخها وتاريخ شعبها..

غير أنّ الشعوب لا تموت، ولابدَّ أن تجد في تاريخها ما يجعلها تحتفظ به مهما تكالبت عليها الأمم، ومهما خطَّطَ لها الاعداء..

نظرت حولي فوجدتني في القصر الامبراطوري بعد أن تحوَّل إلى مكان يستعيد التاريخ ليجذب السياح، كل شيء على ما كان عليه، بعد أن تم ترميمه ليبدو كما كان، حتى الحراس ها هم يرتدون الملابس التي تعود إلى تلك الحقبة، ويؤدون دورهم المعتاد وطقوسهم الامبراطورية بشكل يومي، كأنّهم لا يزالون يعيشون في التاريخ، القصر يتفرع لعدة مبان، لكل مبنى هدف معين..

تركت القصر وحراسه وعُدت أتأمل البحيرة الهادئة، صفحة الماء نقية تعكس صورة السماء الصافية، والشجرة الوحيدة التي تقف شامخة في وسطها بجوار الكوخ، وثمة حسناء ربما تكون نجمة سينمائية، أو عارضة أزياء يلتف حولها المصورون، يلتقطون

لها صورًا على خلفية المكان، ربما كنوع من الترويج للمكان أو لعله لملابسها الشتوية الأنيقة، تصورت أنّهم قد يرغبون في التقاط الصور بمعيتي بحكم أنني عابر سبيل غريب عن المكان، اقتربت منهم، نظرت الفتاة نحوي، ابتسمت، اقتربت منها وقبل أن أتحدث، تموضعت بجواري من أجل التقاط الصور، ثم قامت بحركات سينمائية من أجل مزيد من الصور، ثم منحتني عناقًا طويلاً وقالت إنّه عناق مجاني من أجل رسم ابتسامة صباحية على وجهي..

أفقت والدهشة تعتلي وجهي وابتسامة باهتة تكاد تتلاشى، تركت المكان وشعور مبهم يخالجني، فسرته بأنه شعور بالسعادة..

الفصل السابع والعشرون

الحنين إلى النّبي

في صباح اليوم التالي غادرت سيؤول مستكملاً رحلتي باتجاه الغرب، في الطائرة، في كرسي في الدرجة السياحية، نظرت حولي فوجدتني الوحيد المختلف على متن هذه الطائرة، جميع المسافرين من العرقية الآسيوية، من الصينيين أو الكوريين، لن ترى شخصًا واحدًا من عرقية مختلفة غيري أنا، فلم أجد سوى الابتسام لأنني تذكرت تلك الخرافة التي روتها لي العرّافة الغجرية المجنونة التي حدثتها في روما، عندها نصحتني بالتوجه إلى الغرب، وها أنا مذ ذاك أدور حول الكرة الأرضية إلى أن وصلت إلى شرقها، ولا أزال أدور في نفس دورانها، قد أسخر من حديث العرّافة غير أنّ جزءًا مني كان يصدقها رغمًا عني، وإلا لماذا قطعت كل تلك الأميال والمحيطات، ولماذا طفت حول الأرض وليس لديّ هدف سوى الهروب وملاحقة الغروب..؟

ترى هل تخلصت الآن من تلك الألف لعنة ولعنة التي تحدثت عنها العرّافة المجنونة، آلا يكفي كل ذلك الهروب، وكل ذلك التيه وآلام الضياع في صحراء الغربة وفيافي الوحدة، بل وكل ذلك الترحال لأتخلص من تلك اللعنات..؟

كانت الرحلة مملة، ولم أجد ما أتسلى به في الطائرة، لأنَّ كل الأفلام إما صينية أو كورية، ليس هناك فرق كبير فلم أكن أُجيد أي من اللغتين على أية حال، وفي غضون ساعات وصلت إلى شنغهاي، المدينة التي يعني اسمها «فوق البحر»، وقد وجدت نفسها في موقع

متميز عند مصب نهر «اليانغتسي» الذي يصب في بحر الصين الشرقي..

وجدتني مبهورًا بالمدينة العظيمة، كل شيء فيها حديث ومبانيها الشاهقة تجعلك تشعر بأنك في مدينة مستقبلية، كأنك في واحدة من تلك المدن التي تظهر في أفلام الخيال العلمي، على الرغم من ذلك تركت كل ذلك الصخب وبحثت عن مكان أقل صخبًا في وسط المدينة، لأبقى مع نفسي، فوجدت ضالتي في حديقة «يويوان» أو حديقة البهجة، وهي حديقة تعود إلى القرن السادس عشر، شيء عجيب يذهلك، وهو ما جعلني أكمل استكشاف هذا العالم المختلف، فذهبت إلى الحديقة القرمزية، وهي أيضًا حديقة تاريخية..

ثم ما لبثت أن اكتشفت منتزه «تشونغشان» الممتد على طول نهر «هوانغبو» وهو ما أخرجني من العزلة لأنّه يغص بالمرتادين..

بحثت عن مكان أتناول فيه الطعام فلم أعد أتذكر متى كانت آخر مرة تناولت فيها طعامًا، هنا في هذه المدينة على الأقل هناك الطعام الصيني المقبول، ووجدتني أقف أمام مطعم، فدخلته لأقضي فيه بضع ساعات لتناول وجبة واحدة مليئة بالطقوس وبالصحون التي توضع فيها أشياء صغيرة لا تكفي واحد مثلي ملهوف على الطعام منذ عدة أيام..!

تترك شنغهاي لتسير في هذه الأنحاء متسكعًا إلى أن تجد نفسك في مدينة «قوانغتشو»، ليأخذك سائق الدراجة الهوائية التي امتطيتها رديفًا- لأنّها أرخص وسيلة نقل هناك- إلى مسجد «هوايشينغ»

ولتعرف فيما بعد أنّ الكلمة تعني «الحنين إلى النبي»، سائق الدراجة الهوائية تصرَّف معتمدًا على التخمين، فهو لم يفهم إلى أين تريد الاتجاه، وربما نظر إلى هيئتك فراهن أنك حتما ترغب في الذهاب إلى المسجد الوحيد في المدينة، تدخل المسجد، تُصلي، تُحاسب نفسك لأنك في خضم عملية الهروب تنسى أن تدخل المساجد ربما لأنك صرت تخاف من أن توصم بأنك مسلم، إرهابي، تشعر بأنَّ الجبن يتعزز في نفسك، تطرد تلك الأفكار من رأسك، تعود إلى الواقع، تشعر بالخشوع عندما تسمع همهمات المصلين وتلاوة القرآن بتلك الأصوات الشجية، تشعر ببرودة ذلك الركن الذي تقبع فيه وحيدًا، تخرج، تتأمل طريقة بناء المسجد، ثمة لوحة معلقة على المدخل منقوش عليها بالعربية «هذا هو أول مسجد في الصين بناه سيدنا وقاص»، تجلس إلى الإمام المسن، تستمع إليه، يغمغم بصوت خافت بكلمات لم تفهمها، إنّه يتحدث بالصينية، تقترب منه، تخبره أنك عربي غريب في المدينة، يحكي لك قصصًا وحكايات عن هذا المكان، يخبرك بأن وقّاص هذا الذي بنى المسجد يقال أنّه حكيم عربي جاء للدعوة للإسلام مبكرًا في زمن ما من عهد أسرة «تانغ» (907-618م)، ويخبرك عن كل الرحالة والتجار العرب الذين وطأت أقدامهم هذه الأرض، تشعر بالألفة لأولئك المصلين «الهوي» لأنّهم ينحدرون من أولئك العرب الذين جاؤوا إلى هذه البقاع قبل مئات السنين، تستعيد كل تلك الأساطير حول وصول العرب إلى هذه البقاع حتى قبل الاسلام، قصص لقدماء التجار

العرب يرويها هؤلاء «الهوي» لأنّهم يعتبرونهم أسلافهم وأجدادهم الذين جاؤوا مع الفتح الإسلامي ليشكلوا اليوم نحو 9 ملايين نسمة، يشعرون بالفخر ويتمسكون بما بقي لهم من تقاليدهم التي تشكل عرقهم، فهناك غيرهم من تسع عرقيات مختلفة يدينون بالإسلام، إنهم من الأويغور والقزخ والقرغيز والتتار والأوزبك والطاجيك ودونغشيانغ وسالار وباوآن ليشكلوا مجتمعين نحو 18 مليون مسلم، في بلد عدد سكانه يقترب من المليار ونصف من البشر..!

قصص الكفاح التي مرَّ بها تاريخ المسلمون في الصين التي يرويها لك الإمام لأنّه مقتنع أنك لابدَّ أن تعرف تلك المعلومات التي لم يعد أحد يتذكرها بسبب تشابه الأسماء وتشربكها بدرجة معقدة، يحملك مسؤولية نشرها ليعلم بها غيرك من العرب حتى يشعروا بالفخر، لأنّ أسلافهم بنوا حضارة عظيمة امتدت بين الشرق والغرب، تشعر بنوع من الخزي لأن تلك الأمة العظيمة لم يبق منها إلا الأطلال، ولأن أبناء تلك الحضارة لم يعد بينهم من يفتخر بإنجازاتها، فيما لا يزال هؤلاء القوم يفتخرون بها، ربما لأنهم لا يعرفون ما تعرف، تتقوقع على نفسك وتشعر بالغرابة وبالسخرية من نفسك لأن هؤلاء القوم يشعرون بأن لك نوع من القداسة لأنك تذكرهم بأسلافهم الذين جاؤوا من الصحراء العربية، يذكرك ذلك بالوطن، فتشعر بالحنين إليه، وتفكر في الرحيل، في العودة إلى الوطن، لكنّ شيئًا ما يجعلك تبقى لأن رحلتك لم تنته بعد ولم يحن الأوان للعودة إلى الوطن..!

تعود إلى سخريتك من نفسك، تشعر بالأسى، تبتسم بسخرية، فلن يقال عنك يومًا، أنّ عربيًا حكيمًا قد عاش بينهم في يوم ما، فأنت لم تقدم لهم شيئًا، بل إنك مجرد عابر سبيل متطفل، وليس لديك هدف أو عمل تقوم به سوى الانتظار البائس، وأنت تمضي الأيام الرتيبة المتثاقلة في هذه المدينة..

ثمة شيء يلح عليّ للذهاب إلى بكين، ربما طيف تلك الفتاة الصينية التي جلست بجوارها في الطائرة في طريقي إلى هذه البلاد، كانت لطيفة ودعتني لزيارتها بعد أن عرفت أنني كاتب متجول فقد رأت أنّ في مدينتها ما يستحق الكتابة، غير أنّ لطفها وحسنها كانا دافعين لي لتلبية طلبها..

وفي مساء ذلك اليوم امتطيت قطارًا إلى العاصمة الصينية، وفي الطريق ربما داهمني النوم، ورأيت فيما يراه النائم أنني أجوب شمال البلاد برفقة تلك الحسناء، بل وأنّ الإقامة طابت لي في بكين، وأجدت لغة أهلها وعملت مترجمًا ومستشارًا تجاريًا وتحسنت أموري وذاع صيتي..

غير أنني أفقت من حلمي مرعوبًا بعد أن سكب أحدهم حساء «نودلز» فوق رأسي وملابسي، رغم ذلك لازمني شعور جميل، وتمنيت لو أنّ تلك الرؤيا كانت واقعًا، فأتوقف عن الترحال ويستقر بي الحال في هذه البلاد..

غير أنني عندما أكون صريحًا مع ذاتي، أعترف بأنني لا أرغب في البقاء في مثل هذه البلاد، ليس هناك ما يشدني للاستقرار هنا،

وهو ما يشعرني بالراحة والاطمئنان، لأنّ الرحلة لا تزال مستمرة ولم يحن بعد أوان البقاء في مكان واحد، لم يحن أوان الاستقرار والتوقف عن الترحال..

عندما وصلت، تحدثت إلى الفتاة، ولم تمضِ ساعة حتى كانت تصحبني مباشرة إلى السور العظيم، فلابدّ أن أزوره لأنه مقصد لكل من تطأ قدميه هذه البلاد التي تمتد حضاراتها إلى آلاف السنين..

اضطررت إلى ركوب عربات معلقة رغم الشعور بعدم الارتياح، وعندما وصلنا إلى قمة السور سرت طويلاً أتأمل هذا الصرح وطريقة بنائه في وقت مبكر من عمر البشرية، فقد تم بناؤه في عام 204 قبل الميلاد لحماية المدينة من هجمات الشعوب الشمالية من ترك ومغول ومنشوريين وخصوصًا من غزوات شعب الهون..

ورغم كل تلك الجهود التي بذلها اباطرة الصين الواحد تلو الآخر لإنهاء بناء السور، غير أنّه لم يقم بمهمته المطلوبة في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الشعوب البربرية التي توالت عليها على مر العصور، إلى أن جاءت سلالة «تشينغ» التي تنحدر أصلاً من تلك الشعوب البربرية لتوحد البلاد وتشن الغزوات، وهو ما مهد لمرحلة من الاستقرار خلصت البلاد من التهديدات الخارجية..

اليوم تعتبر الجهة الشرقية من السور والتي تمتد على بضعة مئات من الكيلو مترات، أفضل الأجزاء التي حافظت على تماسكها عبر العصور، بينما لم يبق من الأجزاء الأخرى غير الأطلال.

مشيت برفقة الفتاة الصينية طويلاً على سور الصين العظيم، وكانت هي مسلية وظريفة وهي تقص عليّ قصص وخرافات عن هذا السور، قصص مضرجة بالدماء والحروب، ومفعمة بالحب والرومانسية، نظرت إليها وهي تتحدث بحماس، يديها وهي تحركهما في الهواء، شعرها المنسدل وهي تزيحه أحيانًا من على عينيها بطريقة جميلة، ضحكتها البريئة وهي تحاول إخفاءها، شعرت كأنني أعرفها منذ زمن بعيد، وتركت نوعًا من الألفة في نفسي..

قبيل نهاية اليوم قررت ألا أعود إلى المدينة وأن ألبي دعوة الفتاة لزيارة قريتها الصغيرة التي لا تبعد كثيرًا عن المدينة، حيث الطبيعة والهدوء، بعيدًا عن ضجيج المدينة وصخبها وزحامها..

قضيت تلك الليلة في القرية، وسهرنا حول موقد دافئ في منزل ريفي أقص رحلاتي ومغامراتي على بضعة رجال قرويين من أقارب الفتاة، وهي تترجم أحيانًا، وتكتفي بالضحك أحيانًا أخرى، بعد أن تسمع تعليق أحدهم، الواقع أنني شعرت أنهم ربما كانوا يسخرون من أحاديثي فكثيرًا ما تنتابهم موجة ضحك وتعليقات دون أن أفهم شيئًا، غير أنّ الفتاة كانت تؤكد أنّهم معجبون بحكاياتي ومغامراتي ويجدون فيها متعة وطرافة تجعلهم يضحكون، بل إنّهم دلوني لإكمال طريقي نحو بلدة في أعالي الجبال، فهناك سأجد الغرائب والعجائب، وستتغير نظرتي للحياة بل وسيتغير حظي إلى الأبد، وسأجد ما أبحث عنه من سلام داخلي، سأجد علاج لكل لعناتي

التي أصبت بها جرّاء العشق والخيانة، وسأجد الذات التائهة، بل وسأجد الحب الذي نبحث عنه جميعًا..!

ربما جعلني ذلك أشعر بحماس لإكمال الرحلة، خصوصًا أنّها في نفس اتجاه الغروب حيث يفترض أنّه اتجاهي، وشعرت بروح المغامرة تعتريني مرة أخرى، وهو ما جعلني أشعر بأرق طوال الليل، زاده ذلك العواء الحزين، الذي لم أعرف مصدره، هل هو صادر عن كلب أم عن ذئب، غير أنه أزعج نومي طوال الليل..!

الفصل الثامن والعشرون

مطاردة الشياطين

في الصباح، ودعتهم وأكملت طريقي نحو الغرب، وأوصلتني الفتاة إلى محطة ارتجالية صغيرة، حيث وجدت حافلة ركاب صغيرة، حشرت نفسي بين ركابها، وليس لديّ طريقة للتفاهم سوى لغة الإشارة، في المحطة التالية ركبت حافلة أخرى متوغلاً باتجاه الصحراء، كان عليَّ أن أركب ثلاث سيارات أخرى لتوصلني إلى قرية تُسمى «فن تسو يونج» وهي تقع في أعالي الجبال، حيث سألتقي بالكهنة المتنورين، الذين سأتعلم منهم قيم نبيلة، لا تتعارض مع الدين، لكنها ستجعلني أتخلص من الألف لعنة ولعنة، وستجعلني أرى الأشياء بصورة مختلفة، وستجعلني أتمكن من إكمال المسير نحو المجهول، برؤية وبصيرة، هناك سأتعلم أن أعيش يومًا بيوم، فأتمكن من مطاردة أشباحي وشياطيني، وألا أكون أسيرًا لهم بعد الآن..

ها أنا أهيم على وجهي في هذه الأراضي الصينية الشاسعة متنقلاً بين الأقاليم أجوب القرى والبلدات باتجاه الشمال الغربي بحثًا عن تلك البلدة التي عرفت لاحقًا أنّها عبارة عن معبد معزول عن العالم شيد على قمة جبل لا يصله إلا قلة من الناس غالبيتهم من طلاب المعرفة أو تلاميذ الرهبنة وقليل من الحجاج الذين قد يأتون بهدف التطهر من أدران السنين وعليهم قضاء أربعين ليلة على الأقل في ذلك المعبد الذي تحيطه هالة من الأساطير ربما وضعها الرهبان على مر السنين من أجل إضفاء قدسية على معبدهم الذي يحظى

بسلطة على اتباعه..

تداهمك المخاوف والهواجس أحيانًا، ويفتك بك اليأس والإحباط أحيانًا أخرى، تشعر بالاكتئاب وبالندم على خوض هذه الرحلة العبثية، في هذه البلاد التي لا تعرف فيها أيَّ أحد، ولا تعرف التحدث بلغة أهلها، فتضيع في متاهات اللغة والطريق، تشعر بأنك مفقود، وبأنك مسافر إلى المجهول، تمضي عدة ليال بلا مأوى في البرد، وتكمل ترحالك سيرًا على الأقدام، تمشي كثيرًا حتى تنهك وتقف طويلاً في انتظار أيِّ وسيلة نقل، تتوغل في القرى، تغوص في أعماق الأرياف، بحثًا عن خلاص، وعن الطريق إلى وجهتك التي لم تعد مهمة، بقدر أهمية الوصول إلى محطة للعودة إلى أقرب مدينة، لكنك تعرف أنّ أقرب مدينة من هنا تبعد مئات الكيلومترات، فتكمل المسير فهو على أية حال في نفس الاتجاه الذي تسلكه منذ أن تركت الوطن، إنّه الطريق نحو غروب الشمس، حيث البداية والنهاية، وحيث يولد كل شيء من جديد..

مظهرك البائس يجعلك تبدو شبيهًا بالأهالي، غير أنّك لا تبالي، لأنّ ذلك يفيدك، فلا ينفر الناس منك، لأنك لا تكون غريبًا عنهم، إلا في عدم تمكنك من التواصل معم بنفس اللغة، فغالبيتهم مهما حاولت لا يفقهون إلا الصينية التقليدية، من يراك قد يعتقد أنك مجرد قروي تائه بعيدًا عن قريته، غير أنّ كثيرًا ممن صادفتهم وسألتهم عن الطريق إلى ذلك المعبد كانوا يعتبرونك «تشاوشن» والتي تعني بالعربية «حاج»، تعجبك صفة الحاج أو «التشاوشن»

خصوصًا أنّ الكلمة يسهل نطقها بالصينية المبسطة ولذلك صرت معروفًا بأنك مجرد «تشاوشن» عابر سبيل..

أحيانًا عندما تكون في الطريق، وأنتَ تعاني من الوحدة والغربة في العراء، تنظر إلى الصحراء المترامية الأطراف قبيل غروب الشمس، الأفق يبدو أحمر قانيًا لا نهائيًا، يشكل منظرًا رائعًا، لا يشبه شيء لدرجة يشعرك بالضآلة، بينما يجعلك الهدوء الذي يعم المكان تشعر بالوحشة..!

تسير في تلك الأنحاء، مخترقًا الصحراء، تجد قافلة قيل لك أنّهم «تشاوشن» أيضًا، تشعر بنوع من الألفة لهم، فتنضم إليهم، لتكمل الطريق كواحد منهم، بحثًا عن سلوى لدى الرهبان الناسكين، الذين تُوقن جيدًا أنك لن تجد ما تبحث عنه لديهم..!

ها أنت تسير مع قافلة الحجاج هذه نحو المجهول، أو إلى ذلك المعبد الأسطوري القابع في أعالي الجبال بعيدًا عن الحضارة العصرية، الطريق وعرة، والموارد قليلة، ولا شيء سوى المسير ليل نهار تقريبًا، حتى تقرحت الأقدام من فرط المسير والإنهاك، غير أنّهم يعتقدون أنّ ذلك نوع من التطهير، وأنّ هذا الطريق لابدَّ من سلوكه من أجل الوصول إلى الخلاص، وإلى السلام الداخلي..

تعرف أنّ طريق البحث عن الحقيقة ليس مُعبدًا بالورود، وأنّه وعر صعب فتتحمل وعورة الطريق، بحثًا عن الأمل، وعن الذات الضائعة التائهة في فيافي الوحدة، وصحراء الغربة، تتراءى لك الجبال من بعيد، تغلفها الغيوم، تشعر كأنك تعيش في لوحة طبيعية لفنان

آسيوي حالم، غير أن ثمة إحساس بنوع من الرهبة يداهمك، ربما يكون ناتج عن الإقدام على شيء جديد لا تعرفه، لأنه يمثل بالنسبة لك عالمًا خياليًا مجهولاً، أو ربما لأنك مُقدم على مغامرة مختلفة، هؤلاء القوم مسالمون، لأنهم يتحلون بالفضائل من أجل أهداف أسمى، فليس هناك ما قد يثير القلق، أو المخاوف لكنك لا تشعر بالاطمئنان كلما اقتربت من وجهتك..

تدفعك رحلتك للاعتقاد بأنك ستتخلص من الجنون، ومن معاناة الحياة التي يسببها شقاء الولادة والشيخوخة، والخوف من الموت، ومن الإخفاق، تتعلم في الطريق من تعاليم بوذا، كما تعلمت سابقًا من تعاليم كونفوشيوس، إنّها مجرد نظريات فلسفية، فتعجبك المسألة لدرجة أنّك تصدق أنّك فيلسوف، فتبحث عن مريدين وتلاميذ، لأنك تؤمن أنَّ سبب الشقاء هو الأنانية الإنسانية وحب الشهوات، وتلك غريزة بشرية مرتبطة بالبقاء والوجود..

تتذكر جنونك، عشقك، أخطاءك، خياناتك، ماضيك، شياطينك ولعناتك، تبحث عن الخلاص، وعن التكفير، وعن الصفاء الروحي، أو ما يُسمى في هذه الثقافة بحالة «النيرفانا»، لأنك تعلم أنك لن تستطيع كبح جماح النفس، وشهواتها، كما قد يفعل هؤلاء الذين تسير بينهم، لن تتمكن من ترويض النفس، أو تعويد العقل على التأمل للتخلص من الشوائب، لأنَّ تأملنا مختلف وأفكارنا مختلفة، فتوقن أنك لن تستطيع الوصول إلى مرحلة الخلاص، ولا إلى التنوير..

تضحك دون أن تشعر بصوت عالٍ على تلك الأفكار، لأنَّ عقيدتك واضحة وإيمانك راسخ، فتشعر بريبة واستغراب رفقاء السفر، تتصرف على سجيتك، وتكمل الطريق في صمت فلا أحد يفهم ما تقوله على أية حال سوى ذلك الراهب العجوز الذي يتحدث الإنجليزية، غير أنّه منشغل عنك لأنه يقود هؤلاء القوم إلى ذلك المعبد في أعالي الجبال ولن يكون مهتمًا بقصصك السخيفة..

ثمة موسيقى في رأسي لا أعرف ما الذي حثّها على الخروج من مناطق مهملة في الذاكرة، وجدتني أدندن بها ونحن نسير صعودًا نحو المعبد المعلق في هذه الجبال في مكان ما من شمال غرب الصين، نحن في مناطق التبت والارتفاع هنا في هذه الجبال شاهق بالنسبة لي، الصعود في منحدرات وطرق ضيقة يجعل واحد مثلي لا يمتلك لياقة بدنية أمرًا صعبًا، وربما ذلك ما يجعل تلك الموسيقى تصدح في رأسي..

غير أنّ هناك ما يدفعني لإكمال الصعود، ربما ذلك الدافع الخفي بحثًا عن المعرفة، أو البحث عن المغامرة في العثور على تجربة مختلفة، تشبع ذلك الفضول الغريزي الذي من خلاله نصل إلى معرفة الذات ورضا النفس، وربما هو مجرد وهم أتبعه من أجل الحصول على علاج للّعنات التي تطاردني إلى الأبد..!

ألتفت حولي فأرى هؤلاء القوم الذين تطفلت للسفر معهم عاكفين على الابتهال فأوحد الله، أسير نحو ذلك الراهب العجوز الذي يقود القافلة لنتبادل الأفكار الفلسفية حول الخلق والوجود والكون

والله ورسله، والتي قد لا نختلف كثيرًا حول جوهرها ولكن تختلف الرؤى، لأن كل ثقافة تراها بمنظور مختلف، وحول سر بناء مثل هذا المعبد، في مثل هذا المكان المرتفع فوق الجبال، وليخبرني عن الأساطير التي تدور حول هذا المعبد، ولأكتشف لاحقًا أنّ كل تلك الخرافات ما هي إلا أفكار هؤلاء البسطاء حول هذا المعبد الذي لم يزره أيّ منهم في الغالب سوى ذلك الراهب العجوز الذي يجعل من الصعود مسليًا بقصصه الفلسفية المبسطة، وبطريقة يمكن أن تكون جدلية أمام واحد مثلي، فننطلق في جدال ونقاش فلسفي لا ينتهي، لأنَّ بعض الأمور يثيرك أن لا يتم فهمها بطريقة مسلم بها، الجدال معه مثير، لأنه يبتسم كلما وصلنا لنقطة جدلية، لدرجة أنّه بات يعتبرني فيلسوفًا حكيمًا، وضحكنا أكثر من مرة عندما يتوقف ويسألني إن كنت واثقًا أنني مجرد «تشاوشن» عابر سبيل..!

أضحك من كلامه ساخرًا، وأكمل الطريق، وقد أنظر إلى الخلف فأرى أولئك البسطاء وفي أعينهم نظرات توقير، وربما أشعر بنوع من الزهو لأنّ الراهب العجوز يتحدث معي بطلاقة، بل ونضحك معًا في حين أنّه غالبًا ما يكون صامتًا متجهمًا، لأنّ الصمت دليل حكمة ووقار كما يقولون هنا، وفي اعتقادهم أنّ على «التشاوشن» الصوم وذلك، يشمل الصوم عن الكلام أيضًا..!

بعد بضع ساعات من الصعود وصلنا إلى المعبد، لم يكترث بي أحد في بادئ الأمر، فهناك أعداد كبيرة من الناس جاؤوا من مختلف البقاع، وكل مشغول بطقوسه، وعباداته وبحثه عن الخلاص

والسلام، غير أنّ الراهب العجوز عاد إلى الاهتمام بي، لأنني أُمثل ثقافة مختلفة عمّا عرفه هؤلاء، فذهبنا معًا لتعلم المزيد وتبادل المعرفة..!

هل يمكن للإنسان أن ينسى الماضي بكل ما فيه، وأن يبدأ حياة جديدة؟ يبدأ من جديد بلا تاريخ، يمسح ذاكرته ويمسح كل ما بها من أشخاص وأماكن وأيام ومواقف..!

هل يمكن للإنسان أن يتخلى فعلا عن ذاكرته، أم أنَّ هناك أشياء يجب على المرء أن يحتفظ بها بالرغم ممّا قد تكون عليه، سيئة أو جيدة، حلوة أو مرة..؟

وجدت تلك التساؤلات تقفز إلى ذهني وأنا أقبع هنا في هذا المعبد التبتي، وأنا أجلس حليق الرأس على هذه المصطبة التي وضعت لغرض ما في ساحة المعبد، أطلب الدفء من الشمس التي تخلت عن حرارتها في هذا الجو البارد، ونحن على ارتفاع شاهق في أعالي جبال التبت..!

أعرف أنّ ذاكرتي مليئة «بالكراكيب» التي ربما لن أحتاجها مرة أخرى في يوم ما، غير أنني أحتفظ بها لأنَّ نفسي لا تطاوعني التخلي عنها ونسيانها تمامًا كتلك «الكراكيب» التي أحتفظ بها في صناديق كرتونية في أماكن متفرقة وقد تأكلها دابة الأرض قبل أن أعيد فتحها أو أحتاج إلى شيء منها..

«كراكيب» في كل مكان، في المكتب، في السيارة، وفي المنزل، وهي مجرد تذكارات وكتب أشتريتها وربما لم أقرأها بعد، أو مجرد

أوراق وقصاصات ربما لا تفيد أحد غيري ولن يفهم أي أحد ما بها ولماذا أبقيها وأحفظها..!

غير أنّ تلك الصناديق ربما تعكس حالة عدم الاستقرار التي أعيشها، لأنني على سفر دائم، ولأنني مجرد عابر سبيل في هذه الحياة، فكلنا راحلون، فالدنيا ليست مكان مقر، إنّها مجرد محطة من محطات العمر نعبرها سريعًا، وتمضي أعمارنا مسرعة كلمح البصر دون أن نشعر..

ربما تجد شيئًا من الراحة الداخلية بعد بضعة أيام من التأمل الذاتي، ومن العزلة، ومن الشعور بالإيمان بالله وحده، وأنت في هذا المكان الذي يضج بالرهبان النساك، ترفع الأذان في هذا المكان وتمارس صلاتك أمامهم وهو يراقبونك باستغراب، لكنهم يؤمنون أنّك تمارس التأمل على طريقتك وأنك تناجي ربك..

تتعلم ترانيمًا رتيبة لا تفهمها، لكنها تجعلك تصل إلى درجة من صفاء الذهن، لدرجة أنك تشعر بأنك تُحَلِّق في الهواء، وتتعلم اليوغا وفنون أخرى تجعلك تصل إلى مرحلة من الاسترخاء الذي يعطي الذهن قوة فائقة للتأمل..

تبتسم الآن كلما تذكرت تلك اللحظات التأملية، وحواراتك مع الراهب العجوز الذي بدأ يرى في عقيدتك أمورًا منطقية أكثر من تأملاتهم الفكرية، تحمد الله على نعمة العقل، وعلى نعمة الإسلام، فمن يمعن الفكر يصل إلى مسلّمات منطقية في مسألة الخلق والوجود، وأنّ هناك خالق واحد لكل الأشياء في هذا الكون الواسع،

الذي لا يحيط به العقل البشري مهما وصل إلى مرحلة التنوير..
بعد بضعة أيـام تقرر الرحيل من أجل إكمال الرحلة، فأمامك سفر طويل، يقدم لك أولئك الرهبان المساعدة للوصول إلى أقرب محطة..

تجلس في المحطة البائسة بانتظار القطار الذي سيقلك إلى المحطة التالية، تجدها فرصة أخيرة للتأمل قبل مغادرة هذه الأنحاء، تنظر إلى نفسك، مظهرك البائس، لحيتك التي طالت وجسدك الذي فقد بضعة كيلو غرامات، تشعر بأنك أكثر نشاطًا، وبأنك صغرت في العمر بضع سنوات، وهناك شعور داخلي يجعلك تشعر بأنك مختلف، وبأنك شخص جديد نقي، وبأن ذاكرتك قد أصبحت أكثر صفاء وقوة..

تقضي ليلة في القطار وليلة أخرى في محطة نائية معزولة، وتُكمل المسير في الصباح الباكر، ترحل بعيدًا، تمضي أيامًا أخرى بين القرى المنعزلة، قبل أن تصل إلى «شينخوي» حيث ستتمكن من الحصول على تذكرة سفر بالطائرة التي ستقلك إلى هونج كونج لتبدأ مغامرة جديدة في مدينة عصرية، غير أنك ما إن تصل إلى هناك حتى تكتشف أنك لا تزال تشعر برغبة في البقاء وحيدًا، تشعر بأن تلك المعابد المعلقة فوق قمم الجبال، تستهويك لأنها تلامس السحاب، ولأنَّ فيها صفاء للنفس، لبعدها عن تعقيدات الحضارة الإنسانية، فتقرر أن تعود إليها، لأن فيها علاج لكل اللعنات التي تعاني منها، بل فيها علاج لأوهامك..!

تُقرر استكمال ممارسة عزلتك، فتبحث عن وسيلة توصلك إلى أقصى بقاع الأرض، تذهب إلى «كوتماندو» التي تصلها جوًا، لتخرج منها على متن حافلة بائسة متهالكة، تقلك أنت وبقية البؤساء العائدين إلى قراهم المنسية في ثنايا وسفوح جبال الهميلايا، هدفك الوصول إلى معبد الرُّهبان ذلك القابع في أعالي الجبال، حيث العزلة تنسجم مع الوحدة فتجد نفسك تتسكع وحيدًا منفردًا في طرقات العزلة والتأمل..

تصل إلى قرية بائسة في المساء، تضطر للمبيت فيها، في خان للمسافرين وعابري السبيل يقع على بعد عدة أمتار من محطة الحافلات، يفترض أن تلتقي في اليوم التالي بدليلك الذي سيوصلك إلى وجهتك البعيدة، لكنه لا يصل أبدًا، وقبيل منتصف النهار تقرر إكمال الطريق منفردًا، وتضحك لأنك ستسافر هذه المرة على ظهر حمار في طريق تصاعدي وعر، ستشفق على الحمار وتترجل وتمشي بجواره، لأنك تعرف شعور من يحمل أحمالاً ثقالاً وهو يصعد بها إلى القمم..!

تتحدث بصعوبة وبأنفاس متقطعة مع السائس القروي البائس الذي أصبح يعمل دليلاً لك، تعرف أنّه لا يفهم شيئًا ممّا تقول برغم أنه يهز رأسه إيجابًا، فتلتفت إلى الحمار تحدثه، تمزح معه أو ربما تواسيه على صعوبة الرحلة التي تعرف أنه سلك دربها هذا مرارًا وتكرارًا..

وعندما لا تجد من يفهم كلامك، ويخيم الصمت من جديد،

تستعيد كل الذكريات، أسفارك، المصاعب التي مرت بحياتك، عشقك، بؤسك، شقاءك، أحزانك، ماضيك، وهروبك..!

تقطع الصمت لتطرد أشباح الماضي التي تطاردك، فتدندن بموسيقى يتردد صداها في عقلك، أنغامها تشبه النشيد الوطني لبلادك، ربما لأنَّ ذلك حاضر دائمًا في ذهنك كحضور الوطن الذي تشتاق إليه، لكنك تعرف أنك لن تعود إليه قريبًا، لأنَّ رحلتك لا تزال طويلة..!

مشهد انعكاس أشعة الشمس قبيل الغروب على أطلال القرية التي تطل علينا من الأعلى كان رائعًا، منازل حجرية كأنّها منحوتة من صخور الجبل يغلفها اللون الأخضر الممتد ليكمل رسم المشهد، تشعر بضيق في التنفس وكأن رئتيك غير قادرتين على تحمل الارتفاعات الشاهقة، تقف على حافة الجرف السحيق لتستنشق الهواء بقوة لتملأ رئتيك، تنظر إلى الأسفل فلا ترى سوى الضباب الذي يحجب الرؤية فتشعر بقشعريرة تسري في جسدك، لأنك تشعر أنك تنظر إلى مصيرك الغامض المجهول، تكمل المسير في طرقات القرية الضيقة خلف ذلك السائس البائس الذي سيأخذك لنزل بائس، ستبيت فيه ليلتك قبل أن تنطلق صباحًا بحثًا عن عزلتك في معبد التأمل الوجودي الذي تقصده..

تقضي تلك الليلة وحيدًا، يجافيك النوم، تتقلب على الفراش، تشعر بالبرد وبالحنين وبالبؤس..

في صباح اليوم التالي، تمر على المقهى الوحيد في القرية فتجد

حسناء فاتنة تقدم القهوة، تتحدث معها، تبتسم لك، فتأخذ قلبك لأنك تعرف تلك الابتسامة، تدقق في عينيها فتشعر أنك تعرفهما من قبل، فتشعر برغبة في البقاء قليلاً في هذه القرية البائسة..!

الفصل التاسع والعشرون

معارك عبثية

تلملم أشيائك البائسة، تحدث حقيبتك العزيزة وأنت تكدس بها أشياءك، تخبرها بأنَّ وقت الرحيل قد حان، وبأن الطريق وعر طويل..

ترحل مرةً أخرى، لأنه مكتوب عليك مواصلة الرحيل، تسير إلى قدرك المحتوم، إلى حيث تأخذك الحياة وتمضي بك الأيام والسنين، تحمل وطنك في صدرك، لأنَّه يعز عليك مفارقته، ولأنك تريده أن يبقى معك أينما ذهبت وحللت، ليبقى ونيس وحدتك كلما وجدت نفسك تتسكع في طرقات العزلة وصحراء الأحزان..

تحمل أشيائك السخيفة في ذهنك، لأنَّه لم يعد لديك مكان تستودع فيه آلامك وأحزانك، همومك وأشجانك، أوهامك وأحلامك، جنونك وعشقك، وتمضي مبحرًا في فضاء الله الواسع، تبحث عن حب، عن أمل، وعن شيء ما لا يزال في علم الغيب..!

وعندما يفتِكُ بك الشوق والحنين، تضع الوطن أمامك، تسكنه، تعيش يومياته وتفاصيله، تجتر هواءه الذي تنفست، تسمو به وتعلو لأنَّ كل خلايا الجسد تحمل جزءًا منه، وبطريقة ما تجد صورة الحبيبة تقفز إلى ذهنك، فتفكر بها، وتعيش لحظاتك معها، لتتزود بنوع من الوقود يجعلك قادرًا على إكمال الترحال والمسير، بل وعلى إكمال الحياة، لأننا من غير الحب لا يمكن أن نعيش، بل نتحول إلى أشباه بشر، إلى كائنات طيفية، أو إلى مجرد أجساد تسير على الأرض بلا روح..!

ربما تتوقف في محطات البؤس، وتكمل رحلتك في كل الفصول، وتبقى هي مسافرة في شرايينك، فمهما فعلت فلن تتمكن أبدًا من النسيان، لأنَّ كل الأماكن تذكرك بها، وكل الفصول تحكي لك عنها، وكل المدن التي تمر بها تخبرك عنها، وبين كل مدينة ومدينة تتوقف قليلاً لتبحث عنها، وتسأل عنها، فمن يدري لعلك تجد شيئًا يدل عليها..!

وعندما تداهمك هواجس القنوط والهبوط والسقوط، تهرب من نفسك ومن أشجانك إلى الفراغ، لتعيش في أوهامك، لأنَّك تعرف أنّ الواقع أليم مرير، وأنّه لولا الأمل ما استطعت مواصلة الرحيل..! تصل إلى مدينة الخطيئة، تبهرك بأضوائها عندما تصلها ليلاً، تسير متثاقلاً بحثًا عن مكان تبيت فيه، تشعر بالألفة في هذه المدينة العصرية، تتوجه إلى مطعم أمريكي للوجبات السريعة، فقد سئمت طعام الرهبان، سئمت الأعشاب وعيدان البامبو المشوية، تشعر بأنك عدت إلى الحضارة، وأنّ المدن العصرية تناسبك أكثر، تنغمس قليلاً في أتون سعيرها، تستجير بأزقتها، بباراتها ونواديها، بأسواقها وزحامها، تتشرد، تتخلى عن ذاتك وعن كل ما يربطك بالماضي أو بالحاضر، تتحرر من كل شيء، لأنّك تشعر كأنّ الأيام تمارس عليك لعبة عبثية، فتشعر بالتناقض وبالخواء فتبحث عن السلوى، في فتيات المدينة الحسان اللاتي يتراقصن عرايا في النوادي الليلية، يُبهرك جمال أجسادهن وتناسقها، وأشيائهن المرتبة الجميلة، بطريقة لم ترها من قبل، تتسلى بهن، تداعبهن،

وتبتعد لأنك لا تملك تكاليفهن، ولأنك سئمت المجون والفسق، فلا تجد السلوى، وتهرب بحثًا عن الخلاص العاطفي، لأنه محتَّمٌ عليك أن تبقى عاشقًا إلى الأبد..!

تقرر إكمال المسير، إلى المجهول، تسافر على قدميك أوتمتطي قطارًا كلما سنحت لك الفرصة، تعبر قرى وبلدات لا تعرف اسمها ولا تكترث، تتسكع بضعة ليالٍ على حافة التشرد، كعابر سبيل يجوب الأرض بلا هدف، وبلا دليل، تستعيد روح المغامرة، تسير شمالاً إلى أن تصل إلى أطراف مدينة يقال لها «تشانج ماي»، حيث تقبع وسط الجبال في عزلة أبدية، تقاسمها العزلة بعيدًا عن الناس، وعن زحام المدينة ولغطها، تشعر بالانسجام مع الطبيعة، بالهدوء وبالسلام فتقرر العيش في الغابة بين الأشجار وحيث لا يوجد بشر، لكنك تعثر على كوخ قديم، تسكنه أم حزينة وابنتها الحسناء، فتقرر البقاء في ضيافتهما قليلاً، ريثما يحين الموعد من جديد لإكمال المسير..!

تبادلك الفتاة نظرات الفضول، تضحك، تغريها الدهشة التي تصنعها في الكوخ القديم، وتلك القصص التي ترويها عن حبك وعن وطنك، وعن مغامراتك، حتى صارت تتمنى أن تكون لك..

تقضي عدة أيام رائعة في مكان ما من تلك المرتفعات في أطراف مدينة «تشانج ماي»، خصوصًا مع الطقس المعتدل الذي يميل إلى البرودة ليلاً، كنت تعود إلى المدينة أحيانًا أو تهيم على وجهك مستكشفًا المكان، وفي ليلة من تلك الليالي التي تشعر فيها بالوحدة،

تدعو تلك الفتاة التي تقبع مع أمها في كوخها القديم إلى الخروج، ربما لقضاء بعض الوقت في المدينة، خصوصًا أنّ الفتاة ترغب في رؤية المدينة التي لم ترها منذ أن كانت صغيرة، لأنها لم تغادر مرتفعاتها تلك منذ أن توفي والدها قبل عشر سنوات، لم تمانع أمها لأنك صرت محل ثقة، ولم تفعل ما يثير الريبة، تستكشف المدينة برفقتها، تكون دليلها إلى العالم المتحَضِّر، وفي المساء تصحبها إلى نادٍ ليلي، لقضاء بقية الليلة في صخب غير معتاد، تقف متفرجًا أمام منصة الرقص تراقب المنتشين المتمايلين الثمال، وهي تقف قريبًا منك مشدوهة بالمشهد الصاخب، وتلك الموسيقى الغربية الصاخبة، قد تستغرب بينها وبين نفسها من هذه الطقوس الغريبة التي يمارسها هؤلاء البشر الذين يدعون أنّهم متحضرون، وقد تكتفي بالانتظار لترى النتيجة التي سيصل إليها كل أولئك الراقصون، فهل يا ترى هنالك مغزىً وراء كل هذا الرقص؟

في ذاكرتها القبلية يرتبط الرقص بطقوس دينية أو حربية، غير أنّه هنا عبثي وكأنه طقس شيطاني، وفي تلك اللحظة وهي غارقة في تأملاتها تلك، اقترب منها أحد أولئك الشبان المستهترين، يتبين لك عندما تقترب محاولاً تقديم الدعم والحماية للفتاة، أنّه أحد جنود المارينز الأميركان، شاب أسود ضخم مفتول العضلات، تربت على زنده المتين مازحًا لتخفف العدوانية، لأنك تشعر بأنه يخيف الفتاة، وأنتَ وصي عليها بعد أن ائتمنتك والدتها عليها، تحاول أن تعتذر للشاب المغرور بقوته وعنجهيته، وتهم بمغادرة المكان أنتَ والفتاة،

لكن ذلك لا يعجبه، فيسدد لك لكمة قوية تتمكن من تفاديها، وكردة فعل تلقائية دفاعية ترد عليه بركلة عنيفة تصيبه في مكان حساس بين فخذيه، فيترنح ويتخبط ويرتطم بعدة أشخاص قبل أن يقع أرضًا، فيستفز المشهد رفاقه، فيقفون كلهم ضدك، تفكر سريعًا، تبتسم ابتسامة باهتة، يعتريك الخوف، فالكثرة تغلب الشجاعة، تعتذر لكن سبق السيف العذل، يتناوب الجنود في توجيه اللكمات عليك، تنظر إليها والابتسامة الباهته تتلاشى، تستفز هي أبناء جلدتها، فينقض الجميع على الجنود ليوسعوهم ضربًا وركلاً وتسود الفوضى، وتتحول الحانة إلى ساحة للمعركة، تنظر إلى الجندي الضخم فتراه يفتك ويضرب هؤلاء الفتية من السكان المحليين، لكنهم أيضًا يذيقونه شيئًا من الألم، تُصرُّ على أن تركله ركلة أخيرة قبل أن تهرب من المكان مضرجًا بالدماء تتألم ضاحكًا..!

ودعتني الفتاة وأمها بالدموع واعتذرت لهما، فمهما عز الفراق فلابدَّ من الرحيل، لأنّ الوقت قد حان لاستئناف المسير، شكرتهما على تحمل حماقاتي، وعلى ضيافتي لبضعة أيام رغم ضعف الحال وقلة الحيلة، وعبرت لهما عن شكري ولم يكن لدي شيء أمنحه لهما تعبيرًا عن امتناني، وانطلقت أكمل طريقي نحو الغرب إلى أن وصلت إلى الحدود مع ماينمار (بورما سابقًا)، هناك توقفت كثيرًا بانتظار أن يُسمح لي بالعبور، في الواقع لقد استغرب الشرطي المكلف بنقطة الحدود من وجودي في هذه الأنحاء، قُلّب جواز سفري كثيرًا، وفي النهاية أخذني إلى رئيسه، وشعرت أنني أخضع

لعملية تحقيق أمني من كثرة الأسئلة التي طُرحت عليّ، شعرت أنهم ينظرون إليّ بكثير من الريبة، وعندما اقتنع مسؤول المركز الحدودي بأنني مجرد عابر سبيل رحال أخلى سبيلي، على أن لا أعبر الحدود إلى ماينمار لأسباب تتعلق بسلامتي الشخصية، فهو يرى أنَّ دخول تلك المناطق يشكل خطرًا على واحد مثلي في ظل وجود نوع من الفوضى، كما وصفها في تلك المناطق، وقد لا يسمح لي بالعبور أصلاً، ولو دخلت ربما يقبض علي بتهمة التجسس أو أن أقع بيد بعض الميليشيات أو العصابات المسلحة واحتجز أسيرًا أو رهينًا برسم فدية، وبرغم ما قد يمثله ذلك من إغراء لخوض مغامرة مشوقة، غير أنّ ذلك آخر ما ينقصني الآن، فالتزمت بالنصيحة، وغيرت الطريق جنوبًا عبر قرى وبلدات نائية إلى أن تمكنت من الوصول إلى محطة قطار في وسط الغابات تكاد تكون مهجورة، قيل لي أنّ هناك رحلة يومية وحيدة في صباح اليوم التالي إلى العاصمة بانكوك تمر عبر هذه المحطة، فانتظرت في العراء على رصيف المحطة إلى اليوم التالي..

في الصباح الباكر توافد على هذه المحطة المهجورة مئات من القرويين من المهاجرين إلى المدينة، أو الباحثين عن عمل، أو فرص لحياة أفضل، بعيدًا عن هذه الأنحاء البعيدة النائية، لم أكن أختلف كثيرًا عن هؤلاء القرويين البسطاء، وشعرت بأنَّ الجميع يتجهون صوب المدينة، وأنني الوحيد الذي يهرب منها، لكنني رغم ذلك يجب أن أعود إليها مهما ابتعدت.

تدبَّرتُ أمري إلى العاصمة بانكوك، حيث لن أطيل المكوث، فلم تعد تلك المدينة قادرة على منحي مزيدًا من الدهشة، فأكملت سفري باتجاه الجنوب لأخرج من هذه البلاد، وركبت القطار الدولي ليعبر بي مساحات شاسعة من الغابات والمناطق النائية المهجورة..

وبعد سفر طويل بالقطار عبر الغابات الاستوائية والسهول وصلت إلى كوالالمبور، أمضيت فيها بضعة أيام، استكشف أحياءها وأزقتها، وجدتني مشدودًا لتلك الأحياء القديمة التي تحمل طابعًا إسلاميًا، والتي يقطنها في الغالب سكان البلاد الأصليين من الملايو، سكنت في تلك الأحياء واندمجت بين السكان المحليين رغم الحواجز اللغوية، التي أحاول تجاوزها ببضعة كلمات تعينني على تدبير أموري اليومية، وهو ما يجعل واحدًا مثلي يشعر بالألفة، خصوصًا مع الحروف العربية المستخدمة كثيرًا في اللافتات الإرشادية وفي كل مكان، بالرغم من أنك قد لا تعرف معانيها، غير أنَّ ذلك يعطيك صورة عن حجم التأثير العربي على البلاد، وعلى السكان فترى أسماءً لعائلات عربية خرجت من جزيرة العرب ليستقر بها الحال في هذه الأنحاء، تشعر بنوع من الفخر وأنت تجوب تلك المناطق، فخر لا يخلو من غصة لأنَّ المد العربي والإسلامي توقف كثيرًا عمّا كان عليه منذ ألف عام، وإذا كنا بناة حضارة في يوم من الأيام فقد انشغلنا بعدها بشكل أناني، لقد انشغل كل منا بنفسه، إنّه ذلك التقوقع على الذات الذي لن يبنِ حضارة أبدًا في كل الأحوال، فبناء الحضارات يعتمد كثيرًا على التبادل الثقافي وتجانس الحضارات

وتزاوجها ليفرز حضارة جديدة مستلهمة من خليط متجانس من ثقافات متعددة، وهو ما نجح سابقًا عندما خرجت الحضارة الإسلامية لتنتشر في بقاع العالم، ونجح حاليًا مع الحضارة الأمريكية التي أصبحت جزءًا محليًا من ثقافات الشعوب..

مسألة التبادل الثقافي شجعتني على البقاء قليلاً في هذه البلاد، والبحث عن عمل لبعض الوقت، فعملت مترجمًا للعربية والإنجليزية، ثم معلمًا أدرس اللغة العربية، وبعدها عملت واعظًا دينيًا، وانتهى بي الأمر عضوًا في فرقة موسيقية جوالة، ورغم سخرية الأيام غير أن ذلك فادني كثيرًا في التوغل في المجتمع المحلي، وبين السكان الأصليين الذين تجد لديهم كثيرًا من الود والألفة، وتستغرب أنّهم قد يعاملونك كأنهم يعرفونك، أو كأنك واحدٌ منهم، وتعرفت أيضًا على بضعة أشخاص جاؤوا من المنطقة العربية، ربما للعمل أو الدراسة، بضعة شبان من السودان بينهم صحافية سودانية تراسل صحف عربية من هناك، وأكاديمي يدرس اللغة العربية في الجامعة، ورجل أعمال يجوب هذه الأنحاء، يتاجر بين عدة دول في هذه البقاع، يستورد من هنا ويصدر إلى هناك، إنه من أولئك المكافحين من أجل حياة أفضل، وربما سيرًا على نهج أولئك التجار العرب الذين جابوا هذه الأنحاء منذ أكثر من ثمانمائة عام وتركوا بصماتهم على جدار الزمن وعلى خارطة المكان..

أخذتني الجولة الفنية مع الفرقة الموسيقية الجوالة بين المدن الماليزية إلى مدينة «ملقا» الوادعة المستلقية على مضيق «ملقا»،

أو لعل أصلها «ملكة»، مدينة جميلة رائعة، تشم رائحة تاريخ عريق بين جنباتها، وهي تمنحك ذلك الشعور بالانسجام مع المكان، ربما لأن ألوانها تجعل الحياة تدب في شرايينك، وربما لأنه برغم عمرها القديم، وتاريخها العريق الواضح على مبانيها وشوارعها، غير أنها شابة تضج بالحيوية في تفاصيلها، وربما يعود ذلك لأنّها ثالث أصغر ولاية في الاتحاد الماليزي..

وبعد أن ودعتُ أعضاء الفرقة، واعتذرت لهم عن إكمال الجولة، واستقلت لأنني اكتفيت في الوقت الحالي من ترديد الأغاني الأمريكية من عقد الثمانينيات والسبعينيات مكثت في «ملقا» قليلاً، أعيش تفاصيلها ويومياتها، أشعر أحيانًا كأنني أعيش في معرض فني من عصر النهضة، وذات مساء قررت إكمال الرحيل، فتبرع أحدهم لإيصالي لأقرب محطة قطار، تبعد نحو ساعة أو أكثر قليلاً عن المدينة، وفي الطريق أخبرني بأن عليه أن يمر لاصطحاب زوجته وولديه، ولم يكن ذلك يعني شيئًا لي، فكانت كل الأحاديث معه تدور حول الزواج والمسؤوليات والحب ومتاعب الحياة..!

عندما وصلت المحطة، اكتشفت بعد أن غادر السائق أنّها كانت شبه مهجورة، تجولت فيها قليلاً إلى أن وجدت موظفًا بائسًا يجلس وراء منضدة خشبية عتيقة، أخبرني أنّ القطار فاتني وأنّ الرحلة القادمة ستكون في الصباح التالي لكنها تتجه إلى ميناء «جوهر بهر» ومنه إلى سنغافورة، فقررت الانتظار، وهكذا وجدتني في تلك المحطة المهجورة لا شيء فيها، لا استراحة أو مهجع يمكن المبيت

فيه، ولا حتى مقصف أو مقهى يمكن اللجوء إليه، لا شيء سوى أصوات القرود التي تعيش في الغابة المحيطة..

جلست على الرصيف، شعرت بالملل ونحن في أول الليل، وعامل المحطة غادر بعد أن أقفل مكتبه، شعرت بالوحدة، داهمتني الهواجس، ذرعت الرصيف جيئةً وذهابًا، رميت الحجارة على مباني المحطة، وعلى أشجار الغابة، أزعجت المخلوقات التي هجعت للنوم مبكرًا، حاولت كسر أقفال المكاتب البائسة، بحثًا عن طعام أو ماء، أو تسلية، ولم يكن هناك ما يمكن الاستفادة منه، ارتميت على كرسي المحطة الخشبي البائس، راقبت النجوم والقمر الحائر المختبئ وراء أغصان الأشجار الباسقة، وفي وقت ما من الليل أفقت بعد أن وجدت نسناسًا يعبث بشعري وبأغراضي، طردته هو ورفاقه، ووضعت حقيبتي المهترئة تحت رأسي وأكملت نومي لأفيق على ضجيج الناس المتوافدين على المحطة في الصباح الباكر وقد دبت الحياة في الرصيف البائس..

الفصل الثلاثون

الجنّة البائسة

ربما استغرقت الرحلة بالقطار من تلك المحطة البائسة شبه المهجورة، الواقعة في الغابات المطيرة في جنوب ماليزيا نحو ثمانِ ساعات، قبل أن تصل إلى سنغافورة، عبرنا خلالها مزيدًا من الغابات التي لا يسكنها سوى القرود والسعادين، التي تحب مشاكسة المسافرين، فتتبع القطار السريع متسلقة على الأغصان، وهي تُصدر زعيقًا ربما يكون تنبيهًا لبقية أفراد القطيع لخروج المتسكعين منهم على سكة القطار..!

تنظر إلى الخارج لا ترى سوى الأغصان المتشابكة، وقد تنقطع أحيانًا ليظهر لك منها نهر أو شريان ماء، كانت الرحلة ممتعةً نوعًا ما. شغلت نفسي بالقراءة طوال الرحلة التي لا يوجد فيها أي نوع من التسلية، وربما غفوت قليلاً، وتجولت بين عربات القطار قليلاً..

وصل بنا القطار إلى سنغافورة مساءً، وعندما خرجت من محطة القطار لم يكن في ذهني أدنى فكرة عمّا سأفعله، فتسكعت في شارع الأوركيد الشهير وانتهى بي المطاف في فندق رخيص إلى حد ما وهو قريب من الحي الهندي والذي يُسمى هنا «ليتل إنديا»..

كانت هذه البلاد قبل أن تصبح مستعمرة بريطانية إحدى الجزر التابعة للإمبراطورية السومطرية في القرن الثاني الميلادي، ثم تطورت وسُمِّيت بلغة أهل «جاوا» (تيماسيك) والتي تعني (مدينة البحر) لتُصبح جزءًا من سلطنة جوهر في الفترة ما بين القرنين السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر، قبل أن تتحوّل إلى مرفأ

غامض للقراصنة بعد أن أحرقها البرتغاليون لتستمر بعدها غارقة في الظلام لقرنين من الزمان، غير أنّ أسطورة شعبية استمر سكان البلاد في تناقلها عبر الأجيال حتى وصلت إلى عصرنا الحالي وهي تتعلق بتسميتها بهذا الاسم الذي يعني «مدينة الأسد»، إذ يُحكى أنّ أميرًا سومطريًا كان يستكشف الجزيرة وحيدًا وشاهد أسدًا فسماها بجزيرة الأسد، وتبين لاحقًا عدم وجود أسود تعيش على الجزيرة، ورغم ذلك استمرت التسمية، ليأتي بعد عقود طويلة نحّات أوروبي وبعد أن استقلت المدينة عن الاتحاد الماليزي في ستينيات القرن الماضي ليخترع لهم أسدًا بجسد سمكة ليكون شعارًا وطنيًا رئيسيًا للبلاد، لتصبح البلاد اليوم أحد أهم الموانئ التجارية في العالم ولتحجز لنفسها موقعًا منافسًا للدول الصناعية الكبرى.

في اليوم التالي وجدتني أتناول إفطاري في مقهى أمريكي في مكان يُسمى (جمهورية الغذاء) وتفاجأت عندما صادفت أحد أعضاء فرقتنا الموسيقية الجوالة التي كنت انضممت إليها في ماليزيا، وهو شاب خليجي في مقتبل العمر، فأكملنا التسكع سويًا، وأخبرني أنّه بعد أن هجرت الفرقة، قرر هو الآخر أن يهجرها، ويُكمل أسفاره في هذه الأنحاء، محتفظًا بآلته الموسيقية، ليُقدم بعض الأنغام هنا وهناك، بل وليشارك في فعاليات شارع العرب، الذي اتخذ اسمه من عدد المحال التي ترفع لوحات تحمل أسماء عربية، في حي يسكنه المسلمون من سكان البلاد الأصليين..

وبعد أيـام وفي صباح ماطر مشوب برطوبة استوائية وجدتني متوجهًا إلى محطة القطارات الدولية حيث سأجد قطارًا يحملني مرة أخرى إلى الأراضي الماليزية، إلى ميناء جوهر حيث سأسافر في قطار آخر باتجاه ولاية (سـراواك) أكبر الولايات الماليزية، وتقع في الجنوب الغربي من جزيرة «بورنيو»، وهي أرض بكر مليئة بالغابات المطرية والجبال الشاهقة والكهوف والأحياء البحرية والبرية وأجناس متنوعة من الناس.

الرحلة طويلة منهكة على غير ما توقعت، ووجدتني أتساءل عمّا دفعني للقيام بهذه الرحلة ومغادرة سنغافورة المدهشة، ولم يكن هناك إجابة أو سبب غير أنني أواصل الرحيل حتى وإن كانت الوجهة غير واضحة أو محددة، كأنّه ترحال عبثي بلا هدف أو نهاية، ربما لأننا جميعًا مسافرون، راحلون، مجرد عابري سبيل في هذه المحطات المؤقتة التي تشكل حياتنا ويومياتنا..

في القطار تجلس واجمًا متجهمًا لا تعرف ما ينتظرك، لا تعرف سوى الاتجـاه صوب غـروب الشمس، في رأسك تتزاحم الأفكار لدرجة تجعل مخك لا يعمل بصورة سليمة، لكنك توقن أنّ عليك مواصلة الرحيل، أن تبقى مسافرًا بين المحطات، وأن يبقى قلبك معلقًا بها إلى الأبد، كأنّ هروبك نتيجة حتمية لمواصلة أسفارك، تقرر مواجهة مخاوفك، مواجهة كل الذين يطاردونك، لكنك تعرف أنّ ذلك ضرب من الجنون، فكرك المُشوّش يجعلك غير قادر على التفكير..

بعد برهة وجدتني أقنع نفسي بأنَّ وجودي في مناطق «بورنيو» سيبعث في جسدي روح المغامرة من جديد، لأخرج من ترهّل المدن وكسل الفنادق..

صباحات هذه المدينة لها طعم مختلف، أجواؤها منعشة، وتاريخها حافل بالبطولة والشاعرية والقرصنة والتمرد، وخَضَعَت في يوم ما لحكم الأجانب عندما نُصّب سلطان بروناي «جيمس بروك» المغامر الإنجليزي حاكمًا للولاية عام 1841م لمكافأته على مساعدته في إخماد إحدى الثورات..

من نافذة الفندق الذي أقطن فيه، يمكنني أن أرى منظر النهر الذي يخترق المدينة، ليشكل منظرًا صباحيًا بديعًا، ممّا أغراني بالخروج من الفندق الذي أتقوقع فيه، لأخرج للفضاء الواسع، للغابة المطيرة، حيث توجد أقدم النباتات على وجه الأرض، وحيث توجد أقدم بقايا للإنسان في شرق آسيا ويرجع تاريخها إلى أربعين ألف سنة، في هذه الغابات المطيرة يوجد الكثير من المخلوقات غير المؤذية، بينها ما يطلق عليه سكان هذه الغابات رجل الغابة أو «اورانجوتان» والذي لا يعيش إلا في هذه الغابات في هذه المنطقة من العالم، وهناك تقع بعض الكهوف التي تشتهر بها هذه الولاية، تلك الكهوف الضخمة تعتبر واحدة من أجمل المعالم الطبيعية في العالم، ولذلك فقد تم تحويل المنطقة التي تحويها إلى حديقة «مولو» الوطنية، من بينها كهف يطلق عليه (الغرفة) يعد أكبر كهف في العالم، حيث يمكنه إيواء 40 طائرة بوينج 747 عملاقة.

وعلى ضفاف ذلك النهر وجدت بضعة مغامرين لديهم قوارب «الكاياك»، تلك القوارب المطاطية الرياضية، فركبت بمعيتهم، ليحملنا تيار النهر الذي اكتشفت لاحقًا أنّه يصبح جارفًا بشدة، ولابدّ من العمل كفريق واحد من أجل توجيه القارب بالمجاديف الجانبية، وإلا انجرفنا وتقطّعت بنا السبل، ثمة صخور وشلالات ومنعطفات علينا تجاوزها إلى أن يهدأ التيار الهادر الغاضب، كانت تجربة رياضة رائعة وخطيرة تفاجأت بالدخول في معتركها دون معرفة سابقة.

في ذلك المساء وأنت تسير على ضفة النهر الذي يشق المدينة، تغريك تلك القوارب الراسية على المرفأ التي تحمل العابرين والمسافرين لإكمال الرحيل، تمتطي أحدها حيث ستقلك إلى بروناي المجاورة..

القارب سريع ينهب الريح كأنّه يطير على صفحة الماء، رذاذ الماء يتطاير على وجهك، فتدخل لتجلس بين ثلاثة عشر راكبًا، تتفرس في وجوه المسافرين، تبحث بينها عن وجه تعرفه، وربما تبحث عن وجهها بينهم، أشجار القرم المائية التي نعبر من خلالها تجعلك تشعر أنّك في وسط غابات الأمازون الكثيفة، المنعطفات المائية، الخلجان التي تفضي بك إلى بحر الصين، حيث ستتقاذف الأمواج هذا القارب لتحوله إلى لعبة بيد القدر، كل ذلك يهيّض في النفس ذكرى الرحيل، كل تلك المرافئ التي عبرت منها، وكل تلك الأميال التي قطعتها، والقارات التي عبرتها، وكل تلك المدن وأزقتها، وكل

تلك النساء اللاتي صادفتهن لدرجة أنّك لم تعد تذكرهن..!

تجد أنّ حمّى الرحيل لا تزال تراودك كلمّا هممت بالاستقرار، ربما لأنك ترحل بعيدًا محملاً بميراث فاتحين جابوا العالم كله، لبناء حضارة بينما ترحل أنتَ بحثًا عن وهم، عن مزيد من الحماقات، عن أنثى قد تصنع لك جنتك البائسة..!

الفصل الحادي والثلاثون

عاشق إلى الأبد

ها أنت تكمل المسير، فقد سئمت المكوث في مكان واحد، تجوب العالم، تكمل دورانك حول الأرض، لأنّ عليك اللحاق بالشمس، تتبع غروبها، تتبع أحلامك، تسافر ليلاً كالعادة، وحيدًا كعادتك، فقد سئمت البقاء دون أسفار ولا ترحال، فمثلك مكانه بين السحاب، في المطارات، في أماكن متفرقة، كل يوم في مدينة، كل يوم في مكان جديد، تعيش في أحلامك، تنسى واقعك، لأنك تطارد حبًا، وهمًا، وتمضي متعلقًا بالماضي، لأنك لم تتمكن من الفكاك منه، حتى عقدت صلحًا معه، فلم تعد قادرًا على مواصلة الهروب، لم يعد هناك مزيد من العمر لإهداره في الهروب، ولأنّه قدرك المحتوم أن تظل عاشقًا إلى الأبد..!

هكذا تسير حرًا طليقًا كعادتك، ما إن تعود إلى المدن حتى تهجرها، تتسلل من بين أزقتها، لتعود إلى الفضاء الشاسع المفتوح، تمضي في دروبك، تجوب أقاصي الأرض، تتنقل بكل الوسائل المتاحة، قوارب وعبّارات، قطارات وطائرات، سيارات وحافلات، تتوغل بين القرى والبلدات، تسير متسكعًا بلا هدى، لا حدود لا خرائط ولا أهداف، لا محطات أو وجهة أخيرة، كل العالم محطات محتملة، لا فنادق ولا حقائب، لا حب ولا حتى أحلام، تسير متسكعًا في أرض الله الواسعة، تلف العالم، تجوب المدن والشوارع، وتستكشف القرى والبلدات، تستعيد حياتك المسلوبة، تقع في الغرام من جديد ألف مرة، وكلما شعرت بالحنين ستعود، لكنك تعرف أنك ستعاود

الرحيل، فمثلك لا يليق به إلا مواصلة الرحيل، أحيانًا تجد نفسك في مناطق نائية غير مأهولة، وأحيانًا تجد نفسك في وسط زحام المدن المتخمة، فلا تطيق البقاء فيها، لم تعد تطيق المدن، لأنك سئمت كل ما له صلة بالعالم المتحضر، لأنّه عالم قاس، يحكمه الرجال، وتتلاعب به النساء، كل خيبات الأمل التي اصابتك كانت بسبب النساء، كل لعناتك سببها نساء، ألف لعنة ولعنة وألف امرأة وامرأة، لاشك أنك في كوكب النساء، حيث تعبث النساء بمصائر الرجال، فلو فتّشت وراء كل الحروب وكل الانتكاسات التي عاشتها البشرية لابدّ أن تجد امرأة واقفة وراء المشهد..!

تواصل أسفارك وترحالك إلى أن تصل إلى تلك القرية المنسية على قمة جبلية منبسطة خضراء، تجدها تناسبك، هواؤها، طقسها، سكّانها البسطاء وسوقها البائس، تتمنى أن تقضي ما تبقى لك من العمر فيها..

في الواقع هي شبه جزيرة معزولة عن محيطها من بقية المدن والبلدات، من الواضح أنّها كانت في يوم ما جبل تحول بمرور الوقت إلى مكان جميل يقطنه بعض الصيادين، قبل أن يتوافد عليه السكان فيتحول إلى بلدة ويتحول سفح الجبل إلى هضاب مدرّجة يستخدمها أهالي القرية لزراعة حقول الأرز والأناناس وغيرها من المحاصيل، من بعيد يبدو البحر أزرق هادئًا، تتدرج زرقته بشكل رائع بديع متناغمة مع اللون الأخضر الطاغي على المكان، ومن بعيد يَلوح لك في الأفق جبل وسط البحر فُوهته بركان خامد،

لكنّ منظر الجبل يضفي لمسة سريالية على المشهد، قد تراودك رغبة في النزول إلى البحر، في الغوص فيه، لاستكشاف أعماقه، أو الاستجمام على شاطئه، لكنك تتكاسل لأنّ رحلة النزول صعبة، كما هي رحلة الصعود مرة أخرى، ثم إنّه شاطئ مهجور، لا يرتاده أحد، ربما بسبب الصخور وربما لأنّ سكان البلدة ليس لديهم الوقت للاستجمام..!

قد تبدو لك القرية كالجنّة، كأنّها الفردوس المفقود حتى وإن كانت بائسة، أهالي القرية يطلقون عليها، «بويستا ديل سول»، وهي كلمة لها أصل إسباني تعني «غروب الشمس»، فيقفز إلى ذاكرتك كلام العرافة الغجرية المجنونة، ربما كان هذا هو مقصدها، هذه القرية، وليس غروب الشمس السرمدي..!

غير أنّك لم تعد تكترث، لأنّك هنا في هذه البلدة ستجد العلاج الشافي لجروح النفس، وأوجاع الروح، وشفاء الفؤاد المفجوع، والقلب المفطور، هنا ستجد الذات وستتعلم المصالحة، ستتعلم الغفران، من أجل العثور على السلام الداخلي..

الآن عليك تقبّل الحياة كما هي فلا يمكن أن تكون أفضل ممّا هي عليه، عليك إقناع نفسك بأنّ هذا هو أفضل ما يمكن أن تحصل عليه، وأنّ هذه الحياة هي الأجمل بلا منازع، لابدّ أن تؤمن بأنّها مسألة وجودية قدرية لتتوقف عن مقاومة الأقدار، نعم ستبقى عاشقًا إلى الأبد، وليس بمقدورك تغيير ذلك، لأنّه قدرك، مصيرك المحتوم، لأنك تؤمن بأنّه ليس هناك حقيقة مؤكدة سوى وجود الله

وكل ما عدا ذلك قابل للشك..!

هنا في هذه القرية ستشعر بأنك لم تعد مطاردًا، ولست هاربًا، لم يعد أحد يكترث بك، لا أحد يهمه من تكون أو ماذا فعلت، بل وليس هناك من يكترث بالتّهم الباطلة التي تهرب من مواجهتها، هنا لم يعد من وجودٍ للماضي، لا شيء سوى الحاضر، ستعيش شخصًا جديدًا، ستكون أفضل، بلا نساء، بلا تاريخ ولا وطن، ستعيش يومًا بيوم، بهدوء، بسكينة لطالما بحثت عنها..

هنا في هذه القرية ستعيش ممتهنًا التّخفي لأنك أصبحت تجيده، بعد أن فهمت قواعد اللعبة، ستتمكن في هذه القرية من أن تهجر كل شيء، وتعتزل العالم، لتختفي وتتوارى عن الأنظار، فقد اخترتها لتكون منفاك الأخير، لتعيش فيها منفيًا مجهولاً غامضًا، ربما لن تجد الحب أبدًا، ربما لأنه لم يعد موجودًا أصلاً، وربما لأنك لم تعد تؤمن بشيء اسمه الحب في هذه الحياة بعد أن انطفأت أنواره في قلبك، لأنّ قلبك تحجّر فانزوى في كهفه الصخري، ربما تجد سلواك في هذا المكان، وربما تجد ما يشغل يومياتك، أو ربما قد تجد في يوم ما من تشعل جذوة الحب في قلبك مرة أخرى، وربما يبقى ذلك البصيص من الضوء ليبدد عتمة الفؤاد، لأنّ الأمل هو وحده الذي يجعلنا قادرين على الاستمرار، قادرين على مواجهة أعباء الحياة..!

لكنّك في الوقت الحالي تبقى كما أنت، تمضي الليالي متسكعًا وحيدًا، أو تعزف أنغامًا حزينة بجوار ذلك المُغني العجوز البائس

في الملهى الليلي المتواضع الوحيد، فقط لأنك تحب سماعه وهو يُغني أغنية «ماريا، ماريا» لكارلوس سنتانا..

أحيانًا تجد نفسك تتسكع وحيدًا في دجى الليل، ماضيًا سابحًا في ظلمة كأنّها لجة، تشعر بالتيه، تضطرب نفسك، وترتعد أوصالك، الظلام يكتنف المكان، ظلام دامس يصل إلى أعماق النفس، ثمةَ إضاءة خافتة تصل من بعيد، ربما تكون منارة بحارة، وربما تكون نجمة الشمال، تفكر، هل تتبعها، هل تتجه بعكس اتجاهها، أم تبقى تائهًا ضائعًا هاربًا من نفسك، ومن أشجانك وأشباحك وشياطينك، هل كتب عليك أن تبقى في التيه إلى الأبد، ألا يكفي أربعون عامًا من التيه في صحراء الوحدة والعزلة..!

قد تمضي أيامك بائسة بطيئة، وقد يُراودك أحيانًا الشوق للوطن، وربما لتلك الأيام الأولى في الحب، قد يزورك طيفها، وقد تشعر بها حولك، قد تعتريك دوامات من الصراعات الفكرية والعاطفية، لكن سرعان ما تتخلص منها، عندما تجد نفسك واقفًا تحت المطر المنهمر بلا انقطاع ربما لأيام متواصلة، تقف تحت المطر ربما لرغبة ملحّة في الاغتسال من الخطايا والآثام، وغسل الأحزان والآلام والندم، بل وغسل بقايا الماضي، لتشعر بصفاء القرية الهادئة، لأنك أصبحت معتادًا على العيش في هذه الأجواء، لأنك أخيرًا وجدت ذاتك، ولأنك أيقنت أنّه لا يمكن تغيير الماضي، غير أنّ المستقبل قصةٌ أخرى لابدَّ أن تبدأ في مكان ما..!

الفهرس

الفصل الأول	7
الفصل الثاني	13
الفصل الثالث	21
الفصل الرابع	27
الفصل الخامس	35
الفصل السادس	45
الفصل السابع	61
الفصل الثامن	71
الفصل التاسع	83
الفصل العاشر	95
الفصل الحادي عشر	107
الفصل الثاني عشر	117
الفصل الثالث عشر	135
الفصل الرابع عشر	147
الفصل الخامس عشر	161
الفصل السادس عشر	171
الفصل السابع عشر	179
الفصل الثامن عشر	191
الفصل التاسع عشر	199
الفصل العشرون	205
الفصل الحادي والعشرون	211
الفصل الثاني والعشرون	225
الفصل الثالث والعشرون	237
الفصل الرابع والعشرون	249
الفصل الخامس والعشرون	261
الفصل السادس والعشرون	273
الفصل السابع والعشرون	281
الفصل الثامن والعشرون	291
الفصل التاسع والعشرون	305
الفصل الثلاثون	317
الفصل الحادي والثلاثون	325

تأخذكم هذه الرواية في رحلة حول العالم، ضمن رحلة الراوي في بحثه عن الذات وعن حبه الضائع وبحثه عن السلام الداخلي والخلاص العاطفي، وذلك ضمن سرد روائي مشوق تتخلله مغامرات خطيرة.

القلق يكاد يفتك بي، وضربات قلبي تتسارع، فكرت طويلا ووضعت ألف احتمال لسبب وقوعي في هذا المأزق، ازدادت وتيرة التوتر وشعرت بانه لابد من مغادرة هذا المكان فورا، فيستحيل أن تنتهي رحلتي في جوانتنامو..!

سعيد البادي

كاتب وروائي إماراتي

صدر له:

"رحلة في بلاد النارين"، "مذكرات رحالة"، "مع ملائكة مكة"، "المدينة الملعونة"

@ssalbadi

www.kuttab.ae
ISBN 978-9948-18-795-0
9 789948 187950
كُتّاب Publishing